وايات عالمية

محاكم التفتيش



١٥٧ شارع عبيد ـ روض الفرج

تليفون ٤٠٥٨٨ ـ ٤٠٨١٤ ـ ٤٠٧٥٣ ـ ٤١٠١٢ ـ ٤٥٣٤٦

العدد ١٨٥ الثمن ٣ قروش

روايات عالمية

محاكم التفتيش

بقلم الكاتب الانجليزي الكبير

رفاييل ساباتيني

مؤلف روايتي : سكاراموش . والقرصان

تحميل كتب http://abbassa.wordpress.com

الفصـــل الاول
الفيلسوف المعتزل

كثيرا ما كان يقال عن « روجر تريفاليان » وهو من كبار الاشراف ويلقب بالاول اوف جارز ، انه يفضل صحبة الموتى على صحبة الاحياء . وكان هذا القول تهكما بنزوعه الشديد الى العزلة ، وانكبابه فى القراءة والدرس والاطلاع .

ولكنه لم يكن يأبه بهذه النكتة الساخرة ولو سئل فى شأنها لاجاب بأن الاخيار وحدهم هم الموتى : لانهم بموتهم لم يعودوا على فعل الشر قادرين . !

ولا يخفى أن حالة نفسية كهذه لا بد ان تكون نتيجة تجربة مؤلمة فى الحياة . وهذا هو الواقع فى حياة روجر تريفاليان ، فقد كان صديقا حميما الامير ال توماس سيمور الذى ادت به الدسائس فى البلاط الانكليزى الى آلة الاعدام وكاد خو لصداقته به ينساق اليها على اثره .

وكانت تهمة سيمور انه يحب الاميرة اليصابات ، وانه قد تآمر معها على خلع نائب الملك والاستيلاء على زمام السلطان من يديه . وقد قبض على جميع الذين كانوا متصلين بالاميرة وأصدقاء لسيمور ، فكان تريفاليان من بينهم . وقد سيق الى مجلس الوصاية متهما بالاشتراك فى تلك المؤامرة على أمل ان يشهد على صديقه ويثبت التهمة عليه . !

ولكنه ظل وفيا لذلك الصديق حتى النهاية ، فلم يتمكن المجلس من حمله على خيانة عهد صاحبه .. لا بالارهاب ولا بالاغراء .. فبقى سجينا فى البرج الى يوم تنفيذ حكم الاعدام فى ذلك الصديق الحميم الذى أخلص

إليه ، فسمحوا له بالدخول عليه .. وأذنوا له في شيء لم يعلن الرغبة فيه ، وهو نقله من محبسه إلى الغرفة التي كان سجينا فيها .. ليدخلوا إليه .. قبل الوداع .

وكان تريفاتيان يومئذ في الحادية والعشرين .. وهي السن التي يكون فيها حب الحياة عند الإنسان قويا غلابا مستحوذا على سائر المشاعر بقدر كره الموت لديه .. حتى ليفزع من مجرد رؤيته إنسانا على وشك الممات أو في ساعته الأخيرة .. فلما أدخلوه عليه وجده في حالة سكون غريب لم يفهم سره .. لأن الأمير الـ سيمور كان أيضا صغير السن .. لم يتجاوز الثلاثين .

ولم يكد يرى تريفاتيان قادما نحوه حتى استوى على قدميه لتحيته في فرح وسرور .. ولبث يتحدث إليه بكل هدوء عن صداقتهما .

وحين رأى حزن تريفاتيان وألمه .. ناشده ألا يحزن ولا يتألم مؤكدا له أن الموت ليس مسألة مهمة .. ولا أمرا مروعا مخيفا إذا ما وطن المرء نفسه على لقائه .

وطفق ينبئه بأنه قد ودع الأميرة في كتاب قضى الليلة الماضية كلها في كتابته .. وأنهم في السجن رفضوا أن يعطوه قلما ومدادا فاحتال على أن يكتب بقطعة من خشب مدببة وأن يجعل المداد من دمه .. وأن هذا الكتاب قد أخفاه تحت فرشة حذائه .. على أن يلتمس رجلا موثوقا به في تسليمه للأميرة عقب تنفيذ حكم الإعدام فيه .

وقد بدت على شفتيه وهو يقول ذلك ابتسامة غريبة كما لمعت عيناه ببريق عجيب تحير في فهمها تريفاتيان في تلك اللحظة ، وعجب أشد العجب .

وأخيرا تعانقا ثم افترقا .. وأعيد تريفاتيان إلى سجنه حيث لبث يدعو الله لصديقه ويحاول حل لغز ذلك الحديث الذي حدثه به صديقه في تلك الخلوة الرهيبة ؛

ولكنه لم يعرف السر في ذلك الحين ، وإن كان قد علم به بعد ذلك .

لقد تبين « سيمور » من معرفته بالرجال وخبرته بالحياة أن إيفاد تريفاتيان إليه في السجن لهذا الوداع الأخير لا يمكن أن يكون صادرا عن شفقة عليه ، أو رثاء له .. وإنما كان خصومه يرجون من وراء ذلك أن ينتهز سيمور الفرصة فيرسل إلى الأميرة كتابا أو رسالة تكشف عن علاقته بها ، حتى لقد بثوا العيون والأرصاد خلف جدران محبسه ليسترقوا السمع والبصر خلال زيارة صديقه له

هذا ما خطر في بال سيمور فكان حديثه مع صديقه في خلوتهما تلك عن الكتاب الذي كتبه للأميرة بمداد من دمه . لكي يعرف خصومه بوجود ذلك الكتاب فيستولوا عليه . لأنه توخى في كتابته ألا يذكر فيه شيئا يدين الأميرة أو يثبت التهمة عليها إذا هو وقع في أيديهم .

لقد كان ذلك آخر دليل قدمه سيمور لإثبات إخلاصه ونبله وإن كانت ظروفه وكتابة الخطاب بمداد من الدم قد ولدت حكايات وإشاعات وأقاصيص عن علاقة الأميرة به راحت يومئذ ولاكتها الأفواه .

وخرج تريفاتيان من هذا الحادث ناجيا بالحياة ، ولكنه افتقد مع ذلك الإيمان بالناس وبغض إليه الحياة الاجتماعية ، وحبب إليه العزلة والابتعاد عن البلاط والفرار من خدمة الملوك .

وذهب يستأذن الأميرة [illegible] ، وفي أثناء الحديث ذكر ذلك الكتاب فما كان من تلك الفتاة الهيفاء التي لم تكن جاوزت السادسة عشرة إلا أن أرسلت زفرة ثم ابتسمت ابتسامة حزينة لو أنها لاحت على وجه امرأة تبلغ ضعف سنها لكانت عجيبة ، على موضوع استغراب .. وراحت تعيد الكلمات التي قالتها من قبل بحذر واحتياط ، وإن تغيرت

يومئذ نفسها ، وهي « لقد كان رجلا كثير الذكاء قليل المرونة . يرحمه الله ! » .

ولعل هذا هو الذي جعل تريفاليان يتشدد في طلب العزلة ويزداد كراهية في عيشة البلاط . فقد كاد يتعرض للموت ، كما شاهد منذ جاوز قصور الملوك ما يتزاحم في أفقها من المطامع ، وما يجري فيها من المخازي وما يكتنف المرء فيها من الأخطار .

وهكذا سافر تريفاليان الى املاكه الواسعة في كورنوال ليقيم بها اقامة دائمة ، ويرعى شئون أسرته بنفسه ، وكان آباؤه قد عهدوا بها الى الخدم والنظار والوكلاء ، وقد أصبحت الاميرة بعد ذلك ملكة وأحبت أن تكافيء الذين خدموها في أيام محنتها فأرسلت اليه تستقدمه . ولكن هذه الدعوة المغرية مع ذلك لم تستهوه نابي الأهالب .

وتزوج بعد عشر سنوات من ذلك التاريخ باحدى بنات اسرة شريفة حسنة تدعى آل جودولفين ، وكانت حسناء يقول الرواة عنها أنها اوتيت من الحسن درجة تجعل كل من يراها لاول نظرة يحس دبيب الحب لها في جوانحه .

واذا صح هذا الذي روى عن جمالها ، فالظاهر ان الحسن كان هو كل ما لديها من مواهب وصفات وكأنما كان زواج تريفاليان بها عاملا آخر يزيده كراهية في الحياة وشؤما بها ومقتا للناس اذ دلته بسلوكها وسوء سيرتها وخلوها من جمال النفس على أن الظاهر الجميل خداع ، والاديم الابيض الناصع قد يحجب خلف القشرة احشى الفاكهة .

ولعل الاقدار ارادت خيرا به اذ اصيبت بعد ولادتها الاولى بحمى النفاس فقضت نحبها عقب الوضع باسبوعين وبعد ان عاشرته خمسة أعوام سامته فيها سوء العذاب .

وكان يوم مماتها في السادسة والثلاثين ، ولكنه مع ذلك لم يفكر لحظة واحدة في تجربة الحياة الزوجية مرة أخرى فقد أصبح يومئذ مرير النفس متطيلا متبرما يضع كل همه في قراءة الكتب واقتناء غرائب المؤلفات ، حتى جمع لديه في قصر تريفاليان القائم وسط أملاكه الشاسعة مكتبة حافلة بأكبر ذخائر الفكر وكنوز العلم والمعرفة .

وعلى مر السنين أمسى يعيش الفلاسفة ، مكبا طيلة يومه على الكتب ، يبحث ويدرس مختلف النظريات ، في غير اتصال بالحقائق الواقعية او اهتمام بالحياة التي تضج وتعج من حوله حتى يكاد ينسى نفسه وسط الكتب ، ولا يعرف سياق الحوادث الجارية .

وكانت انجلترا في ذلك العهد مصابة بداء الخلاف الديني ، وانقسم أهلها بين البروتستانت والكاثوليك ، ولكنه لم يتأثر بذلك ولم يهتم ، كما كانت بلاده في خطر شديد من غارة أسبانيا عليها وعداوتها البيتة لها . والناس في قلق بالغ ، يتهاونون ويتدبرون ويستعدون للقاء الغزاة والمغيرين ، فلم يكن تريفاليان ليحفل بذلك الخطر او تستيقظ في صدره عاطفة الشعور بالجو الذي يعيش فيه ، وكانت قد تقدمت به الاعوام وعلاه المشيب .

وقد تركت له زوجته طفلة ، قبل وفاتها : تتركها تنشأ كما تشاء ، ومن الغريب الذي لا يكاد يصدق أن الطفلة عرفت كيف تختار ، لانها كانت الشخص الوحيد الذي فهمه على حقيقته ، بل في الواقع الشخص الوحيد الذي كان يحبه ، لانه لم يكن بالطبع يجد من أحد محبة بسبب نفوره من الانسانية وشدة تبرمه بالحياة .

وكانت الصبية قد اكتسبت شيئا كثيرا من جمال أمها كما ورثت عن أبيها سمو النفس ونبالة الاحساس وعظيم السجايا والخلال التي كان يمتاز بها في شبابه قبل

ان يلقى إيمانه بالناس .

واذا كانت قد بلغت الخامسة والعشرين ولم تتزوج بعد ، فان الذنب ذنبها هي دون احد سواها ، لان الخطاب وطلاب الزواج بها لم ينقطع قدومهم من وقت بلوغها السابعة عشرة من العمر حتى لقد كان قدومهم وذهابهم بهذا الاستمرار مما يثير غضب ابيها ويزيده سآمة وضجرا .

وقد اشتهرت بانها قد دمرت قلوبا كثيرة ، وحطمت افئدة عشاق عديدين ، برفضها حبهم ، وابائها عزائمهم واقبالهم على خطبة ودها وكسب رضاها ، حتى بقيت هكذا في مثل جمود صخور الساحل القريب من دارها ، تلك الصخور الشاهقة التي تتحطم على اديمها السفن في مهاب الزوابع والاعاصير .

لقد كانت تحب حريتها الشخصية اكثر من كل شيء في هذا العالم ، وتابى التفريط فيها ! وكان هذا هو جوابها كلما طلب خاطب يدها ، اذ شعرت كالملكة ذاتها بالعيش عذراء ، واثرت هذا العيش على سواه ، فلم تفكر في تغييره او التحول عنه باية حال .

ولم يكن ذلك عذرا تتشفع به فقط لرفض الخطاب ، ولكنه كان الحقيقة بالفعل ، فقد نشأت اللادي مرغريت تريفاليان بسبب نشأة والدها وطبعه ونزعاته تحب عيشة الاسترجال وتحرص على حريتها كل الحرص ، وتتشبه في حركاتها وسكناتها بالشبان والرجال ، فكانت في سن السادسة عشرة تغدو وتروح طليقة العنان ، لا تسال عما تفعل ، وليس على سلوكها من رقيب ولا حاسب ، وتصرف اكثر وقتها في ركوب الخيل والخروج الى مسارح الصيد ومطارد القنص ، كانها فتى من فتيان العصر سواء بسواء .

والغريب ان هذه النزعة الاسترجالية لم تخدش من انوثتها مطلقا ، بل اكسبتها بالعكس جمالا معنويا آخر

بجانب جمالها الجسدي وخلع عليها وقارا ومهابة فائقة ، وتركها قوية الارادة في ضبط نفسها وامتلاك نفوس الآخرين .

وفي ذلك العهد الذي نقص عليكم نباه . كانت مرغريت قد ناهزت الثالثة والعشرين ولا تزال عذراء معتزمة البقاء هكذا ما شاء الله ان تبقى ، فلم تكن تشجع احدا من الشبان المتقين حولها ، اللهم الا شابا واحدا مليحا محيا يدعى « جرفاس كرودي » سليل اسرة عريقة تقيم بجوار اسرة ابيها ، في « أدونيالك » . ويدعى سيدها السير « جيمس كليجرو » وهو رجل اعزب لم يرزق بولد ، فاحب جرفاس حبا ابويا وود ان ياخذ بيده في هذه الحياة ويرقى به مدارج السلم الاجتماعي الى الذروة العالية .

وكانت بين كليجرو وبين اسرة جودولفين ، وهي اسرة والدة مرغريت . صلة وثيقة من نسب قديم ، فكان يعد نفسه فردا من اهل البيت ، لا تكليف يمنعه من زيارته في اي وقت ، وانه ليدخل على تريفاليان معتزله غير مستاذن ولا طارق ، ولا حائل بدخول الشيخ وحفاوة استقباله .

وكان كليجرو هو الذي اصطحب لاول مرة الشاب جرفاس الى قصر تريفاليان في احد الايام .. حين كان هذا فتى في السادسة عشرة وسيما مليحا جذاب الملامح ترعرع قبل الاوان .

فلم تلبث « مرغريت » ان استلطفته وانست اليه .. وراحت تعامله معاملة صديق من الشبان لصديقه .. فشجعه هذا على التردد على القصر في غالب الاحيان .. وكانا متماثلين في العمر والاذواق والمنازع ومطالب اللهو والتسلية .. فتمكنت بينهما الصداقة وتوثقت اسبابها .

وكان كليجرو بعد تردد طويل قد اعتزم ان يسلك فتاه هذا في دراسة الحقوق على امل ان يجد له مستقبلا في عالم السياسة قائلا انه اذا ظهر ان له من جمال العقل

وبريق الذكاء مثل ما له من جمال الوجه وزينة العـــارض ووضاءة المحيا . فسوف يكون له بلا ريب شان في قصر الملكة وهى المعروفة باستحسان الملاح من الشباب وترقيتهم الى اعلى المراكز والاخطار .

ولهذا لم يتردد في استقدام المعلمين والاســاتذة الى قصر ادونباك لتربية الشاب وتثقيفه على النحو الذى فكر فيه .

ولكن كان رأى الفتى نفسه مختلفا مع رأى الشيخ في هذا الشأن ، وهو ما يحدث غالبا .. فقد كان كروسى ذا مزاج خيالى ، وعاطفة غزلة واحساس رقيق . فلم يجد في دراسة القانون شيئا يتناسب مع مزاجه هذا ومشاعره ، وان كان كليجرو كثيرا ماحاول اقناعه بمزايا هذه الدراسة وفضلها الكثير .

لقد كان الشاب جرفاس يتطلع الى حياة المخاطر .. ويريد أن يعيش عيش المجازف المقتحم .. معتقدا ان من يحيا في خطر انما يحيا أصدق الحياة . !

وكان العالم يومئذ ضاجا بأصداء الوقائع العجيبة التى وقعت للبطل المخاطر « سير فرانسيس دريك » .. الذى طاف العالم بسفينته فلم يلبث البحر أن استهواه بمخاطر ركوبه وطوافه .. وما تخيل فيه من الفرص السوانح لكشف أسرار الدنيا وعجائبها .. وارتياد المجاهل وتخومها .. والاهتداء الى البحار المجهولة وسواحلها .. والاقطار السحيقة واهلها الذين لم تسمع الدنيا بخبرهم .

فما زال بقريبه وراعيه الحنون كليجرو حتى اقنعه بتفاهة دراسة القانون ومزايا حياة الملاح على صدر الاوقيانوس .

وكان كليجرو رجلا عاقلا خبيرا .. فادرك ان النجاح لا يؤاتى رجلا في عمل لا يميل اليه بسليقته ولا يضع فيه

قلبه وخاطره ،

وهكذا اخذ السير جون كليجرو الشاب الى لندن ، وكان ذلك عقب بلوغه العشرين من العمر .

ولكن قبل أن يسافر جرفاس في أول رحلة له أحب أن يطمئن الى مصير عاطفته .. ويؤمن على أحاسيس قلبه .. فراح يعرض على مرغريت فؤاده ويده وما ملكت . والمستقبل الذى ينتظره .. وما سيظفر به فيه من ثمرات كفاحه وجهاده .

وقد وقع هذا من مرغريت موقع الدهشة ، فقد كانت من كثرة اختلاطها به تعده بمثابة اخ لها .. وتبيحه ما تبيحه الاخت عادة لاخيها من رفع الكلفة .. ومقتضيات المودة والالفة .. حتى لقد سمحت له في بعض المناسبات مثلا بتبادل قبلة أو قبلتين في حماسة العاطفة الاخوية البريئة .. فلا عجب اذا هى فوجئت في المكاشفة مفاجأة .. حتى خيل اليها أن انتقال الموقف من مجرد عاطفة أخوية الى علاقة غرامية أمر فكه يثير الضحك .

فلم يسعها الا أن تصارحه برأيها هذا .. فلم يكد يسمعه حتى غضب واشتد في تعنيفها ولومها .. وراح يحتج ثم يتوسل .. ثم يعود غاضبا تاركا لثورته النفسية آخر العنان وأبعد المدى .

ولكن مرغريت ظلت هادئة فقد علمها الاعتداد بالذات الذى اكتسبته من تربيتها كيف تتمالك نفسها ، وراحت تلتجىء في مناقشته الى تلك الحجة التى طالما اتخذتها سندا لها في رفض الخطاب وهى انها تؤثر البقاء عذراء على عيشة الزواج ، وانها انما ترى ذلك اسوة بالملكة كانما قد جعلت العذرة مزية من مزايا الملكات !

وتألم جرفاس من الصدمة فذهب مطرقا حزينا ليستأذن من أبيها قبل السفر . وكان هذا في تلك اللحظة

عارفا في فلسفة افلاطون ذاهلا عن كل شيء فلما دخل جرفاس عليه ساءه هذا الازعاج واراد ان يقطع سبيل هذا الازعاج باختصار الكلام ، ولكن جرفاس أصر على أن يعرض عليه قصة شذوذ مرغريت في رأيها عن الحياة ؛ وكان يطمع من ذلك بلا شك في تأييد الشيخ له ومساعدته على رد مرغريت الى الصواب والعدول بها عن فكرتها الخاطئة .

غير أن تريفاليان الذي كره منه دخوله وازعاجه على تلك الصورة لم يكد يسمع القصة حتى راح يحملق النظر في وجهه من تحت حاجبيه الكثيفين ، ثم قال :

– اذا ارادت حي أن ترعى قرودا في جهنم فما لك انت وهذا الشأن ؟

واذا كان كروسبي قد شعر بصدمة الينة من رأي مرغريت فيما يعده من أهم شيء في الحياة ، فان الصدمة التي شعر بها من كلام أبيها كانت بلا شك أقسى وأشد .

ولكنه لم يشأ أن ينهزم بهذه السرعة ، فقال :

– ان الامر يهمني لانني أريد أن أتزوج بها .

غير أن الشيخ ظل يحدجه بنظره في صمت ، ثم قال أخيرا :

– وما الذي تريده مرغريت ؟

فأجاب الفتى بقوله : لقد حدثتك بما قالت لي انها تريده .

فعاد الشيخ يقول في تمهل :

– اذا كانت قد قالت لك هذا الذي تقول انها قد قالته فلست أدري ما الذي حدا بك اذن الى ازعاجي بهذا الشكل ؟

ولو سمع شاب غير جرفاس هذا القول من الشيخ لتخاذل واستسلم ، ولكن جرفاس استخلص منه فكرة طيبة في مصلحته ، واحسب كينجرو كان على حق فيما تصوره حين خطر له أن يسلك هذا الفتى في دراسة الحقوق ، فانه كان

بلا ريب سيروح محاميا عظيم الشأن ، لو لم يبرح الى البحر ومخاطره .

فقد راح يقول :

– اعتقد ان سيدي اللورد يعني انني بهذا الطلب جدير وانما اذا امكنني أن أحمل مرغريت على تغيير رأيها .

فقاطعه الشيخ قائلا :

– انني اعني أنك اذا استطعت صرف مرغريت عن رأيها هذا فسوف أفكر في الامر لان من عادتي أن لا أبحث في شيء أكثر مما هو تحت يدي ولا أزعج نفسي باحتمالات قد لا تتحقق مطلقا .

هذه هي النصيحة التي أقدمها اليك كهدية وداع وأعتقد انها أغلى وأعز من اية هبة أو منحة يمكن ان تقدم اليك . اذهب يا فتى فلعلنا نسمع عنك خيرا وليكن التوفيق لك رائدا .

وانصرف الشاب مطاطيء الرأس كاسف البال .

الفصل الثاني
العاشق

وسافر جرفاس وهو يعتقد ان الشيخ والد مرغريت لم يكن مشجعا له ، ولكن اى شيء يشتهيه الشباب ولا يعتقد انه في النهاية يدركه ؟

ولهذا لم يلبث اعتداده بنفسه وايمانه بأن النجاح حليفه ان عاوداه فنشط واشتعلت حماسته للمستقبل قبل الرحيل

ووصل الى لندن مع كيلجرو بعد أسبوع ، وكان هذا رجلا كبير النفوذ ، فلم يكن من العسير عليه أن يتوصل الى البلاط ، فضلا عن انه كان صديقا للاميرال لورد هوارد أوف ايفنجهام ، فلم يتردد في مقابلته وعرض امر الشاب عليه ، فاستقبله

الاميرال بترحاب ووعده بالمساعدة . وكان الانخراط فى سلك البحرية فى ذلك الوقت سهلا وبالاخص بالنسبة للشبان الذين ينتمون الى اسرات عريقة .

ولكن الصعوبة كانت فى ايجاد عمل فى الحال لجرفاس ، فخطر للاميرال ان يقدم الشاب الى السير جون هوكنز وهو من كبار رجال البحر واصحاب السفن ، فتحدث الرجل الى الفتى ليختبره ، واذا به يشهد له فى الحال بالذكاء . كما أبدى اعجابه بقوامه وحسن بنيته ، وبريق العزم وقوة الارادة التى تشع فى عينيه .

وعلى الفور اعطاه كتابا لقريبه ، وهو السير فرانسيس دريك ، وكان هذا يوشك أن يسافر من بليموث فى سياحة لا يعرف احد غرضها .

ومن ثم عاد جرفاس مع الشيخ كيلجرو فى لندن لمقابلة السير فرانسيس دريك فى ثغر بليموث ، فلما اطلع هذا على كتاب التوصية احتفل به ، ثم تطلع الى الشاب فاشتد اهتمامه وأبدى عنايته بالمسألة ، فلم يتردد فى اعطائه عملا دون ان يعين له مداه ، وانما قال ان اسطولا من خمس وعشرين سفينة خصوصية على وشك الابحار ، وهى لا تحمل ترخيصا ملكيا ولا اعترافا من الدولة بها ، بل قد تضطر الحكومة الى التبرؤ منها اذا انكشف سر العمل الذى تريد أن تؤديه ، اى انه عمل خطر ، ولكنه مع ذلك شريف لا غبار عليه .

فلم يتردد جرفاس فى قبول العمل دون ان يسأل عن جلية حقيقته ، واستأذن من الشيخ ، وانتقل الى سفينة السير فرانسيس دريك ، فلم تمض اربعة أيام حتى كانت السفينة فى عرض البحر جارية .

وكانت انجلترا كلها تعلم الغرض من سفر هذا البطل العجيب ، وان لم تكن تدرى كيف تراه سيعمل على تنفيذه ،

بل كان هو أيضا لا يعرف السبيل ، ولكنه كان طلقيا وطنية كما كان الشعب الانكليزى عن بكرة أبيه متحمسا غاضبا يطلب الثأر من اسبانيا عدوة بلاده وخصمها المبين واذا كانت الحكومة قد عجزت عن الانتقام للشعب من ذلك العدو فليقم افراد منه اذن بذلك الانتقام لانهم غير مقيدين مثلها بكثير من الاعتبارات السياسية كما هو شأن الحكومات .

وكانت الاقاليم الشمالية فى ذلك العام فى خطر من المجاعة بسبب القحط الذى حل بها وقلة المحصول .

وعلى الرغم من الجفوة الخفية التى كانت يومئذ بين اسبانيا وانجلترا تلك الجفوة التى يحتمل فى اى وقت ان تؤدى الى وقوع حرب شعواء بينهما ، وعلى الرغم من المؤامرات التى كان فيليب الثانى ملك اسبانيا يدبرها بتحريض البابا لتأديب الملكة الكافرة الخارجة على الدين التى تحتل عرش انجلترا والتى شلحها البابا وحكم بكفرها ولفظها من رحمة الكنيسة ، كانت المملكتان فى سلام ، فى الظاهر فقط ، ومن حيث العلاقات الرسمية لا اكثر ولا اقل .

وكانت انجلترا تملك من القمح ما هو اكثر من حاجتها ، ولا مانع عندها من توريد كميات منه لتلك الاقاليم المهددة بالمجاعة ولكن بالنسبة لما حدث يومئذ من الاعتداءات الوحشية التى اوقعها ديوان التفتيش على فريق من البحارة الانكليز الذين قبض عليهم فى بعض الثغور الاسبانية ، لم تكن سفينة من السفن التجارية فى انجلترا تريد أن تخاطر بالسفر الى اسبانيا ما لم تحصل على ضمان يقيها شر العدوان ويكفل لها السلامة من الاذى ، وكانت هذه الضمانات تقدم على شكل تعهدات من الملك فيليب الثانى بأن السفن التجارية المحملة قمحا سوف لا تتعرض لأى اعتداء .

ولكن على الرغم من هذه التعهدات كانت سفن القمح التى

تصل الى الأقاليم الشمالية مثل كورونا وبيلباو وسانتاندير لا تلبث أن يقبض عليها وتصادر حمولاتها ، ويعتقل بحارتها ورجالها ، بحجة أن انجلترا كانت يومئذ تمد يد المساعدة الى هولندا والبلاد الواطئة وكانت هذه قد شقت عصا الطاعة على اسبانيا في ذلك الحين .

ولم تنفع يومئذ المفاوضات السياسية فان الملك فيليب ظل يتحايل من المسئولية ويتهرب من التبعة ، مدعيا ان البحارة الانكليز الذين قبض عليهم لم يعودوا تحت يده . ولم يأمر هو باعتقالهم وانما هم قد وقعوا في قبضة رجال الدين ، او ديوان التفتيش ، باعتبارهم كفرة يستحقون التأديب فمنهم من كان يترك في السجن ليتلوى ويتعذب ، ومنهم من كان يرسل الى الليمان لقطع الحجر كالسري ، كما ان فريقا منهم كانوا يحرقون في المحارق التي تقام خصيصا لهذا الغرض في يوم معين يعتبر عند رجال الكنيسة عيدا عظيما من الاعياد .

ولم يكن هناك اى امل في انقاذ الذين لا يحكم عليهم بالموت حرقا وانما كان الامل الذي يساور الانكليز هو مجرد الانتقام لهم ، باعطاء اسبانيا درسا قاسيا لا تنساه ؛ ويروح عن الصدر عبرة بالغة .

على أنه لم يكن هذا في وسع الملكة ، لانها لا تستطيع ان تفعله باسمها ولانها على فرط غضبها من هذه الحوادث المتكررة كانت حكيمة في اعتقادها انه لم يكن من العقل والصواب الدخول في حرب مع اسبانيا العظيمة القوية في وقت لم تكن انجلترا فيه على استعداد لمحاربتها - ولكنها مع ذلك كانت لا تضن بعطفها على الافراد المخاطرين الذين يقتحمون الاخطار في سبيل الانتقام لبلادهم من عدوها اللدود - حتى اذا ما قبض عليهم ، امكنها أن تتهرب من المسئولية عن عملهم - هذا هو سر سفر السير فرانسيس دريك باسطولة الصغير

المؤلف من خمس وعشرين قطعة ، أو قل هذا هو الغرض الذي سافر حرفاس كروسبي التجربة حظه في سبيل تنفيذه ، لعمل من اعمال البطولة الوطنية فوق صفحة الاوقيانوس الخضم العظيم .

وقد استغرقت هذه السفرة عشرة أشهر ، وكانت ملأى بالحوادث حافلة بالمخاطرات ، حتى لو ان شابا مثله قضى عشرات السنين في ركوب البحار في الظروف العادية لما تلقى من التدريب والمرانة على القتال البحري ومطالبه وفنونه مثل ما أصاب جرفاس في تلك السفرة القصيرة .

فقد ذهبت السفائن أولا قاصدة نحو ثغر ، فيجو ، في شمال اسبانيا وكان الوقت موسم جمع الاعناب من الكروم ، فلم يكد القوم يشعرون بظهور السفن الانكليزية في مياههم حتى انزعجوا وتركوا عملهم ولكن دريك ارسل اليهم اعلانا يؤذنهم فيه بغرض مقدمه . كما بعث الى حاكم المدينة يسأله هل يعتبر ملك اسبانيا في حرب مع ملكة انجلترا ؟ فأكد له الحاكم أن لا حرب مطلقا بينهما .

فعاد يسأله وكيف اذن قبض على السفن الانكليزية التي جاءت الى الثغر وصودرت حمولاتها واعتقل ضباطها ورجالها ، وعوملوا اسوأ المعاملة ، فمنهم من سجن ، ومنهم من أسر ، ومنهم من سيق الى الموت في المحرقة ، على الرغم من تعهدات الملك ومواثيقه ؟

ولكنه لم يتلق من الحاكم جوابا صريحا ، وما كان محتاجا في الواقع الى الجواب ، وانما كان غرضه من ذلك كله تفهيم الحاكم أن رجال البحر الانكليز لا يمكن أن يقبلوا ان يعامل اخوتهم بهذه المعاملة .

وراح يطلب من الحاكم اغذية ومؤونة ، كما اباح لرجاله ان ينزلوا الى البر لاعمال السلب والنهب ، لكي يعطي الحاكم

مثالا لما يمكن أن يحدثه في المدينة اذا ثابت عليه أو حاولت مقاومته ...

وغادرها بعد ذلك حاملا الوطاب بالمؤونة ، وهي في عجب ودهشة من جرأة هذا الانكليزى .. اللعين !

وانطلق شاخصا بسفائنه الصغيرة الى ثغر سانتياجو فهاجمها واستولى عليها . وكان قد اعتدى فيها الاسبان من قبل على بحار انكليزى صغير السن ، فما كان من دريك ورجاله الا أن اشعلوا فيها الحريق ، وصبوا عليها وابل النيران حتى تركوها اطلالا واطلاما متداعية ، على سبيل تذكير الملك فيليب بأن اعماله الوحشية لم تكن في مقدور اسبانيا وحدها وأن العقاب بالمثل قانون قائم في الارض وله رجال ينفذونه في البادئ بالسوء والمتقدم بالعدوان

وقضى الاسطول عيد الميلاد في المياه الاسبانية ثم اتجه نحو ثغر سان دومنيجو ، وزينت القصور العالية والحصون المنيعة ومقر العظماء والاغنياء من الاسبان ، ولكنه وجد مقاومة من أهلها ، فقد خرج الخصوم مشاة وركبانا لمنع رجاله من النزول الى البر ، وتبادل الفريقان النيران ، فقتل الاسبان قائد الجماعة التى عهد اليها بالنزول وكان الشاب جرفاس من افرادها ، فلم يكن منه الا أن تقدم بكل جرأة وحماسة ويندفع من نفسه دون اية سلطة لديه ، فاحتل مكان القائد القتيل ، وسار بالجماعة بكل شجاعة حتى اقتحم المدينة مع المقدمة التي استبقته بقيادة كريستوفر كارليل فكان للانكليز بهذه الحركة الجريئة منه النصر المبين .

ولما سمع دريك بما كان من بسالة الشاب واقدامه أمر بتثبيته في القيادة التى عرف كيف ينتهز الفرصة لاخذها جرأة واقتدارا .

وسلمت الحصون القائمة في المدينة بعد المقاومة الفاشلة

وحاصرها الانكليز واقتضوا أهلها الفدية .

وتحول الاسطول الى قرطاجنة . حيث لقى مقاومة أشد من السابقة ولكنه تمكن من اخضاعها ، كما راح جرفاس يظهر كذلك بسالته النادرة وبراعته في قيادة رجاله والهجوم بهم على بيادة الاسبان ومقاتلتهم بالسلاح الابيض في ملحمة عنيفة انتهت سريعا بتسليم المدينة ودفع الفدية المطلوبة .

ورأى البطل دريك أن ما فعله يعتبر كافيا لاقناع الملك فيليب وديوان التفتيش ان الانكليز قد لا ينامون على الضيم ولا يصبرون على الاذى ، فاعتزم العودة الى بلاده .

وفي طريقه الى السواحل الانكليزية راح يدمر اسطولا اسبانيا في فلوريدا ، حتى وصل الى ثغر بليموث في نهاية شهر يوليو ، وقد اثبت للعالم كله أن أعظم دولة في الارض وهي اسبانيا لا تزال على قوتها وعظمتها معرضة للهزيمة مستهدفة للغلبة عليها ، كما جعل الحرب أمرا لا بد منه بعد أن تحداها على هذه الصورة الجريئة .

وكان جرفاس كروسبي الذى عاد الى موطنه في اذونياك غير الشاب جرفاس الذى سافر منذ عام ، فقد تغير وعاد خلقا جديدا ، انضجته المخاطر ، وافادته التجارب ، وغيرت من شأنه المعارك والملاحم ، واكسبه العلم بالدنيا وما فيها قوة الاعتداد بالنفس والثقة بالذات ، كما لفح السفر سحنته ، فاستحال أسمر البشرة ، كث اللحية ، عجيب المنظر غريبا عن العين التى ألفت رؤيته قبل الآن .

وذهب على أثر عودته الى قصر تريفانيان وهو مقتنع الآن بأن الاستيلاء على قلب الحسناء مرغريت أمر لا يذكر بجانب الاستيلاء على مدائن الاسبان .

ولكن اللادى مرغريت لم تظهر اية حماسة أو اعجاب بفعاله حين ذهب يقص قصته وهي حاضرة مع أبيها وهو

متعصب لا يريد مساسها .

ولم يكد يفرغ منها حتى قال الشيخ ان دريك لم يكن في كل ما فعله سوى قرصان سفاك أثيم ومنت ابنته على رأيه . ورجع جرقاس غاضبا خائفا من ان تقابل العبال البطولة التى اداها بهذه القراءة وذلك الاحتقار !

والواقع ان الأول اوف جادور كانا من كثرة الاطلاع والانكباب الى الفلسفة فتوصل الى النظر الى الدين نظرة جديدة حتى أدى ونسى بكثير من نظر المسيحيين المتعصبين لمسيحيتهم ، فلم يعد يؤدى فرائضها بأى شكل من الأشكال .

ولكنه حافظ عند هذه الفلسفة الجديدة كان يشعر بحنين وعطف على تلك العقيدة التى كان يعتنقها في شبابه .. عقيدة إبائه الاولين . وكانت هذه الحماسة الكامنة في أعماقه تظهر في المناسبات القليلة التى ينتبه فيها من ذهوله الفلسفى الى مشاكل وطنه ومسائل بلاده .

وهذا الشعور هو الذى خلق الجو الذى نشأت مرغريت فيه فجعلها كسائر أشراف القصر وسادته .. متأثرة في أعماق قلبها بالعطف على ملكة اسكوتلاندة السجينة فى أحد سجون انجلترا سجنا قد لا تخرج منه الا الى القبر .

وقد تشعر مرغريت ببعض الكراهية لاسبانيا واستنكار مطامعها وما يشاع عن شنائع محاكم التفتيش فيها .. ولكن ذلك لا يلبث أن تخف حدته وتسكن ثائرته بميلها الى اعتبار الملك فيليب نقمة من الله على انجلترا وأهلها ، لتخليص تلك المملكة المعذبة من أجل الدين !!

وقد لاحظت غضب جرقاس ووجومه وصمته عند انصرافه من القصر عقب تلك المقابلة التى لم يكن ينتظرها ، فابتسمت في تلك اللحظة ولكنها لم تلبث أن عادت بعد انصرافه تفكر مليا ، مسائلة نفسها : ترى هل أثله شديد الى حد سيحمله

على جفاء مستديم فلا يعود اليها أبدا ؟!

وأجابها خاطرها معترفا بأنها سوف تحزن وتغتم اذا حدث هذا حقا ، فقد كانا صديقين حميمين دائما ، وهى لاتريد أن تنتهى صداقتهما على هذه الصورة .

والظاهر أن هذه النهاية لصداقتهما لم تكن أيضا رغبة جرقاس ، لأنه عاد بعد يومين هادئا ساكن النفس .

ولما حيته وهو قادم نحوها صائحة : « أهلا وسهلا بالقرصان المحترم !» ، لم يسعه سوى الضحك .. وقد أدرك أنها انما قالت ذلك لترضيه .

وكان يود أن يقبلها كالعادة الاخوية التى لزمها فيما مضى وارتضتها هى منه . الا أنها رفضت ذلك بسبب اللحية الطويلة التى تركها تنبت وتطول قائلة أنها تأنف من أن يقبلها وهو بهذا الشعر المسترسل .. اذ يخيل اليها أن دبا متوحشا يلثم وجهها !!

فعاد اليها فى اليوم التالى حليقا قد جز لحيته المستكرهة . فلم تكد تراه حتى ضحكت وأطالت المزاح والسخرية والعبث به ، الى حد أنه غضب فأمسكها بخشونة وقبلها بالاكراه مرارا وتكرارا من شدة الانفعال والغضب ولكى يريها أنه السيد المالك وأنه الرجل الذى لا يمتنع عليه شئ يريده ، ولا يعز عليه ما يطلبه .

وأخيرا تركها تفلت منه .. وهم بأن يضحك ويسخر منها بدوره .. ولكنها وقفت حياله منفعلة مرتجفة .. لاهثة الانفاس .. شاحبة المحيا ، مضطربة الجدائل .. يبدو الشرر من عينيها .

ووقفت هكذا طويلا تنظر اليه بهاتين العينين الغاضبتين فى صمت فلم يكد يراها على تلك الصورة الرهيبة حتى خجل وشعر بأنه كان فى مسلكه سوقيا جافيا سيء الادب .

وأخيرا تمالكت نفسها وقالت في صوت هادئ :

ــ يا عجبا !! يلوح لى انك لا تزال تتصور أنك الى الآن في سان دومنيجو !!

قال مندهشا ولم يفهم المراد : في سان دومنيجو ؟!

قالت : نعم حيث تعلمت أن تتصرف مع النساء هذا التصرف .

فصاح مستحيا : أنا ؟!! أقسم لك يا مرغريت .. ولكنها لم تعبأ بايمانه واقسامه .. بل قاطعته قائلة :

ــ ولكن يجب أن تفهم أنك هنا في قصر تريفاليان .. لا في مدينة عاجيها الفراعنة .. وأن تتذكر أنني اللادي مرغريت .. لا قرينة من القرينات الاسبانيات !

فشعر بأنه قد جرح وأهين اهانة بالغة .. فصاح بها قائلا :

ــ بالله يا مرغريت كيف تظنين بي هذا الظن ..

وامسك عن الكلام لانه شعر بأن الموضوع دقيق لا يسمح بأن يشرح امام النساء .

ولحت هي مبلغ تأثره مما قالت فارادت ان تغيب السهم في اعماقه تشفيا منه ومبالغة في الانتقام . فقالت :

ــ ان هذا الاقدام منك بلا ادنى تحفظ يوحي بكثرة الخبرة وطول التعود فالحمد لله على انني قد عرفت بالرغم من هذه الاساءة نوع المخاطرة التي خضتها والمشاهدات التي شاهدتها ، وان كان هذا الجزء من القصة قد حذف من الرواية التي قصصتها على ابي بتفصيل .

ويظهر يا سيدي انك تعلمت الشيء الكثير في اسبانيا وأرض الاسبان ولكني لو كنت في مركزك لأغفلت في انجلترا ما تعلمت ان افعله هناك ؟

ولم تنتظر حتى تسمع منه شيئا ، بل انصرفت تاركته

هكذا واجما مذهولا في حيرة بالغة من امره . وقد هم بأن يلحق بها . ولكنه ادرك أن لا فائدة من ذلك . فلم يسعه غير الرجوع الى ادوبياك كاسف البال ، يناجي النفس قائلا ان الزمن وحده كفيل بمحو ما كان منه وتغيير رأيها فيه .

ولكن الزمن مع ذلك لم يعطه اية فرصة اذ تلقى قبل ان ينتهي الشهر كتابا من السير فرانسيس دريك يستدعيه الى ثغر بليموث ولئن كان جرفاس عاشقا أبله ، الا انه كان بحارا ماهرا يرتجى منه وكان هذا هو اعتقاد دريك فيه ، وكان بحاجة الى كثير من امثاله ، اذ كانت الحرب قائمة ولم يبق شك في قدومها .

وكان المعروف أن الاسبان يبنون اسطولا ضخما في ذلك الحين ، كما أن البرنس اوف بارما كان مشتغلا في فلاندرز ــ أي هولندة ــ بتعبئة جيش عرمرم من خيرة الجنود في أوربا لأجل غزو انجلترا بمجرد الانتهاء من بناء الاسطول العظيم الذي تتحدث عنه .

وقبل الرحيل ذهب جرفاس لتوديع مرغريت وأبيها ، فوجد هذا كعادته في مكتبه ، بين كتبه واجلاده ، واسفاره ودفاتره . وكانت رؤية الشيخ على هذه الصورة من قلة المبالاة بالخطر المحدق بوطنه ، في نظر جرفاس اشنع وافظع من رؤية نيرون على اطلال رومه وهي تحترق لاهيا متفرجا .

ولكي ينبه الشيخ من سآمته أو ذهوله ، انشأ يتحدث اليه عن غارة الاسبان على انجلترا كأنها قد حدثت فعلا .

ولكن الشيخ لم يجزع ولم يبد أي تأثر .. !

وانصرف جرفاس من حضرته لمقابلة مرغريت . وكان الوقت خريفا ، واليوم جميلا ، فوجدها في الحديقة تتنزه مع جماعة من المعجبين بها والمتغزلين بحسنها ، ومن بينهم الشاب الجرىء ليونل تريسليان الذي أخذ يكثر من التردد على القصر

في تلك الايام . والفتى بيتر جودولفين وهو وان كان حقا قريبا من اقارب مرغريت ، فليس من القرابة الوثيقة حتى يطمع في كسب القرب وتمني الوصال . وكان اولئك جميعا من شبان العصر المعني بالاناقة والرشاقة وحسن الهندام لا يفكرون في غير الزينة والتجميل واختيار الازياء النظرية وأفخر الحلل والثياب .

فانقض جرفاس على حلقتهم بتلك الاخبار الخطيرة عن الحرب وهو يتوقع أن يزعجهم بها ويخرجهم من هذا اللهو والاستهتار .

ولكنه احب ان يتجاهلهم فتحول الى مرغريت قائلا :

— لقد جئت لاستاذنك في السفر فقد استدعاني الاميرال لأن أمير بارما يوشك الاغارة على انجلترا .

فبدت حركة اهتمام من الجماعة نوعا ما . وكان يمكن ان تزيد شيئا فشيئا لولا أن الشاب جودولفين عمد الى المزاح والمداعبة فقال :

— لا بد أن الامير لم يسمع بان المستر كروسبي قد انضم الى الاميرال .

فضحك الجميع الا مرغريت ، ولعل هذا وحده هو الذي حرك جرفاس للجواب . فراح يقول :

— ولكنه سيسمع بذلك حتما . فاذا كانت لديكم ايها الشبان المتقاعدون والفتيان القابعون في دوركم رسائل تريدون ايصالها اليه فاني لا أتردد في حملها اليه !

وكان يود أنه اشتبك في مشادة مع أحد منهم أومعهم جميعا . الا أنهم لم يتشاجروا التحرش به ، فقد كانوا فتيانا ناعمين لينين . أخوة رشاقة وتكسر وخنوثة . ولذلك التزموا السكوت ، بينما تشجع هو بوجود مرغريت فاظهر لهم منتهى السخرية .

وحينما تركهم متضربا فارقتهم مرغريت منصرفة معه الى المنزل ولكنها لم تكد تبلغ الردهة الفسيحة حتى وقفت ، توقف هو ليودعها الوداع الاخير قبل الرحيل .

وكانت عيناها في تلك اللحظة ترسلان نظرات يبدو فيها بريق الجد والاهتمام .

قالت : أهناك حرب حقا يا جرفاس ؟!

قال : هذا هو ما فهمته من الرسائل التي تلقيتها ومن استدعائي بهذه السرعة ، فقد نبه علي بأن أسافر حالا لأن كل انسان أصبح مطلوبا !

فالقت احدى يديها على ذراعه وقالت :

— في حراسة الله تذهب يا جرفاس وبالسلامة تعود .

ولا شك في أن كلاما كهذا مألوف في هذه المواقف ، ولكن النغمة التي قيل بها نغمة لم يسمع مثلها من صوتها في يوم من الايام ، وكان يصح أن تشجعه هذه النغمة وتجرئه . وهو الجريء المفرط في الجراة الى حد التهور ، بل كان يصح أن يقبلها في تلك اللحظة ، وهو متأكد انها لن تؤنبه في عنفه المرة ولن تعاتبه ولكنه لم ينتبه الى هذه الحقيقة ، ولم تخطر مطلقا بباله . كما أنه لم يلاحظ أن الامتناع عن تناول ما تعرضه المرأة ، هو أمر ألم لها وادعى الى اغضابها من الاقدام على اغتصاب ما لم تعرضه أو تقدمه !

وهكذا بينما كان قلبه يخفق رجاء وأملا في نغمتها الرقيقة ونظرتها العطوفة ، كانت ضربات قلبه أيضا سريعة شديدة الخفقان من شدة التهيب والخوف ، فقال متلعثما :

— الن ستنتظرين .. يا مرغريت ؟!

قالت : وأي شيء آخر أفعل ؟ هل تريد مني أن الحق بك ؟

قال مضطربا : أريد أن أقول هل ستنتظرين حتى

أعود ؟

فابتسمت فى اغراء وقالت : يجوز !

فعاد يقول فى لهفة المتشكك :

— أجائز وليس مؤكدا يا مرغريت ؟!

فصاحت به قائلة : بل مؤكد يا صديقى !

قالت ذلك لأنها لم تشأ أن تقسو فى اجابتها وهو مسافر فى أمر يحتمل ألا يعود منه .

وكان تصور هذا وحده كافيا لترقيق قلبها اذ تخيلت ماذا يكون من ألمها وحزنها اذا هو استشهد ولم يعد من القتال .

أخذتها الشفقة عليه فأعطته الجواب الذى خانته الشجاعة فلم يجرؤ على طلبه منها ، قالت :

— اعلم ياجرفاس اننى اذا رضيت الزواج فلن أتزوج أحدا سواك !

فلم يكد يسمع ذلك حتى طفر قلبه من شدة الفرح وصاح بها :

— أحقا يا مرغريت !

وفى تلك اللحظة حضر جودولفن الشاب ، الرشيق ليعرف ما الذى حجب اللادى مرغريت عن ضيوفها الكرام .

وتألم جرفاس ولعنه فى سره واضطر الى الاستئذان ، ولكنه كان مسرورا مرتاح الخاطر ، فاكتفى بأن تناول اليد الناحلة الناعمة التى كانت ملقاة على ذراعه فلثمها بخشوع واحترام . وغمغم قائلا :

— ان هذه الكلمات التى فهت الملفظة بها ستكون لى درعا واقيا من الاخطار .

وكانما خجل من هذا التصريح فانصرف مسرعا لا يلوى على شىء . .

الفصل الثالث

فى مياه كاليه

لم تكن الحرب متوقعة بالسرعة التى تخيلها جرفاس . . بل كانت هناك أسباب وبواعث تمنع كلا من أسبانيا وانجلترا من الاقدام على الحرب هكذا وشيكا وبلا سابق انذار .

لقد كان البابا يلح على الملك فيليب بأن يقوم بواجبه بصفته النصير الاوحد للدين المسيحى . فيخلع الملكة من عرش انجلترا بعد أن طردها غبطته من رحمة الله . !

ولكن الملك فيليب لم يكن أحمق ولا متهورا حتى يقدم على هذا العمل دون أن يعرف ما وجه الفائدة التى تعود عليه هو منه .

والظاهر انه كان يرى أن مصلحته من ذلك لا تذكر بجانب مصلحة البابا ، فعرض عليه ان يتولى غبطته نفقات الحرب وتكاليفها اذا كان حقا يريدها خدمة للدين . . فما ان سمع البابا سكستاس الخامس بهذا الاقتراح حتى تملكته ثورة الغضب فالقى بصحاف الطعام من فوق المائدة ساخطا متذمرا . !

أما انجلترا فلم تكن لها أدنى رغبة فى الحرب . لأنها كانت ترى اسبانيا اقوى منها وأعز نفرا وأضخم جيشا وعدة وعديدا ، وعندها المستعمرات الواسعة ، والأموال الطائلة ، وجزائر الهند الغربية من أملاكها الممتدة النطاق . . ولكن لما كان الخطر عليها قادما من هذه الناحية ، كان الواجب أن تتأهب وتحتاط لذلك الخطر .

وهذا هو سر الحركات البحرية التى كان الانجليز يقومون بها ، ومن أجلها دعى جرفاس على عجل .

وكان العمل جاريا على قدم وساق فى عمارة السفن

وتخزين المؤونة وجمع الذخيرة وصنع البارود · وكانت الاوامر التي تصدر من القصر مضطربة · مما يدل على أن الحرب غير مؤكدة ، فيوما يصدر الامر بتعبئة الاسطول ·· ويوما يصدر بوقف التعبئة ·· وحينا بالتجهز والاستعداد ·· وحينا آخر بالكف عنهما في الحال · وهكذا دواليك !·

ولكن القادة والابطال الذين اعتزموا المخاطرة في سبيل بلادهم لم يأبهوا بهذه الاوامر ·· وانما واصلوا الاستعداد ·

وربما كان في فكر السير فرانسيس دريك البطل البحري أنه اذا لم تأت الحرب فلا بأس على كل حال من معاكسة اسبانيا ومضايقتها من حين لآخر بالمناوشات والاشتباكات ·

ـ كان (دريك) قرصانا بالطبع والسليقة ·· ولصا من لصوص البحار بالملكة والاستعداد · ومن واجب الانكليز أن يحمدوا الله على أنه كان كذلك · لانه عرف كيف ينقذ انجلترا يومئذ من عدو مبين ·

ومما زاد في خطورة الموقف أن الانكليز رأوا الا سبيل للتخلص من المؤامرات والدسائس والمكائد التي كانت تكاد وتبيت لمحاولة اعادة ملكة اسكوتلاندة السجينة الى العرش ·· غير اعدامها بلا تردد ولا ابطاء ·· لان هذا العمل حرك الملك فيليب ضد انجلترا وجعله يعتقد أن لا بد له من غزوها والتدخل في أملاكه وتصبح جزءا من امبراطوريته الواسعة الارجاء ·· كما وجد فيه مبررا كافيا لاثارة حرب دينية ضد أولئك الانكليز المارقين من الدين ·

فلم يلبث أن أطلق رجال الدين ·· أو زبانية محاكم التفتيش ·· اخوان سان دومينيك كما كانوا يومئذ يسمون، للمناداة في طول اسبانيا وعرضها الى نصرة الدين ·· والذود عن العقيدة · وما لبث الافاقون المخاطرون من كل حدب وصوب أن هرعوا عارضين سيوفهم المشرعة لخدمة الملكة ضد اعدائها

الكافرين ·

وهكذا اطلقت الكلاب الضارية من سلاسلها المربوطة في الاطواق !

وكان غرض الملك فيليب يرمي الى اطلاقها على انجلترا لكي تنهش عنقها نهشا وتعمل فيه انيابها الحداد ·

وأدرك السير فرانسيس دريك أن الحكمة تقضي بالا يقف مكتوف اليدين ·· بل يجب أن يواصل التأهب والاستعداد ·

ولهذا سافر دريك الى لندن وقابل الملكة وعرض عليها رأيه في هذا الشأن ، فلم ترتح اليه بل قابلت مشروعاته واقتراحاته بغضب واستياء اذ كانت تأمل أن تصل بالسفارة والوساطة والمفاوضة الى الصلح مع فيليب على اعتقادها أنه لا يريد الحرب متنصحا بنصيحة البرنس اوف بارما الذي كان مشتغلا في فلاندرز ـ أي البلجيك وهولندة ـ بقطع دابر الثورات والقلاقل ، فلا متسع أمامه للعمل في حرب أخرى ضد الانكليز ·

ولما رأى دريك هذا الجنوح من الملكة الى السلم · قال لمولاتها :

ـ أنت الآن تريدين السلم يا مولاتي لتدعيني العل شيئا لصمانها !

فاستفسرته ماذا يعني بهذا ويقصد · فكان جوابه أنه الى تلك اللحظة لا يعرف ماذا هو صانع ولا يتأتى له أن يعرف متى يصل فعلا الى المياه الاسبانية · وان كان مع ذلك لا يعرف الى أين يتجه وأية ناحية على التعيين اليها يقصد · وانما يكفي لضمان مصلحة الملكة أن تتأكد أنها باظهار قوتها على هذه الصورة سوف تظفر في أي اتفاق على الصلح ، بأحسن الشروط كما أنها ستزيل من أذهان اعدائها أي ريب في أنها انما اصطلحت عن ضعف ، وجنحت الى السلم عن خوف وتجنبت

الحرب من خشية واشفاق !

وضحك الرجل فى نهاية شرحه وبيانه قائلا :

ـ يعنى بالصراحة يا مولاتى اننا من المصلحة أن « نبلف » ونعمد الى المخادعة والايهام .

وكان دريك رجلا قويا ساحر الشخصية ويكفى ان يرسل بريق عينيه النفاذتين الرهيبتين لكى يسلم برأيه ويمتثل لمشيئته .

وكان يومئذ قد بلغ الاربعين، قوى البنية ، شديد الاسر، مقبول الوجه ، متناسب المحيا ، مرسل اللحية تخفى حركات فمه التى تنم عن قوة ارادته .

فلم يسع الملكة الا التسليم له وهى كارهة .

ولاحظ هو هذا التكره فخشى أن تعاود الملكة التردد ، والتقلب فى الرأى ، فبادر غير متمهل الى الرحيل على سفينته « البوتا فنتام » وفى رفقته أسطول مؤلف من ثلاثين سفينة شراعية اذ لم يكن البخار قد اكتشف بعد .

ومن عجائب المصادفات انه لم يكد يقلع بأسطوله حتى وقع ما كان يخشاه وهو وصول رسول من الملكة ليحجزه عن السفر ، ولكنه كان قد رحل وربما كان على علم سابق بأن امرا بالحجز كان موشكا أن يصل اليه فعجل بالرحيل ليتفاداه !

وبعد ستة أيام من بداية سفره وصل الى مياه كاليه ، فعرف منها فى الحال ماذا يجب أن يفعل ، اذ رأى زحاما من السفن فى حوض تلك المياه دليلا على أن هناك تجريدة بحرية فى طريق التجهيز والاعداد للتعبئة ضد انجلترا فعول على مباغتتها والاستيلاء عليها فجأة وهى آمنة .

وخدمة المد واعانته الريح فما لبث أن تمكن منها جميعا

قبل أن تدرك ماذا جرى ، وكان هذا العمل الجرىء منه بلا شك آخر ما كانت اسبانيا تتوقعه .. فلم تنبت النيران أن أطلقت عليه من البطاريات الاسبانية .. ولكن بغير جدوى .. لانه كان قد عرف كيف يحيط بها، . ويستولى عليها ..ويجردها من كل ما رأى أنه ينفعه ويصلح له ، ثم لم يكد يفرغ من تجريدها حتى احرقها جميعا وبذلك أتلف ما قيمته الاموال الطائلة .

واستأنف الرحيل وهو معتقد بعد هذا الحادث الذى وصفه بانه قد احرق به لحية الملك فيليب ، ان « الارمادا » ـ أى الاساطيل الاسبانية ـ ستعجز عن الخروج للغارة على سواحل انجلترا طيلة ذلك العام .

وكان مصيبا فى تقديره ، فلم تخرج اسبانيا اساطيلها العظيمة او الارمادا الضخمة الرهيبة، الا فى شهر مايو من العام التالى ، اذ ابحرت فى مائة وثلاثين سفينة من شواطئ نهر التاجاس ، تتقدمها السفينة « سان مرتان » رافعة علم الاميرالية ، التى عقدت لدوق « مدينا سدونيا » .

وقد حوت السفن ثلاثين الف رجل ، وهى تجرى فى البحر باسم الله مجراها ، مسافرة فى سبيل حرب مقدسة لنصرة الملة والدين ! حتى لقد اعترف كل رجل منهم بذنوبه الماضية واستغفر من آثامه . فقبلت توبته ، ورضيت استغفارته وانابته ، وبورك فى سفرته ، ودعى له بالسلامة وتلقى البركة والغفران ، من رجال الدين ..!

وقد زود كل منهم بصليب صغير . كما طرزت على العلم الاسبانى صورة السيدة مريم العذراء وابنها المسيح عليهما السلام ..!

وزودت السفائن من مطالب العناية بالارواح أكثر مما

زودت به من مطالب العناية بالابدان ! اذ بينما اقلت مالتي قسيس ، لم يكن عدد الاطباء والجراحين الذين سافروا معها لخدمة العملة يتجاوز المائة !

على أن « الارمادا » لم تلبث ان وجدت عوائق في الطريق اخرتها عن السير ، مما يوحي بأن الله لم يشأ أن تكون النصرة لديانته على يد اسبانيا او بأمر الاسبان ٠٠!

واخيرا في نهاية شهر يوليو ، وصل الاسطول الاسباني الى مياه بحر المانش ٠٠ ولم يبق شك في أنه جاء لغزوة الانكليز ٠٠ ولكن دريك كان بالمرصاد ٠٠ منتظر اليوم الذي تقع هذا الحادث فيه لتنفيذ ما عقد العزم عليه ٠

فلم يكد يشعر بذلك ٠٠ حتى تسلل خفية من ميناء بليموث فأرسل خمسين مركبا من مراكبه ٠٠ خافقة الاشرعة والسارياب ٠٠ زاحفة صوب سفن إسبانيا العظيمة لكي تريها انها تقضي منتبهة لحركاتها وسكناتها ٠ فلم يلبث الاسبان أن فركوا أعينهم من فرط الدهشة ، ولكن البطل دريك لم يترك لهم خطة من الوقت ليأخذوا منه حيطتهم ، لانه أطلق سفنه المتسللة حتى اخترقت مؤخرة الاساطيل الاسبانية واحتوى هكذا بنجوة من مرمى نيران مدافعها تصب وابلا مدرارا من مدافعها التي كانت أكبر وأضخم على السفن التي في المؤخرة فاضطرب نظام الاسطول الاسباني وتدافعت مراكبه ٠ فكانت خسائرها من التدافع والتزاحم بسبب كثرة عددها وعدم ... اكثر وابلغ من خسارتها بسبب هذه المباغتة الداهمة ٠

وقد أخذ الدوق « مدينا سيدونيا » بمشهد هذه المفاجأة التي لم يتوقعها ٠٠ توقف مبهوتا مشدوها ٠٠

لم يكن في الحقيقة خبيرا بحروب البحر وأسرارها ، ولا هو بالقائد المحارب في شيء ، حتى لقد اعترف بهذا العجز حين حمله الملك فيما بعد المسئولية عن هذه الهزائم المتكررة ٠

ولم يكد يركب البحر حتى شكا من دوار ، ولزم سريره من وعكته ، فما بالك وقد فوجىء بتلك الالاعيب الانكليزية العجيبة ، وهذه الفتكات الطارئة المدهشة ٠٠!!

وهكذا وجد الدوق نفسه وهو يقود اعظم واكبر واروع ما شهدت الدنيا من الاساطيل والمراكب تحت رحمة السفن الانكليزية ، هي تطارده في المانش ، وكأنها الذئاب تطارد قطعانا من الماشية !

وما لبث القائد الاندلسي « دون بدرو فالدز » ولعله كان اقدر قواد الارمادا ، واعظم أمراء البحر من الاسبان كفاءة ومهارة ان ثالم والتم ، واحيط به ! فلم ير بدا من التسليم كما أن سفنا أخرى كثيرة اصيبت بخسائر بالغة في اليوم الاول من القتال بسبب تلك المناورات ، فلم تعد تصلح لقتال ، أو تقوى على المثابرة ٠

وفي اليوم التالث ، وكان يوم الاثنين ، استراح الفريقان ، فلم يقاتلا ، وانما قضاه الاسبان في لم شعثهم والاستعداد للقتال ٠

فلما كان اليوم التالي — الثلاثاء — تغير مجرى الريح ، فكان في هذه المرة معهم ، وكان منتظرا اذن أن ينتهزوا هذه الفرصة فينقضوا على الانكليز ويبيدوهم !٠ وقد اعتقدوا أن الله — اخيرا بتسخير الرياح لهم — قد أراد أن تكون نصرة دينه على أيديهم ! ولكن ما لبثوا للأسف ان تبينوا في ذلك اليوم أن الشيطان كان يحارب في صف الانكليز ، لأن الدائرة دارت عليهم ، وتكررت فاجعة يوم السبت ، على الرغم من مهادنة الريح لهم ، حتى كادت سفينة القائد العام نفسها تتعرض للخطر ٠

وانقضى الاربعاء في راحة فلم يقع قتال ، ولكن يوم الخميس

انتهى بهزيمة اخرى ؛ واخيرا تبين الدوق أنه لم يبق امامه سوى محاولة الاتصال بامير بارما ليمده بحاجته من المؤونة والمعونة ولهذا اتجه باسطوله المتريح المكدود الى مياه كاليه ليلقى فيها مراسيه وهو مطمئن الى أن الانكليز لا يجرؤون على متابعته في تلك المياه المحايدة ٠

ولكنه أدرك خطاه في الحال اذ تبين له انهم راحوا يلقون مراسيهم هم أيضا على مسافة ميلين من موضعه ٠

وبينما كان الاسبان يضمدون جراحهم ويصلحون شأنهم ويدفنون قتلاهم ، كان الانكليز يتدبرون الموقف وقد جلس الاميرال الاكبر هوارد اوف ايفنجهام في الغرفة الكبيرة بسفينة الاميرالية ارك روبال يتشاور في الامر مع كبار ضباط الاسطول وقواده ٠

ولم يكن الانكليز يجهلون الغرض الذى كان الاسبان يرمون اليه من الرسو في مياه كاليه ٠ ولا الخطر عليهم وعلى انكلترا نفسها في تركهم في ذلك الوضع ، فان الارمادا لم تكن مع هذا كله قد عطبت عطبا يشل من حركتها ولكن الروح المعنوية هي التى تأثرت اكثر مما تأثرت السفن فقد أزالت تلك الضربات الفجائية من اعتداد الاسبان بأنفسهم وهزت من ثقتهم بذاتهم ، واذا كان الاسبان قد خسروا عددا عديدا من رجالهم ، ففي وسع امير بارما أن يسد النقص من هذه الناحية ، كما أن الشجاعة والثقة الذاتية قد تستعادان بالراحة والاستجمام ، وفي الامكان أيضا اصلاح عطب السفن التى اصيبت بسوء ، وتجديد الميرة واستكمال الذخائر ٠

كانت هذه الاعتبارات وحدها كافية لكى تبين للانجليز وجوب العمل السريع واتخاذ خطة عاجلة لمهاجمة الاسبان حتى لايتركوا على هذه الصورة فيتمكنوا من الاستعداد

وتجديد النشاط ٠

وكان هناك سبب آخر يقضى أن لايترك الاسبان في امان مطلقا وهو أن الميرة قد بدأت تنفد عند الانكليز ، لذلك كان الموقف يدعو الى البدار الى العمل على أية صورة من الصور ٠

فكان رأى دريك احراق سفنهم بأية حيلة كانت ، وكان المنتظر أن يكون المد في تلك الليلة متجها نحو مراسى الاسبان ، وفي الامكان استغلال هذا المد في تعويم بعض السفن تحت ستر الليل لاشعال النار في بعض قطع اسطولهم ٠

ووجد هذا الرأى ارتياحا عند أكثر القواد ٠ وانما وجه الاعتراض عليه أنه لا يمكن تنفيذه ليلا حتى يتيسر نهارا معرفة مواقع الاسبان بالضبط واستكشاف مراسيهم ، وهو مالا سبيل اليه من مكانهم هذا البعيد من المراسى الاسبانية ٠

هذه هى الصعوبة التى كانت تحول دون التنفيذ ٠

ولكن احد القواد ــ وهو هوكنز ــ أبدى اقتراحا لتذليل هذه العقبة ، غير أن الاميرال هز رأسه متشككا فى وجاهته قائلا انه يعتقد أن الشخص الذى يرسل لاستكشاف الموقع لن يعود ٠

فقال دريك : هذا يتوقف على صفة الشخص نفسه ومقدرته وأمثال هذه المشكلات والصعاب يمكن التغلب عليها بالبراعة والاقدام ٠

ولكن القائد الاكبر هوارد لم يقتنع ٠٠ فعرضت اقتراحات أخرى وآراء كثيرة تناقش فيها المجلس واحدا بعد الآخر ورفضها جميعا وانتهى المطاف بهم الى الفكرة الاولى ٠

فقال هوكنز : الواقع انه ليس امامنا غيرها ، والا فلا مفر من الاستغناء عن الاستكشاف مطلقا ٠

وقال اللورد هوارد : سيكبدنا هذا خسارة أرواح كثيرة .

ولكن دريك كان عنده الجواب على هذا الاعتراض . فقال :

– كل انسان منا هنا مغامر بحياته والا لما جئنا .

فنظر هوارد اليه مليا ثم سأله :

– وهل تعرف رجلا يستطيع أن يقوم بهذا العمل ؟

قال : نعم .. وهو موجود بالفعل وقد جاء معي وهو الساعة منتظر أوامري .. انه في الحق فتى باسل ، ذكي ، انور همة ، كأنما قد خلق للطوارئ والصعاب والأزمات ، لايخاف شيئا ، ولا يرهب أمرا ، ولقد جربته في سان دومنيجو ، ومن ذلك الحين لم يفارقني .

وسمع هوارد هذا الوصف فقال :

– ولكن خسارة أن نفقد رجلا كهذا الذي تصف .

قال : كلا ، فما هو بالرجل الذي يجعلنا نخسره ، فاذا وافقت أرسلت في طلبه اللحظة لكي تفاتحه في هذه المسألة ؟

وعلى هذه الصورة دخل جرفاس في حضرة مجلس الحرب أو بالتالي دخل في التاريخ .

ولم يكد يظهر أمام هؤلاء القواد حتى أعجبهم شكله ومظهره ، ولكنهم مع ذلك احسوا الاشفاق عليه ، لشبابه ، ولبلغ الخطر الذي سيتعرض له .

ولكنهم ماكادوا يسمعون ضحكته عقب أن سمع من دريك بالمهمة المطلوبة منه ويشهدون استهانته بها حتى وقع حبه في قلوبهم واكبروه كل الاكبار .

ووقف جرفاس يصغي الى شرح المهمة وبيان تفاصيلها بكل انتباه ولهفة .. حتى اذا وعاها جميعا وعرف ما هو مطلوب منه قال :

– بما ان الوقت أصيل والليل لم يحل بعده فلا ينبغي تضييع الوقت بل يصح أن أقوم بذلك في الحال .

فزاد هذا في اعجاب القوم به .. حتى لقد مد اليه القائد العام يده مصافحا قبل انصرافه . واختلجت شفتاه .. وابرقت عيناه .

واخيرا قال :

«حين» تعود – وقد شدد في نطقه لكلمة «حين» هذه – أرجو أن أراك .

* * *

في ذلك الاصيل كان الدوق دمدينا سيدونياه يتمشى مع جماعة من الضباط على سطح سفينته سان مارتان وهو مفكر ساهم واذا به فجأة يلمح من بعيد مركبا شراعيا صغيرا قد انفصل عن مراسي الانكليز وجاء ميمما صوب مراسي الاسبان .

ومن فرط دهشته هو والذين معه وقفوا جميعا يتأملون مشهد هذا المركب الشراعي الدانى نحوهم . كما وقف آخرون في السفن الاخرى يشاهدونها وهم جامدون في أمكنتهم مشدوهين .

وكان أول ماخطر لدهون انها لابد أن تكون قادمة اليه برسالة من الانجليز .

وقد نبهه بعض الضباط الذين كانوا معه الى هذا الخطأ لاسيما وان السفينة القادمة لم تكن رافعة علم السلام كما هو شأن كل سفينة تحمل رسولا من قبل العدو .

وفي هذه اللحظة كانت السفينة قد اقتربت كثيرا منهم وقد وقف جرفاس نفسه عند دفتها ومعه شاب قد جلس الى منضدة وحمل في يده قلما ، وعلى أحد جانبيها وقف جندي من المدفعية بجانب مدفع متأهبا لاطلاقه في اية لحظة وحي

سائرة بسرعة مدهشة ، حتى استدارت حول سفينة الدوق وراحت تطلق طلقة عليها ، ولو رأى دريك هذا العمل الذى اتاه جرفاس فى تلك اللحظة لنساه مجرد ايهام للتظاهر كما اعتاد أن يقول ، وقد كان الغرض الحقيقى منه فى الواقع تضليل الاسبان حتى لايكتشفوا سبب هذه المفاجأة ودواعيها وهو انما جاءت لتستكشف الموقع ، لا لتضرب وتهاجم ، كما اراد بهذا العمل أن تضلل وتوهم ٠

ولم يتوان جرفاس لحظة فى تقدير المسافة من الشاطئ، الى موقع السفن الاسبانية وملاحظة مواقع هذه بالنسبة لسفينة القائد العام ، واملاء ملاحظاته بالتفصيل والدقة للشاب الجالس الى المنضدة بصفة سكرتير له ٠

وقد انتهى من هذا العمل بسرعة مدهشة، دون ان يتعرض احد له ٠٠ ولكن لم يلبث أن افاق اخصم من هذا الذهول الذى اعتراهم جميعا ٠٠ فراح يسائل نفسه : ماذا عسى أن يكون وراء هذه الجرأة المتناهية فى تلك السفينة الصغيرة٠٠ وكيف تتوك هكذا دون اتخاذ اى اجراء نحوها ٠٠ فلم يتردد مع هذا الخاطر الذى اعتراه فى تلك اللحظة فى اصدار الامر باطلاق النار عليها ٠

ولكن الطلقة لم تصب الهدف ، وانما مست شراعها الكبير مارقة فى الفضاء ٠

وتنبهت السفن الاخرى فى الحال من جمودها فاطلقت مدافعها ، ولكن عملها هذا جاء متأخرا ٠٠ لان السفينة كانت قد جاوزت مرمى المدافع الاسبانية ٠

وكان دريك واقفا فوق سطح مركبه «الريفنج» ـ اى الانتقام ـ منتظرا جرفاس حتى جاء هذا فبادره قائلا :

ـ ماهذا يافتى ؟ وكيف نجوت ؟

فدفع جرفاس اليه بالاوراق التى حوت التفاصيل

والمعلومات المطلوبة التى املاها لرفيقه ٠٠ فنظر دريك اليها مبهوتا وراح يصيح به قائلا :

ـ يالله العرش ٠٠ أحساب وتقدير وتدوين أيضا ٠٠ هيا بنا الى الاميرال ٠

وفى تلك الليلة خرجت ثمانى سفن محمولة بالقطران تحت جنح الظلام يدفعها المد ٠٠ ويصحبها التيار ٠٠ تتقدمها سفينة القائد ٠٠ ميممة مواقع الاعداء ٠٠ وقد اصر جرفاس على ان يتولى هذه السفينة بالذات كنتيجة منطقية لقيامه من قبل بعملية الاستطلاع والاستكشاف ، واعتبارها فى الاهمية دون الاولى بكثير ٠

وما كادت السفن السود تدنو من سفائن العدو حتى اخذ رجالها يتسللون منها الى السفينة القائدة ٠٠ بعد أن اشعلوا فى جوانبها النيران ٠ ولم يلبث التيار المتقاذف ان حملها وحدها مع الريح صوب سفن الاسبان وقد استحالت شعلات متأججة من النيران ٠

واشتد الذعر ، وتفاقم الهلع وسط الاسطول الاسبانى وخيل للقوم ان هذه السفن التى شب فيها الحريق ، لابد ان تكون ممتلئة بارودا وكان مجرد تصورهم هذا كافيا لاشتداد الرعب الذى استولى عليهم اذ أيقنوا انها لاتلبث أن تنفجر ٠ وان من الحكمة أن يبادروا الى الخروج من موقعهم هذا قبل انفجارها حتى لاتنسف اسطولهم نسفا ٠

وفى الفجر وجد قائد الاسبان العدو منقضا عليه بشجاعة مدهشة وعزم لايعرف اليأس ٠ فاشتبك الجمعان فى قتال مخيف لم تشهد البحار يوما ارهب منه ولا اروع ولا أشد هولا ٠ ولم يكد المساء يؤذن حتى تحطمت قوى الارمادا امام اولئك القراصنة المكرة الدهاة ، ولم يبق منها الا عدد يسير من السفن نجت هاربة نحو الشمال ٠

وراحت السفن الانجليزية تطاردها فى فرارها ... كما تطارد الذئاب الانعام الهاربة ، حتى شردتها كل مشرد فى البحر الشمالى تاركتها للرياح تفعل بها ماتشاء .
وحق النصر للانكليز فى ذلك اليوم العظيم .

الفصل الرابع
السير جرفاس

فى احد أيام الخميس كان مستر جرفاس كروسبى احد المجتمعين فى بهو القصر الملكى بهويتهول .
ولم يكن المجتمعون فى البهو غير الاميرال ورجاله العديدين وقد حضروا استجابة لدعوة الملكة .
وكان شعور جرفاس فى تلك اللحظة مزيجا من الفرح بهذا المركز الذى أحرزه . والتهيب من وجوده بين هؤلاء السادة كبار المراكز والاخطار .
وكان فى صدر القاعة مقعد اعلى وأرحب من المقاعد الأخرى المصفوفة فى جوانبها الفسيحة وهو مذهب فخم جميل النقوش ، وقد جلست فيه سيدة يخيل لرائيها لاول وهلة أنها غادة شرقية من كثرة ما عليها من حلى وحلل ، وهى ذات وجه ناحل ، وخد أسيل وأنف طويل ، وقد اكتحلت وصبغت بالاحمر وجهها فى شئ من الاسراف لايكون مثله من الطبيعة وارجوانها الخفيف ، وقد غطت نحرها وجيدها بأسمطة من لؤلؤ كأنها تحاول بها أن تخفى ذبول جمال بشرتها التى كانت يوما ناعمة فاتنة لولا فعل الايام والسنين
وكان ثوبها كذلك مرصعا بكرائم الدر والجواهر وقد أمسكت بمروحة محلاة أيضا بتوائم من اللآلئ تهزها برفق فى يدها ، لكنها تظهر جمال كفها الذى لم يذهب الدهر به وتخفى أسنانها القبيحة التى لم تستطع فنون التطرية ان

تزيل شكلها القبيح .
وقد اصطف عن يمينها وشمالها سرب من الوصيفات الحسان من اشرف الغيد فى البلاد وأجملهن وجوها وأصبحهن طلعات .
ووقف عن اليسار رجل طويل ناحل متشح بسواد ملتح لحية بيضاء لاتناسب بينها وبين قبح وجهه . وكان هذا هو السير فرانسيس والسنجهام .
وكان اللورد هوارد أوف افنجهام واقفا يقص على الملكة تفاصيل ماجرى فى بحر المانش بين سفن انجلترا واساطيل الاسبان .
ولم يكن اللورد محدثا بارعا ، ولا هو بالراوية الحاذق فى وصفه وبيانه .
فلما أتى على ذكر استكشاف موقع الاسبان وايفاد سفن لاحراق أساطيلهم ، كاد يختصر فى وصفها ، لولا أن قاطعته الملكة قائلة له فى مثل لهجته ولغته .
– على رسلك ياهذا ولا تغذ السير غالى اراك قد نشرت قلوعك للرياح فلم تعد سفن الاسبان تلاحقك . الا قف لحظة وخبرنا كيف جرى ذلك الاستكشاف ؟ فانى اراك قد أوجزت حيثما ينبغى الاطناب .
فشرع يفصل الامر تفصيلا وسطا سكون ثلم كان أحرى بأن يوحى اليه التأنق فى العبارة ، وحسن اختيار الالفاظ .
واستضحكت الملكة وتبعها الآخرون وقد أثرت فى نفوسهم قصة تلك البسالة الشخصية التى امتلكت منهم الاسماع .
قالت الملكة : يمن الله الك لتجار أحسن منك محدثا راوية ، فقد تغفل أبدع الدقائق وتهمل الذ التفصيلات . فلتقل لنا ماسر ذلك الفتى الذى انطلق يستكشف موقع

الأعداء على صدر جاريته الصغيرة .

وسمع جرفاس اسمه يذكر فى تلك اللحظة فارتجف وخفق قلبه ، وخيل اليه أن اللورد هوارد لفظ به فنزل من الأسماع منزل الرعد فى وسط السكون الرهيب وجلالة فلم يلبث أن اصطبغ وجهه حياء كالفتاة واضطرب فى موقفه .. اذ شهد وجوه معارفه الواقفين حوله وكأنما قد رآها من خلال الغمام ، وهم يلتفتون اليه ويبتسمون له اغتباطا وارتياحا لذكر اسمه فى هذه الحضرة العلية .

وعند ذلك طارت خواطره الى مرغريت فتمنى لو أنها كانت حاضرة موقفه هذا وسمعت اسمه يذكر على الصورة ، اذن لتحقق ايمانها به ولوجدت الحجة القاطعة على صدق وعدها له بأن تكون شريكة له فى الحياة .

وانتهى الأميرال من القصة فقالت الملكة فى حماسة وتأثر بالغين انها فى الحق قد سمعت أغرب قصة فى العالم وانها تحمد الله على هذا التوفيق الذى تم على أيدى هؤلاء الأبطال الصناديد .

وتلا ذلك عرض قواد الأسطول وضباطه الكبار على جلالتها لتتعرف بهم .

وتبع هذا العرض عودة الأميرال الى مكانه ، ليتقدم نائب الأميرال سير فرانسيس دريك فيعرض على جلالتها المتطوعين من أبناء الأسرات الشريفة الذين قبلوا الانخراط معه وكان منهم كثيرون تطوعوا أيضا بنفقات تجهيز سفنهم ودفعوا تكاليفها من جيوبهم الخاصة .

وكان أول من قدمه دريك من الشباب المتطوعين هو جرفاس كروسبى وكان واقفا مشرئب العنق مستوى القد ، فى ثوب من المخمل زاده جمالا وبهاء ، فبدا فى تلك اللحظة من فرط الدلالة ونضرة الشباب بحيث تلوح البطولة التى ابرزها

أكبر من سنه واعجب ماتكون من فتى مثله .

ثم ما مثل بين يدى الملكة نظرت اليه نظرة اعجاب وتقدم هو فجثا عند قدميها ليقبل يدها ، فقطبت جلالتها جبينها فى عبسة خفيفة من الدهشة والارتباك وهى تتأمل قمة رأسه وصفرة شعره الذهبى ، وما كاد هو يلثم يدها الجميلة حتى هم بالاستواء على قدميه فقالت بصوتها الخشن :

ــ لم هذه العجلة ؟ .. ابق جاثيا أيها الطفل . ابق جاثيا .. من الذى أمرك بأن تنهض ؟

فأدرك خطأه واحمر وجهه وألبث جاثيا . وتحولت هى الى السير فرانسيس دريك سائلة :

ــ أهذا هو الذى ذهب فى السفينة الصغيرة فاحترق مراكب الاسبان فى مياه كالية ؟

قال : هو بالذات يامولاتى .

فقالت برفق مخاطبة جرفاس :

ــ لقد كان عملا رائعا يدل على شجاعة عظيمة ذلك الذى اديته يابنى ؟

وامسكت لحظة ثم قالت :

ــ وأرى أن هذا العمل خليق بحظوة خاصة ، جزاء لصاحبه وتشجيعا للآخرين ، حتى يحذوا حذوه ويتخذوا قدوته .

وفى تلك اللحظة شعر جرفاس على غير انتظار بظهر السيف يلقى على كتفه ، وسمع الملكة تأمره بالوقوف بوصفه جنرالا التى حسبها قد استطالت حتى اضجرته .

وما كاد يقف حتى عجب لنفسه كيف لم يخش من قبل جمالها الغريب وكيف كاد يهم بالضحك عند أول نظرة تطلع بها اليها عند دخوله فلم يستطع أن يقول أكثر من أن غمغم وهو فى نشوة عجيبة من السرور .

ـ بورك فيك ياصاحبة الجلالة .

فابتسمت له وغمر وجهها وشفتيها في الحال خجل خاطف فبدت جميلة رائعة في ذلك اليوم على غير المألوف .

وكانت تلك التحية التي اختص بها قد رفعته الى مرتبة «سير» وهي من مراتب الشرف والفخار .

فلما انصرف من حضرة الملكة بعد هذا مع المنصرفين لم تسعه الدنيا من شدة الفرح . وراح أول ماخطر له أن يذهب في الحال ليحمل النبأ السار للفتاة التي تنتظره، فاستأذن من السير فرانسيس دريك في العودة الى «اروتيانك» فأذن له .

وما كاد يصل الى داره حتى طلب جوادا ليركبه الى قصر تريفانيان .

وفي المدخل المؤدي الى باب القصر لقي سالسبا في خدمة الى جودولفن منتظرا يحرس ثلاثة جياد فعلم منه أن بيتر جودولفن وتريسليان وروزاماند أخت بيتر في القصر من الصباح وانهم تناولوا فيه طعام الغداء .

فاستاء جرفاس ولكنه علم من السائس انهم على وشك الانصراف لان الساعة كانت قد جاوزت الثالثة فتنفس الصعداء .

ووجدهم جلوسا في الحديقة كما وجدهم كذلك من سنتين حين ذهب الى القصر يستأذن مرغريت ويودعها قبل الرحيل . لقد كان يومئذ متطلعا الى المجد ، متلهفا على الفوز بالشرف والشهرة والفخار ، أما اليوم فهو عائد اليها كاسبا ماكان يتطلع اليه . ظافرا من ذلك كله بما كان حلما من الاحلام .

وارسل الخادم الذي تلقاه الى مرغريت ليبنبئها بحضوره فدخل الخادم عليها معلنا بقوله :

ـ السير جرفاس كروسبي قد حضر يامولاتي .

وعلى هذه الصورة ، وبهذا اللقب الجديد ، تقدم جرفاس

وقد اولدى احس ثيابه للقاء مرغريت رافع الرأس متهاديا في مشيته .

وبدت مرغريت لاول وهلة مضطربة لاهثة الانفاس ، لما لاحت الدهشة على وجوه الذين معها وظهرت أمارات الارتباك .

وتبادل جرفاس ومرغريت النظرات في صمت وانحنى لها كثيرا وتناول يدها فلثمها قانعا بهذا في تلك اللحظة كمقدمة لما سينعم به حين يتخلص من الثلاثة الثقلاء .

وبادر الى تحقيق هذا الغرض فقال :

ـ لم يمض على وصولي غير ساعة واحدة .

وقد قصد بذلك الى افهام مرغريت كيف انه جاء مسرعا متلهفا لايفكر في غير لقائها بعد طول الغياب . ثم التفت الى الشاب تريسليان فقال :

لقد اصبح أخوك أوليفر سيرا . اذ انعمت عليه الملكة بهذا اللقب في الساعة التي أنعمت به علي انا كذلك في قصر رايتهول .

فوقع النبأ المزدوج موقع الدهشة من الجميع . الا بيتر جودولفن فقد حاول السخرية من الخبر والتهكم به كعادته فصاح ضاحكا وهو يقول :

ـ ياللعجب ! لقد هزلت اذن الالقاب ورخصت ، حتى اصبحت تتساقط هكذا كالبرد أو كالوابل المدرار .

وشعر جرفاس بهذه السخرية الموجهة اليه ولكنه تمالك غضبه وقال :

ـ كلا ياسيدي لم تهزل ولم ترتخص . وانما تنعم بها الملكة على من تعتقد انهم مستحقوها والجديرون بها والأحرياء ولا أزال اذكر كلمة قيلت في حضرة الملكة ، وهي أن صفوة فتيان انجلترا وابطالها هم اولئك العشرون الفا الذين

ركبوا البحر لتحطيم قوى اسبانيا واساطيلها المواخر في البحار ، فاذا انعم بلقب الشرف والمجد على عشرين منهم ، فلم تهزل الرتب اذن ولم ترخص ، لان واحدا في العشرين الفنا قد اصابها ، ولو انهم جميعا انعم عليهم لكان من الحمق ايضا ان يتهكم الانسان بعمل كهذا لاغرض منه سوى تمييزهم عن اولئك الذين قبعوا في ديارهم حذر الموت ، واعتمدوا على اولئك الابطال في الحرب من أجلهم والقتال .

فاضطرب الجميع وساءهم سكون اليم ، وبدا الاستياء على جبين اللادي مرغريت ، وتبينت مايتلبد به الجو المكهرب بينهما فتدخلت لحسم النزاع فصاحت بهما قائلة :

ـ ناشدتكما الله كفى فلسنا نريد مزيدا .

والتفتت الى جرجاس فقالت :

ـ ان أبي ياجرجاس سيفرح بلقائك ، انه الآن في مكتبه

وكان ذلك منها طردا له أو ابعادا ، وقد شعر هو بانها قد اخطأت بذلك في حقه فغضب ، ولكنه مع ذلك أخفى استياءه وقال بكل هدوء :

ـ سانتظر اذن حتى تنتهي فنذهب اليه معا .

وشعر الآخرون بالمعنى المقصود فاستأذنوا واسرعوا الى استئذان مرغريت في الانصراف .

وما كادوا يذهبون حتى نظرت مرغريت الى جرجاس بابتسامة مريرة قليلا وقالت وهي تهز له رأسها : لقد اخطأت ياجرجاس .

قال : كيف أخطأت ؟ وهل كان حسنا ان اهان واسكت على الضيم ؟ أبهذا ماتنتظرين من زوجك أن يفعله ؟

قالت وهي تحملق البصر فيه : زوجي .

واستضحكت وعادت تقول :

ـ من فضلك ذكرني متى كان زواجي بك ؟ فوالله لقد نسيت .

قال : ماظننك نسيت انك وعدتني أن تتزوجي بي .

فاجابته بتلك اللهجة ذاتها : لاأذكر وعدا كهذا .

فاشتد انفعاله ولكنها بقيت على هدوئها ، وعقبت تهز راسها وهي تقول :

ـ ان كل ماأذكره هو انني لن أتزوج احدا غيرك .

قال : وهل هناك فرق ؟

قالت : نعم وهو انني استطيع أن أحافظ على وعدي هذا ومع ذلك استمر على ليتي في قضاء بقية الحياة بلا زواج اذا شئت .

قال وهو يقلب الامر في خاطره : وهل تشامين ؟

قالت : لابد لي ان أقتنع باختيار العكس .

فسالها بلهجة المتحمق وقد شعر بجرح بالغ من هذا التجاهل لقيمته الجديدة ورفعة شانه :

ـ وما الذي يقنعك ؟ بل كيف يتيسر اقناعك ؟

فنظرت اليه وهي واقفة حياله هادئة ساكنة الاوصال متمالكة نفسها تماما .. قالت :

ـ بطريقة غير الطريقة التي أردت الآن أن تقنعني بها

وعندئذ أحس بان ذلك الفرح الذي بعثه على المجيء ، وذلك الفخار الذي سرى في نفسه من ناحية هذا اللقب العظيم الذي احرزه أخيرا وفاز به ، والخيلاء التي نفخت أوداجه قد تلاشت جميعا ؛ فقد كان يظن انه سوف يدهشها بما احرز فاذا الواقع غير ذلك ، واذا الحقيقة مجردة من كل اولئك واذا قلبه قد استحال كالرصاص في صدره ، وقد اطرق بذلك الراس الذي كان مرتفعا عاليا ، ووقف منكمشا منزويا ذليلا محطما لايقدر على شيء .

وراح يقول : لن اتردد في تنفيذ أي شيء تطلبين وتحقيق

اى مطمح تقترحين . لانى أحبك يامرغريت . وانا لك مدين بهذا اللقب الذى ظفرت به . لانك كنت الهامى فيما فعلت . والوحى الذى بعثنى على ماأقدمت عليه فنجحت فيه وأبليت وكان الخاطر الوحيد الذى يشغل ذهنى يومئذ هو أن أجعلك تفاخرين بى وترضين عنى . وان ماجنيته وما أنا غدا جانيه لن يكون شيئا ذا قيمة اذا لم تشاركينى فيه وتشاطرينى اياه ! ..

وتطلع ببصره اليها فادرك انه قد أثر فى نفسهـــا بكلماته تلك وأذاب قليلا من جمودها وفتور عاطفتها اذ رآها تبتسم له فى شىء من الحنان وقليـــل من الرفق والعطف . لتشجعه هذا على الاسترسال فى حديثه .

قال محتجا متشكيا :

- انك تسيئين معاملتى ! وتقابلين مقدمى فى عجــلة ولهفة واشتياق بهذا الاستقبال الفاتر الذى لم أكن انتظره .

فاجابته قائلة : لانك أردت أن تشتجر .

قال : أو لم اهاجم ؟ الم يتهكم جودولفن بى ؟ اية منزلة له عندك حتى يفوز منك بهذا الرضى عن مشاجراته وحماقة تصرفاته ؟

قالت : انه من اقاربى ياجرفاس

قال : وهل هذا يعطيه الحق فى اهانتى، اهذا ماتعنين؟

قالت : لننس جودولفن .. الا تريد أن تنساه ؟

قال : من كل قلبى .

فاستضحكت وتناولت ذراعه ، وقالت :

- تعال اد الواجب لوالدى ، وستقص على مسامعه قصة بطولتك وساصغى أنا الى ماأنت قائل فقد تنسينى القصـــة فاصفح عما كان منك .

فنظر اليها وهو فى شك لحظة . وعند ذلك خيل اليه

انه قد لمح بريق التحدى فى عينيها فخطر له أن يجـــازف وليكن من الامر مايكون . فتناولها بين ذراعيه وراح يقبلهـــا قبيلا . فاحتملت ذلك منه فى هذه المرة غير غاضبة ولا متململة وانطلقا ليزعجا الشيخ الفيلسوف فى سكونه .

الفصل الخامس

طريح البحر

فتح الدون بدرو دى مندوسا اولوتا الملقب بالـــكونت ماركوس وشريف اسبانيا العظيم عينيــه وتطلع ببصره الى السماء المحتجبة الاديم خلف طبقات كثاف من الغمام . وكان الوقت فجرا والظلام لايزال مرسلا على الكون ثوبه الأســود وشملته الحالكة. ومضت لحظات عليه وهو على تلك الحال قبل أن تنتبه حواسه من ذهولها ويدرك ماحوله ويشعر بالوجود

وما لبث ان أحس أنه طريح الشاطىء ، مقرور مخشب من شدة البرد ، ضعيف مضمحل القوى متخاذل الساقين ، ولكنه لم يدر كيف حدث ذلك وفى اى موضع من الارض هو ولا كيف ساقت به الاقدار الى ذلك المكان .

وبجهد جهيد تحامل على ساقيه فوقف . ولكنه أحس دوارا شديدا من فرط الضعف فرقد ثانيـــة فوق الثرى . وفى انبطاحته تلك لم يلبث ان بدأ الغشاء الكثيف على حواســـه ينجاب شيئا فشيئا .واذا الذاكرة تعاوده . فاستوى جالسا. وراح يرسل بصره الشارد نحو البحر ملتمسا رؤية امارات او علامات ، تدل على موضع السفينة التى غرقت فى الليل . تراءت لعينيه الصخرة التى ارتطمت بها فحطمتها تحطيمــا وهى عالية شاهقة تتكسر الأمواج المزبدة على اديمها الصلد ، ولكنه لم يلمح للسفينة أو حطامها أثرا . وان كانت الزوبعة قد هدأت وتلاشت غير تاركة شيئا من معالم فعلتها وآثار

تخوضها وتدفعها غير ما بدت صفحة البحر به ومن أدلم مالح مائج يزمجر بين الفترات .

وهكذا جلس الدون بدرو يعالج تذكر ما جرى له .. كاسف البال مهموما يائسا لا يدرى ماذا هو صانع .. عثم أن تذكر رجال سفينته الجهلاء الذين ذهبوا يسيرون بها فى فحمة الليل على غير هدى ولا علم لهم بالموضع والطريق . ولم يكن لهم من باعث على هذه المخاطرة غير غريزة الحرص على الحياة والدفاع عن الذات ، دون ادراك أو تعقل .

وتذكر الدون بدرو كيف انه كان قد خرج من بلاده اسبانيا ليحارب الانكليز وتحقيق سفنهم فى البحر كما خرج مئات ألوف من الاسبان البواسل الشجعان للذود عن دين الله وحماية ملته من هؤلاء الكفرة الانكليز الذين خرجوا عليه واستبدلوا منه مذهبا جديدا من صنع انفسهم ، فأدركته العاصفة ليلا فحطمت سفينته .. وقد تمثل نفسه قبل ان تغشاه الغاشية .. وهو محمول على موجة تناولته فوق قمتها ثم راحت تقذفه فوق الشاطئ ، فهبط هبطة عنيفة كانت تقضى على انفاسه الباقية .

لقد شعر بأنه كان ميتا ثم بعث حيا .. ولكنه لم يفرح بعودة الحياة اليه أو عودته الى الحياة . لأنه أدرك ان النجاة من هذه الأرض الكافرة التى قذفته الأمواج اليها .. من رابع المستحيلات .. اذ لا يكاد يكتشف أمره حتى يعيده أعداء الملة الى الموت بأشد وأقسى مما عاناه من الغرق فى الليلة الماضية .. بل سيجعل عليه غصص موت أليم وزئ رهيب لا يقاس بجانبه ما رأى بالأمس وشاهده .. فتمنى لو أنه كان أمسى فى الهالكين .

وعلى خيوط الضياء التى بدأت تلوح فى السماء استطاع ان يكشف الأرض التى حوله فاذا هى صخرة جرداء لا مسكونة

ولا مأهولة . وانما كل ما حوله صخور شم كستها الطبيعة عشبا ونضرة فوق قممها العالية .

لقد عرف اذ ذاك انه قد نزل بموضع ما فى اقليم كورنوال فقد كان ملاح السفينة فى الليلة الماضية يحدثه عن هذه السواحل فلم يلبث أن تذكر ما سمعه ووجد العالم منطبقة على ما سمع .

ومن فرط حزنه وغمه ويأسه جلس ينظر من جديد فى موقفه . واذا به يضحك بغتة ضحكة سخرية مرة مؤلمة .. لقد ضحك للتناقض الذى بدا فى تلك اللحظة له بين الكيفية التى وصل بها الى سواحل انجلترا وبين تلك التى كان قد رسمها وأعد خطتها من قبل . فقد كان يشارك مولاه الملك فيليب فى امكان التغلب على انجلترا وسحقها بالأقدام .. وتطهيرها من الكفر الذى لوثها وردها الى الايمان .

ولم يكن أحد يتوقع مطلقا أن تأتى النتيجة بالعكس .. فيلاقى ذلك الاسطول الضخم العظيم « الارمادا » الذى أرسلته اسبانيا عبر البحار ... الهزيمة الساحقة من أيدى أولئك الكفرة بتلك السرعة المدهشة كأنما كانت العناصر نفسها والطبيعة والرياح قد اصطلحن على مقاومة الاسبان !.

ولم يكن عند الاسبان الذين اقلهم الاسطول الهارب من وجه عدوه المنتصر غير أمل واحد .. وهو أن تكتب لهم النجاة والعودة الى وطنهم سالمين .

ولكن لم تكد تلك السفن تطوف بالجزر الانكليزية حتى عصفت بها الرياح .. فمنها ما ضل طريقه فى البحر مغربا .. ومنها ما حطمته العاصفة العاتية .

وكانت سفينة الدون بدرو التى تسمى « الكونسيوق » قد نجت من العاصفة بمعجزة فى أول الأمر . ولكنها انما كانت قد نجت لكى « كيلجرو » لكى تهلك أخيرا على سواحل

كورنوال ... ويتجو فى وحده من الموت على تلك الصـــورة انتظارا لميتة أشنع وأبشع !

وكانت الشمس فى تلك اللحظـــة قد طلعت وراحت تبدد السحب الثقال التى تحجب السماء .. فتحامل ليقف وينفض عن ثوبه ماغزاه من بلل البحر وقطره ونداه .. وكان طويل القد ، جميل القوام ، حسن التركيب لا يتجاوز الثلاثين من العمر .. ولم يستطع ما صنع الغرق به أن يحجب جماله ومهابة سمته .

وكانت ثيابه وحدها كافية للدلالة على جنسيته . لقد كان مرتديا ثوبا أسودا غامرا يشف عن نبالة محتده وشرف أرومته وما تدل على جانبه من حمائل سيف ملتمع النصل ، بل من مشهد حذائه المستطيل وكانت فردة منه قد نزلت الى ما يلى ركبته ، وتهاوت الأخرى الى ما قبل قدمه .

ولذلك اضطر الى أن يجلس ثانيـــة ليخلعهما ويخرج الماء الذى ملأهما وأثقلهما ، ويعـــاود انتعالهما . واستأنف السير متلفتا حوله ملقيا بصره فى ذلك الفضاء الســـاكن الرهيب .

وما أن سار غير بعيد حتى لمح منظرا غريبـــا حياله ، فنظر أشياء قائمة متناثرة على مدى الشاطىء فاتجه نحـــو أقربها منه واذا به يرتاع ويتراجع مذعورا . لقد كان ذلك هو جثة ميت فعرف فى الحال وجه «هرداتو» وهو أحد ضباط السفينة .

وتركها العون بحزو وحشى فى طريقه فلم يلبث ان أتى على جثث كثيرة منتشرة على مدى بصره ، فنظر اليهم بتلك الرهبة التى يثيرها مشهد الموتى فى نفوس الأحياء .

ولكنه ما كاد ينصرف عن مشهدهم هذا حتى تذكر أنه رأى فى منطقة خاصرة « هرداتو » خنجرا بديعا مرهف النصل

بحوزته الغريزة الى أخذ السلاح .

فعاد أدراجه اليها وانحنى على الجثة فانتزع الســـلاح من المنطقة وشده الى حزامه . ولم يقف عند هذا الحـــد من الاحتياط ضد الغد المجهول فقد تذكر اذ ذاك ان رجـــال السفينة كانوا قد قبضوا رواتبهم قبل قيامهم من بلادهـــم وانهم بالطبع لم يجدوا شـــيئا يصرفونها فيه فخطر له أن يبحث فى جثث الموتى عن تلك النقود ليدخرها للمستقبل . ولكنه شعر بتكره من هذا العمل واستنكف فى بادىء الأمر ، ثم لم يلبث أن تغلب على هذا الاحساس فتحسس الأمنطقة وراح يجمع النقود ويخبئها فى ثيابه !

وكان ميزان النهار قد اعتدل فى تلك اللحظة فمشى على غير هدى ، يبحث عن ثغرة فى تلك الصخور الشم التى تحاذى البحر لعلها مؤدية به الى موضع مأهول . فما عتم أن لمح فتحة بين تلك الجدران الصخرية الصماء على مسافة غير بعيدة منه . فتحامل وأسرع نحوها ، وما كاد ينفذ منها حتى أسلمته الى أرض معشبة يخترقها نهر فتفاض حلو النمير فاقبل على ضفافه ينهل منه ، وراح يغتسل لازيل ما صنع البحر به وما تغير من سحنته .

وانتعشت نفسه قليلا وفارقه تشاؤمه واستأنف السير واذا به يرى دربا مطروقا تحت الأشجار جـــانبيه . فذهب اليه ياكل من المن ليسد ارماقه ، وقد أرهف سمعه مخافة أن يفاجأ فى تلك اللحظة بانســـان ..

ولشد ما ذعر اذ سمع حفيفا بين الشجر .

ولكنه لم يكن حركه انسان ، وانما كان كلبا من كلاب الصيد جاء كاشرا عن أنيابه فلم يكد يلمح هذا الغريب المتطفل حتى راح يرسل نباحا متواصلا . نباح غضب وغيظ ، وكان الجدول أو النهر الصغير بينهما . فجعل الكلب يتوثب على

العدوة محنقا وهو لا يجد سبيلا الى هذا الغريب الواقف على الضفة الأخرى . وأخيرا قفز قفزة مخيفة عبر الجدول .

ولمحة الدون بدرو كذلك فقفز هو أيضا . الى صخرة عالية ، واستل السيف من غمده واستعد ليستقبله به . وإذا به يسمع صوتا ينادي الكلب قائلا : برونتي !

فتردد الكلب .. وإذا بشبح سيدة قد لاح من بين الشجر . فلم يسع الكلب الا أن قفز عائدا من حيث أتى وهو مستاء من حمله على طاعة لا يريدها ..

الفصل السادس

التسليم

وانحنى الدون بدرو وهو ممسك بالسيف في يده . قائم فوق الصخرة كأنه تمثال من التماثيل ، انحنى حتى صنع جذعه زاوية قائمة مع ساقيه ، مبالغة في اظهار الاحترام .

وكان جمالها وهندامها ومظهرها وهيئتها تدل جميعا على أنها سيدة ذات صفة .

وبادرته هي بالحديث قائلة :

— هل هممت أن تقتل كلبي يا سيدي ؟!

فأجاب بالانكليزية وكان يعرفها حق المعرفة :

— سيدتي أرجو أن لا تلوح كراهيتي للموت من كلب سيدة خروجا عن حدود الأدب في شيء

لجعل منطقه بالانكليزية والفكاهة التي ينطوي عليهما جوابه ، تحملق البصر فيه من الدهشة

ولهذا قالت : من أين أنت يا سيدي !

فهز كتفيه وقال : آه . من أين ؟!

وابتسم ابتسامة حزينة وراح يقول : هذا سؤال يحتاج الى قصة طويلة يا سيدتي .

ونزل من فوق الصخرة وبثلاث قفزات من صخرة الى أخرى عبر الجدول الى الضفة الأخرى ، فهم الكلب — وكان قد قبع بجانب مولاته — بالنهوض ، والهجوم لمقربة ، ولكن السيدة أسكتته بسوط في يدها

ووقف الدون بدرو حيالها يشرح قصته

قال : أنا لست أكثر من حطام سفينة معرقة ، بل طريح بحر قذفت به الأمواج على الساحل في مركب اسباني حطمته الزوبعة ليلة أمس .

ولمح في وجهها تجهما فجائيا ، وقالت في لهجة التأفف والاشمئزاز :

— أنت اسباني اذن ؟

فانكمش في نفسه وتشير ذراعيه متأسفا ، وزفر طويلا ثم قال :

— بل اسباني يرثي له أشد الرثاء !

وعند ذلك شعر بأن التعصب الجنسي قد تلاشى وحلت محله شفقة المرأة ورحمتها ، فقد وقفت السيدة تتفحص هيئته مليا ، ولم تلبث أن أدركت قصته منها بغير شرح ، فراح يخاطبها قائلا :

— وأنا ادعى الدون بدرو دي منديوسا اولولا الكونت ماركوس ، بل أنا من الساعة أسيرك !

وجثا حيالها ومد اليها مقبض السيف الذي كان لا يزال ممسكا به عاريا من غمده .

فتراجعت خطوتين من فرط الدهشة وتقطب حاجباها من العجب وقالت مبهوتة :

— أسيري ! ملعقتا ! ماهذا ؟!

قال : اسمحي لي يا سيدتي أن أقول انني لم تخذلني شجاعتي في يوم من الأيام ولكني وقد وجدت نفسي في بلد

لقومي كاره بالغض ، أصبحت أشعر بأن لا مصير مطلقـــا للمقاومة فأنا أمام أحد أمرين ، إما أن أعود إلى البحر الذي قذف بي ، ولكني شاب كما ترين والانتحار أسوأ ما يكون في الشباب خلاصا ومنفذا ، وإما أن أسير في طريقي فإذا وجدت الســـالا يصح أن يتلقى سيفي سلمت نفسي إليه ، فآثرت هذا الأمر الثاني على الأمر الأول وهأنذا عند قدميك يا سيدتي قد تحقق مطلبي وشيكا !

وعاد يمد إليها سيفه وهو ممسك به في كلتا يديه .

فارتبكت وأجابت قائلة : ولكنني لست رجلا يا سيدي!

قال : وهذا ما أحمد الله عليه فقد طالما سلمت الشجاعة في كل العصور للجمال ، وأما عن صفتك ومركزك ومكانتك فما أنا بالأعمى ولا بالأبله حتى لا أفطن إليهـــا من النظرة الأولى .

بدا عليها التردد وحارت في كيفية تنفيذ هذه الفكرة المعروضة عليها . قالت :

ـ ولكني لم أسمع بمثل هذا من قبل . فكيف أتخذك أسيرا ؟

قال : بقبولك سيفي يا سيدتي

قالت : وكيف أمسك بك ؟

فابتسم قائلا : تسألينني كيف ؟ من السهل للغاية أن يمسك بالأســـير الراغب في أسره . ولعمري من ذا الذي يفكر في الحرية إذا كان لديك أسيرا ؟!

فاصطبغ محياها بأرجوان شديد بينما استرسل هو يقول :

ـ هأنا أسلم نفسي ، ولك أترك القدير قدرتي كائنة ما كانت ، وسأظل في أسرك حتى تجيء من بلادي

ورآها لا تزال مترددة بل قد ازدادت ترددا من حرارة

كلماته وحماسة منطقه .

واستطرد محاولا إيثار شفقتها به وعطفها عليه :

ـ ولا يغيب عن بالك أن وقوعي في يد غير يدك سيكون مؤلما . لأن الناس عبيد عواطفهم وشهواتهم وعواطف الانكليز اليوم نحو الأسبان هي ...

وهنا أمسك قليلا ، ولكنه هز كتفيه ومضى يقول :

ـ أنت تعرفينها بغير شك .

فنظرت إليه بحدة وقد استاءت من هذا الغمز في حق أبناء بلادها .

قالت : وهل يحتاج الأمر إلى كل هذا لتنفيذ ذلك ؟

وكان اللون يفرو بالنســـاء عليها ، فأجابها بلا تردد وإن كانت الهجنة غاضة من كرامته وعزة نفسه :

ـ أعتقد ذلك يا سيدتي فإذا أنكرته فإنني مستعد أن أزيل شكوكك بإثبات صدقه .

وأدركت من أنها إذا عملت برأيه واستجابت سؤاله، تعين عليها أن تحميه ، وهو عمل نبيل لأنه وإن كان أسبانيا فهو مع ذلك رجل كبير القدر رفيع المنزلة . كما أنها قديرة على تنفيذ هذه الفكرة والاضطلاع بها إذ ليس في تلك الجهات كلها إنسان واحد يستطيع أن يغالب إرادتها إذا ما أرادت شيئا .

لهذا كله اعتزمت قبول الفكرة فقالت :

ـ ليكن ما تريد يا سيدي . ستكون أسيري فأعطني كلمة شرف الله لن تحاول هربا أبق عليك أستحقك باعتبار أنني أنا التي أذنت لك في حملها .

فأحنى رأسه وهو لا يزال جاثيا والسيف في يده وراح يبتسم لها ، ثم نهض ليرد السيف إلى غمده قائلا :

ـ أتسمحين لي يا سيدتي أن أسأل ما اسم آسرتي ؟

فابتسمت اذ كان لا يزال بعد كل هذا أثر من الاضطراب في نفسها لغرابة هذه اللهجة التي رضيت بها

قالت : اللادى مرغريت تريفانيان !

قال بدهشة : تريفانيان ! أأنت الآن من اسرة الأرل أوف جارز ؟

فاندهشت هي أيضا من أن اسبانيا يعرف اسرتها ولكنها أجابت قائلة :

— انه أبي ولكن ماذا تعرف أنت عنه ؟

قال : أنا ؟! كلا • للأسف ، وانما سمعت ابي يتحدث عنه وعما كان موشكا ان يذهب بحياته حين كان في خدمة المملكة الحالية في الوقت الذى كانت فيه مارى تيودور على عرش هذه البلاد فقد كان ابي هنا في حاشية الملك فيليب يوم كان زوجا لملكة انجلترا وأظنه كان يعرف أباك حق المعرفة . حقا ان هذه لصلة قديمة بيننا يا سيدتي

قالت : هي كذلك . والآن هيا بنا فاني اراك بحاجة الى اصلاح شأنك •

ومشت وكلبها يتوثب امامها ، وانطلق الدون بدرو في اثرها وهو في اعماق صدره يشكر الله على هذه النجاة التى تهيأت له بأحدى الاعاجيب •••

الفصل السابع
الأسير

وما كادا يسيران لحظة حتى سمعا صوت رجل ينبعث من فوق صخرة عالية هناك ، وكان يغني ، فتطلعت مرغريت الى مصدره وقد وقفت عن السير ولاح ظل إبتسامة على شفتيها ، فلم يدرك الدون بدرو سببها حين لمحها ، ولكنه لم يلبث أن عرفه اذ سرعان ما ظهر المغني للعيان ••

ورأى الدون بدرو امامه شابا مرهف القد في نضارة العمر ومرح الشباب ، لم يكد يلمح السيدة تتراءى في المرآة له حتى صرخ صرخة فرحة وبرقت عيناه الضاحكتان ببريق السرور ، واقبل يهبط المنحدر نحوها وهو عارى الرأس لعب الهواء بشعره وقد تنكب بندقية صيد •

واندهشت هي لقدومه في تلك الساعة المبكرة ، ولكنه قال ذلك باختصار قائلا : انه جاء ليأخذها معه الى معرض الماب في ترونو قال ذلك بسرعة ثم لم يلبث أن أمسك عن الكلام متنبها الى الشخص الذى كان معها ، وراح يسألها من يكون ؟

وكانت هناك طرق كثيرة للاجابة على سؤاله هذا ، ولكنها اختارت متعمدة أكثرها غموضا وفي الوقت نفسه ادعاها للدهشة والاستغراب •

قالت : هذا يا جرفاس هو الدون بدرو دى منادوسا اولونا الكونت ماركوس •

فلم يكد يسمع هذا الاسم حتى جحظت عيناه من فرط الدهشة وتقارب حاجباه وراح يقول : « اسبانى » ! بنفس اللهجة التي كان يصح ان يقول بها « شيطان » ! وبحركة طبيعية أنزل البندقية من فوق كتفه استعدادا لاطلاق النار وعاد يكرر كلمته بنغمة أخف من الأولى قائلا : « اسبانى !! »

فابتسم الدون بدرو • وكانت الابتسامة التي استطاع اصطناعها في ذلك الوقت ، إبتسامة حزن واعياء ، وقال بالانجليزية الصحيحة المتقنة :

— نعم • ولكنه كما ترى يا سيدى غريق بلله الماء !

ولكن السير جرفاس لم يلتفت اليه مطلقا ، وانما استقرت عيناه على وجه مرغريت وهما طافحتان بالأسئلة •

سأل : ولكن من اين يأتي اسبانى الى هنا ؟!

فتولى الدون بدرو الجواب - قال :

- لقد كان البحر الذى قذف بى رحيما حانيا اذ القى بى عند قدميها يا سيدى

فى تلك اللحظة شعر جرفاس نحو الدون بدرو بكراهية شديدة ،والتى يسأله بتحرش قائلا : هل تعنى أن السفينة التى جاءت بك غرقت ولكنك من الغرق نجوت ؟

فأضاءت معارف الدون بدرو ببريق ابتسامته الحزينة المجهودة وأجاب بقوله :

- أظن أننى قد عبرت عن مرادى بأبدع من هذا وأبرع

فدلف الشاب اليه وهو يقول :

- حسن جدا ·· انى لسعيد بلقائك

فانحنى الدون بدرو قائلا : ان أدبك يجعلنى لك مدينا

فأرسل جورفاس ضحكة قصيرة وقال : أدبى ؟؟ يظهر انك أخطأت فهم مرادى ·· اننى لا آنق باسبانى مطلقا ·

فنظر الدون بدرو اليه وقال : وأى اسبانى يحتاج الى ثقتك به كيشر

ولكن السير جرفاس لم يحفل بهذا الرد المتحدى وانما اهتم بالناحية العملية قبل كل شيء فقال موجها كلامه لمرغريت :

- لنبدأ اولا بتجريده من أسلحته · هيا يا حضرة الاسبانى سلم سلاحك ! ·

ولكن هنا تدخلت اللادى مرغريت وكانت قد ظلت صامتة طول الوقت فالتفتت الى جرفاس قائلة بكل بساطة ليس لك بهذا شأن يا جرفاس ·

فاضطرب لحظة ولكنه هز كتفيه وضحك قائلا : ما هذا كيف تقولين أن لا شأن لى ··· هيا يا صاح سلم سلاحك !

فابتسم الدون بدرو ابتسامته الاولى وقال :

- لقد تأخرت يا سيدى نصف ساعة عن الوقت المناسب · فان أسلحتى قد سلمت بالفعل واذا كنت مبقيا عليها كما ترى فماذلك الا باذن من آسرى وبعد تأدية يمين الشرف فأنا الآن أسير فى يد اللادى مرغريت تريفانيان !

فوجم جرفاس أولا من فرط الدهشة ثم انفجر ضاحكا وكان فى ضحكه روح استهزاء أغضب مرغريت وأخجلها صاح ساخرا : هذا حديث خرافة · من ذا الذى سمع قبل هذا برجل يقع أسيرا فى يد امرأة ؟

فذكره الدون بدرو بقوله : هأنت قد سمعت بهذا يا سيدى

ونظرت مرغريت اليه باحتقار ثم تحولت الى السكوت وقالت :

- هلم يادون بدرو !

فاشتد اضطراب جرفاس

وكاد الدون بدرو يهم بازاحته من طريقها لولا انه تدبر الموقف فادرك ان بين مرغريت والسير جرفاس شيئا ظاهر الاغراض لعينيه وان سلامته متوقفة على مبلغ حذره واستخدام ذكائه ، فرأى من الحكمة أن يظل بعيدا من هذا النزاع الذى يجرى بسببه

وفى الوقت نفسه كان السير جرفاس قد فطن الى خطئه وان لم يفطن الى أن غضبه لم يكن له من سبب فى الحقيقة غير سوء تصرفه

فهدأ من حدته وقال لها : هذه مسألة يا مرغريت احب ان تفهمى أنها ···

ولكنها قاطعته قائلة بكل عظمة : الم اقل لك انك لا تعنى من الامر ؟

ثم التفتت مرة أخرى الى الدون بدرو قائلة بلهجة الآمر : هلم

بنا يا دون بدرو !

فما كان من السير جرفاس الا أن تراجع في هذه المرة وقد شعر باهانة بالغة فلم يستطع كلاما وتقدمت هي يتبعها الدون بدرو ظالعا مبتئلا فالتفت جرفاس ينظر اليه بغضب وغيظ شديدفقابله الاسباني بانحناء في منتهى الادب والاحترام

الطرق برأسه وقد شعر بأن هـــذه الحادثة قد حطمت كل آماله وجعلته يشك في حبها لهوان اقبالها عليه في الايام الاخيرة كان من قبيل التسلية وقضاء الوقت والا لما عاملته هذه المعاملة السيئة ، ولما غضت من كرامته على هذا النحو ولـــما الكرت عليه ما هو من حقه بالنسبة لذلك الاسباني الدخيل!

لقد تألم وتأثر كثيرا وفكر وهو الرجل ذو الحيثيـــة والمسئوليات في انه يجب أن يؤدي واجبه وضعيت مرغريت لم رقفت ، ولا يصح أن يمنعه عن هذا الواجب الادعـــاء الخيالي السخيف بأن هذا اسباني قد سلم لها ، بل هـــو يظن أن هذا التسليم لم يكن سوى خدعة ماكرة توصل بها هذا الاسباني الخبيث الى الضحك على امرأة في سبيل تحقيق اغراضه والنجاة من الهلاك بنفسه .

دارت كل هذه الافكار في رأس جرفاس فاقتنع بهـــا واعتزم التنفيذ بمجرد وصول مرغريت وأسـيرها الى القصر

ولهذا رأيناه على أثر وصوله الى القصر يدخل الردهـة فيسلم البندقية الى مارتن رئيس الخدم ويتقدم غير حافل ولا مكترث باحتجاجات هذا الخادم ومحاولة منعه من الدخـــول الى المكتبة وكانت مرغريت وأسيرها جالسين فيها مع الشيخ الفيلسوف .

وكان الشيخ متهيجا غاضبا بسبب هذا الازعاج التي سببته له مرغريت بدخولها عليه مع هذا الغريب

وكان من المرجح أن يستمر هذا الانزعاج طويلا لولا

أن بادره الدون بدرو بذكر الصـــلة القديمة التي كانت بين الشيخ وأبيه في أيام الملكة ماري تيدور ، وحينئذ تشـــعب الحديث .. واطمأن الشيخ اليه .

في هذه اللحظة دخل السير جرفاس غير مســـالك وهو مائج الخاطر منفعل ، معتزم أن يغني عن الشيخ تقل طلعتها التخيل المتهجم .. ولكن الشيخ استاء من هذا التصرف ، وزاده استياء مبادرة جرفاس ببيان غرضه من الدخـول على تلك الصورة الفجائية المزعجة ، فالتفت الشيخ اليه قائـلا :

ـ ان هذه الحماسة يا جرفاس في غير محلها ولاضرورة لها لان الدون بدرو قد سلم نفسه أسيرا وانتهى الاشكال !

فصاح سير جرفاس قائلا :

ـ لقد سلم نفسه الى مرغريت . اعني الى سيدة .. ليسلم نفسه الى ضباط الشرطة في « ترورو » الى أن تصدر الاوامر اللازمة بشأنه فاسمح لي يا سيدي اللورد أن اصحبه الى « ترورو » لتسليمه .

وهنا تدخلت مرغريت قائلة :

ـ وبذلك تعرضه لخطر التمزيق اربا في الشوارع . هذه هي الشهامة .؟!

قال : لا خطر عليه اذا كان معي . فلتطمئني الى حراستي .

واحتدم الجدل بينهما حتى نفد صبر جرفاس ثم قال :

ـ وكيف يتأتى لامرأة حراسة أسير ؟

فتولى الدون بدرو الجواب مترفقا فيه ما امكن . قال :

ـ هو الشرف يا سيدي فاني مقيد بموثق الشرف اكثر من كل القيود والاغلال التي يتيسر تقييدي بها في سـجن ترورو هذه التي تتحدث عنها .!

وتردد جرفـــاس لحظة .. فاسرعت مرغريت فقطعت

سبيل كل مناقشة قائلة بان اسيرها فى حال من الضـعف
والهزال والبلل والجوع والظمأ بحيث تقضى الانسانية منهم
بالعناية العاجلة قبل التفكير والمناقشة فيمـا ينبغى عمله
بالنسبة له · فانتهز الشيخ هذه الفرصة للتخلص من هذا
الازعاج الذى تركه لحظة طويلة منشغلا عن فلسفة سقراط ·

الفصل الثامن

الدون بدرو

لقد وجد الدون بدرو فى قصر تريفاليان حسن المثوى
وكرم الوفادة الجديرة بضيف كريم · على الرغم من أخـلاق
رب القصر وشذوذ أحواله
وكان اللورد جاوراغنى أغنياء الاقاليم الغربية فى انجلترا
ولم يكن يعنى كثيرا بتدبير ثروته الطائلة ·· حتى لقد عهد
الى رجل من اقاربه رقيق الحال يدعى فرانسيس تريفاليـان
بان يكون وكيل دائرته ·· وكان فى القصر ايضا هـوارد
مارتن خادمه الامين الذى تقدمت به السن فى خدمته · وقد
وثق بهذين الرجلين ثقة مطلقة وترك لهما مطلق التصرف
شئونه الاقتصادية والامور المالية وتفرغ هو لكتبه ودراسته
وابحاثه وفلسفته ·· !
وقد امرت اللادى مرغريت فتمين فى القصر خادم خاص
للعناية بالدون بدرو ، كما أحضرت له كافة وسائل الراحة
وافردت حجرة رحيبة له فى الجناح الغربى للقصر تطل على
البحر ·
وما كاد الدون بدرو ينزل بالقصر حتى أصيب بحمى
شديدة بسبب ما قاساه فى تلك الليلة الرهيبة ·· واشتدت
به الحمى فى اليوم التالى حتى اقتضى الامر اسـتدعاء طبيب
من « ترولو » لفحصه ·

وهكذا انتقل خبر وجوده فى القصر الى الاقليم كله ،
فاصبـــــح حديث المجالس فى قراه ومدنه ·· وتطورت
الاشاعات الى الزعم بان عددا كبيرا من الاسبانيين نجوا
احياء من السفينة الغرقة ·
وجاء كونستابل من مخفر «ترولو» لزيارة الاول جاريد
وقد طلب معلومات عن الحادث ·· واشار عليه باحالة الامر
الى البوليس ·· ولكنه قابل الفكرة باحتقار وقال :
- ان الدون بدرو قد سلم نفسه للادى مرغريت ، فهو
اذن سجين فى قصر تريفاليان ، وهو متحمل كل مسئوليته ·
ونفح الكونستابل ببعض النقود ·· ونادى الخدم
لياخذوه الى المطبخ ليكرموه طعاما وشرابا ·
وما كاد يتخلص من هذا الثقيل حتى حضر السير جون
كيلجرو ، ليفاتحه فى هذه المسالة بالذات · مقترحا تسليم
السجين الى الحكومة لسجنه فى البرج مع الاسبانى الآخـر
المحبوس به ، وهو الدون بدرو فالديز ، وكان قدوم كيلجرو
للتدخل فى هذه المسالة بايحاء من السير جرفاس · ولـكن
اللورد الشيخ أصر على رأيه فلم يجد كيلجرو بدا من تركه
وشـانه ·
وامتنع جرفاس من الذهاب الى القصر ، من شدة المه
وكمده ، وجعل يتفرغ لانشاء سفينة خاصـة به ·· محاولا
التغلب على عاطفته ·· كأن لا وجود لمرغريت فى خاطره !
ولكن فى ذات صـــباح ، وقد مر اثنا عشر يومـا
على اقامة الدون بدرو فى القصر ·· جاء سائس على ظهر احد
الجياد بكتاب الى السير جرفاس من اللادى مرغريت تسأله فيه
عن احتجابه الطويل ·· وتطلب اليه الحضور فى ذلك اليوم
نفسه ليشرح لها اسباب غيابه ·
وكان جرفاس قبل وصول هذا الكتاب اليه قد اعتزم

أن يسافر الى جزر الهند دون أن يراها أو يلتمس توديعها ، ولكن ذلك لم يمنع مع ذلك من العمل بكتابها .

وكان الدون بدرو قد شفي من مرضه واستعاد قواه فكان أول خاطر دار بخلده هو أن يسترد حريته فيعود الى بلاده

واعتزم ان يفاتح اللادى مرغريت فى هذه المسألة ، فانتظر حتى انتهى طعام الفطور ورفع الخدم الصحاف عن المائدة وآنس خلوة طيبة بها ، فانثنا يتحدث اليها فى مسألة « الفدية » أو ثمن فكاكه من أسره .

فلم تكد هى تسمع هذه الكلمة حتى قطبت حاجبيها مندهشة وقالت :

ــ الفدية ! لست أرى ضرورة ما لها !

قال : ولكنها ميسورة مع ذلك ياسيدتى ولك أنت تحديد مقدارها

فارتبكت . ولكنها ما لبثت أن قالت : اذا كنت قد قبلت منك تسليم نفسك لى لأن ذلك كان عملا كريما .. ويجب أن تعتبر نفسك ضيفا عندنا .

فابتسم قائلا : نعم ، ولكنى لا أحب منك أن تخطىء فى النظر الى هذا الجانب فقط ولا فى اغلاق ذلك والمجاهرة به ، اذ لا يجب أن لا تنسى ان ذلك يعرضك لمسئولية خطيرة ، اذ قد تتهمين بايوائى وحمايتى ، وهناك عقوبات شديدة لمن يثبت عليه أنه آوى أو حمى احدا من الكاثوليك ، فمن مصلحتك ومن مصلحتى أيضا أن أظل معتبرا أسيرا لا أكثر ولا تنسى انك على هذا الاعتبار جئت بى الى هنا ، وهو الاعتبار الذى منع السير جرفاس من التشبث بأخذى معه .

وكان ذلك كله منقسطة بالطبع لانه يعرف قبل كل انسان أن نجاته كانت بالفعل بطريق التحايل والتهريب من

القانون . ولكن ذلك الكلام المنمق كان كافيا للتأثير فى نفسها فلم يسعها سوى الاعتراف بصوابه وسداده . وقالت :

ــ انى قانعة بوجهة نظرك تماما وعليه ما دمت تصر فانى اترك لك انت ان تعين مقدار الفدية .

فابتسم ابتسامة غامضة وجعل يفكر مليا ثم قال أخيرا :

ــ ليكن ذلك . ولكنى أرجو أن تساعدينى على الحصول على الفدية المطلوبة

فضحكت قائلة : أنا مستعدة !

وقد ظنته يقصد المزاح

ولكنه راح يظهر ما أوتيه من سعة الحيلة وبعد التفكير قال : سأكتب اللحظة خطابا وعليك أنت أن تعملى على ايصاله

قالت مستغربة : على أنا ؟

فراح يشرح لها ما أراده . قال :

ــ اعرف أن كثيرا من قوارب الصيد تخرج الى البحر فى كل يوم تقريبا من الخليج القريب من هنا ، خليج « سيسبوك » فلنبحث لنا بين أولئك الصيادين عن رسول يحمل كتابى هذا ، وليس لى من اعتمد عليه فى هذه المهمة غيرك .

قالت مستنكرة : هل تظن ان فى امكانى اقناع بحار انكليزى أو صياد بالاقتراب من أى ثغر من الثغور الاسبانية فى وقت عصيب كهذا ؟

قال : هذا طبعا مضحك وأنا لا اقبل ان اكون مضحكا ولكن العلاقات طيبة كما تعرفين بين انجلترا وفرنسا وكتابى سيتوجه الى شخص اعرفه فى ثغر « نانت » بفرنسا ، وعليه هو التمام الباقى وايصال الكتاب الى وجهته المقصودة

فنظرت اليه بريبة وقالت : أراك فكرت فى الامر من جميع وجوهه !

فنهض وقد بدا جميلا أنيقا وقال :

– وهل كنت تنتظرين منى أن أرضى البقاء عبئا ثقيلا على كرمكم ولطفكم أمدا غير محدود

وكانت لهجته لهجة احتجاج وأسف على أنها قد ظنت به هذا الظن السيىء ولكن كانت عيناه تراقبانها

وضحكت ضحكة مستطيلة انتهى بها الحديث .

❊❊❊

وفى صباح اليوم التالى كان الكتاب الذى أراد أن يرسله معها جاهزا وقد كتبه باللغة اللاتينية

وفى ذلك الوقت بالذات أرسلت هى رقعتها تلك الى جرقاس فجاء مسرعا على الفور ليصل فى الحادية عشرة وقد هموا بالجلوس الى مائدة الغداء ، وعلى المائدة تسنى له أن يلاحظ الرشاقة والجمال والذكاء وحلاوة الدعابة ولطف النكتة التى اشتهرت عن الدون بدرو وترامت أخبارها اليه

وكأنما أدرك جرقاس غلطته الماضية فى جفوته ازاء الدون بدرو وخشونته فأحب أن يصلح ما فسد فراح يتكلف الادب والتلطف معه على المائدة ، فكان الاسبانى يلاقيها بالمثل وهو مرتاح مغتبط

ولم يكد الشيخ يغادر المائدة الى غرفته عقب تناول الطعام ، حتى طلبت مرغريت الى جرقاس أن يصحبها الى الحديقة لتشاهد أشجار الورد فى نهاية الموسم ، ولم يكن جرقاس يطلب أكثر من ذلك ، فذهب معها تاركين الدون بدرو وفرنسيس وهما لا يزالان جالسين الى المائدة

وكانت مرغريت تتوقع أن يسمعها جرقاس بعض الحقائق المؤلمة ويوجه اليها شيئا من العتاب القاسى ، وكان هذا بلا شك الخاطر القائم فى نفسه ولكن ما كادا يبلغان حديقة الورد ويغمرهما الشجر الملتف حولهما ، حتى بدأته هى بلطف متناه فزال كل مافى نفسه ونسى فى الحال كل ما

كان قد أعده من العتب والملام قبل قدومه

والشاب تسائله أين كان كل تلك الايام وما الذى حجبه عنها وكان هو فى الواقع يرجو أن توجه اليه هذا السؤال ليجيبها بعديد من الأجوبة القاسية التى كان قد استحضرها فى خاطره . ولكنه حين سمع هذا السؤال ارتبك قليلا ولم يسعه الا أن يعتذر عن الغياب قائلا :

– كانت عندى مشاغل وقد اضطرتنى تجهيز سفينتى الى الاتصال بالسير جون طول الوقت .. كما أنى .. لم افكر فى أنك قد تحتاجين الى وجودى

قالت : الا تأتى الينا الا عند ما نكون محتاجين اليك ؟.

قال : بل عندما أرانى مرحبا بى .. وكلا المعنيين واحد

فزفرت زفرة المندهشة . وقالت : ياله من تفسير نحس .! انت اذن لا يرحب بك الا عند الحاجة اليك .. أهذا كلام تقوله .. ؟

فازداد ارتباكا وقال يتهكم :

– لقد كان عندك صاحبك الاسبانى يشغل أوقات فراغك

قالت : انه انسان مؤدب. الست تراه كذلك يا جرقاس ؟

فغمغم متألما نافد الصبر :

– مؤدب للغاية .! بل نعم المؤدب هو .!

قالت : انى لا أراه مسليا للغاية .. بل هو رجل خبرة وتجارب . وعرف العالم وزار جميع قصور الملوك فى أوروبا وهو يجيد الغناء .. فضلا عن انه ...

ولكن جرقاس لم يطق صبرا على سماع اكثر من ذلك فبادر الى مقاطعتها قائلا :

– والى متى سيقيم هنا هذا الانسان العجيب الذى تصفين . ؟

قالت : اخشى أن يطول به المقام قليلا .

قال : تقولين « اخشى » ؟.

وعاوده الغضب والانفعال .

ولحظت هي ذلك منه فقالت : هل أغضبك كلامي .؟

فمط شفتيه متضجرا .. وذهب يمشي ضاربا الارض بقدميه من شدة الانفعال .

قال : وما الذي أنتويته من اجله .؟ الم يصل والدك بعد الى قرار .؟

قالت : ليس هذا من شأن ابي .. فان الدون بدرو أسيري انا وأنا مقتضيته فدية يدفعها ثمنا لفكاكه . فاذا دفعها سمحت له بالعودة من حيث أتى .!

وسمع هذا فاندهش بادي الرأى . ولكنه لم يلبث ان وجد فيه مجالا للتهكم والسخرية :

— اذا كنت منتظرة ذلك فلا محل اذن لخوفك من أن يتطول .

قالت : أنت مبالغ في سوء ظنك .. لانه بالفعل كتب خطابا الى ثغر ثانت .. فمن الذي سيحمل الخطاب .. ؟

قالت : هذه هي الصعوبة .. وهو نفسه يشعر بها .

فعاد الى تهكمه واستهزائه . قال : يشعر بها .! لا عجب فهو رجل شعور وبعد نظر .

والتي يضحك مسرورا في أنه وجد شيئا يستطيع التهكم به ولكن سروره هذا لم يلبث ان تلاشى حين سمع من مرغريت الدقائق والتفاصيل وكانا قد وصلا في نزهتهما الى نهاية حديقة الورد حيث لمح متكأ رخاميا قريبا منهما فراحت هي تجلس فوقه زافرة زفرة تسليم وهي تقول متنهدة :

— يلوح لي أنه سوف يظل مخيما هنا طويلا . ان هذا الشيء أليم . على اننا جديرون بأن نخفف من وطأة حالته ما أمكننا . وأنا من جهتي يسرني أن يبقى لانني آنس اليه !

فصاح جرفاس قائلا : تأنسين اليه ! أهكذا تعترفين !

قالت : وأية امرأة لا تأنس لمثله . وهو رجل ترى أكثر النساء

فيه جاذبية وفتنة . لقد كنت في دهشة قبل أن يجيء ، ابي في كتبه وفلسفته ، وليس لي من صحاب ولا رفاق الا أولئك الشبان الحمقى مثل تريسليان وجودولفن ومن لف لفهما واذا صح انك معتزم ركوب البحار مرة أخرى . فلا ألبث ان اعود الى وحشتي الماضية كما كنت .

قال : مرغريت !

وكان مكبا في تلك اللحظة عليها . وفي عينيه بريق الشوق الثائر من ذلك الاعتراف غير المألوف .

فتطلعت اليه بعينيها وابتسمت ابتسامة رقة وحنان .

فذهب يجلس فوق المتكأ بجانبها ، ويطوق كتفيها بذراعه

قالت : أفهمت اذن يا جرفاس لماذا أريد ان استبقي بجانبي رفيقا أنيسا كالدون بدرو .!!

فلم يكد يسمع هذا حتى تهاوت ذراعه من حول كتفيها بينما مضت هي قائلة :

— أعني يا جرفاس حين تغيب انت عني . اذ هل يرضيك أن أظل في وحشية وحيدة . لا أظن ذلك يرضيك أن كنت حقا تحبني !

قال : المسألة اذن فيها نظر !

قالت : اية مسألة تعني !

فاستوى في جلسته واسند مرفقيه الى ركبتيه وأجابها قائلا :

— هذا الخطاب الذي كتبه . هل يوجد من وراءه شيئا !

قالت : فديته والوسيلة التي يمكنه بها أن يعود الى بلاده

قال : الا يعرف وسيلة يتيسر بها حمل الخطاب الى ثانت ؟

أجابت : نعم . لقد خطر له أن يستأمن عليه أصحاب

نوازع الصيد ولكن الصعوبة هي في اقناع احد منهم بقبول تأدية هذه الخدمة له غير انني واثقة من ان ذكاءه سيتفتق عن حيلة من الحيل .

فعاجلها بقوله : نعم . نعم . ولكن ربما استطعت انا ان ازيل هذه العقبة .

ثم نهض من محله فجأة وهو يقول : أين الخطاب فتأملته لحظة . ثم قالت :

— ما هذا الذي أرى . أحقا تهتم بهذه المسألة ؟

قال : نعم وعلى انا ان اوجه الرسـول الذي يحمل الكتاب الى ثابت ولا يهمني سواء قصد الى اسبانيا أو الى جهنم وبئس القرار ! هات انت الخطاب ودعى لى الباقى

الفصـل التاسع
الاشتباك

وتم ارسال الخطاب مع الرسول وكان يكفى هذا لكى يقنع جرفاس بوجوب الصبر على الاسبانى حتى يرحل ، ولكن غرام الشباب لا يعرف صبرا . فلم يلبث جرفاس ان عاد الى ثورته النفسية الأولى حين رأى مرغريت منشغلة اكثر الوقت بمطالب الدون بدرو وتوفير أسباب راحته ، وحين أصبح كلما طلب مقابلتها او التمس الخلوة بها ، لم يجد لديها متسعا من الوقت للحديث معه على حدة ، فان لم تكن خارج القصر مع ذلك الاسبانى صائدة قانصة ، كانت مع الزوار فى القصر جالسة متحدثة وكأنما أصبح الدون بدرو محور حياتها وموضوع عنايتها

لقد كان جرفاس يشعر بأن مرغريت من فتون هذا الرجل معرضة الخطر . وانه فعلا كان يحاول جهده استمالتها اليه بعذب احاديثه وشهى قصصه ونوادره ، كما احس أن الشبان الذين كانوا يختلفون الى القصر ويحقدون

عليه اصبحوا يتغامزون عليه وقد سرهم ان مزاحما له قد ظهر ليغطى عليه وينتقم لهم منه

احس جرفاس ذلك كله فهاجت هائجته وخطر له أن يحرش بالدون بدرو ولكنه رأى أولا انه يحسن به أن يسبر غور الشيخ من هذه الجهة .

فانتهز فرصة وجود مرغريت مع الاسبانى فى الحديقة ودخل على اللورد وقد جلس فى تلك اللحظة يكب على مجلد ضخم من كتب المؤرخ هيرودوت

قال جرفاس محييا :

— مولاى ! لقد جئت الساعة لاتحدث اليك عن مرغريت

فرفع الشيخ بصره عن الكتاب مستاء متذمرا . . . بيد ان جرفاس استرسل فى بث شكايته من بدرو ثم قال :

— وقد اصبحت تقضى اكثر الوقت مع هذا الاسبانى ، وهو امر لا يليق بسيدة فى مركزها

ان هذا اللعين يقف فى طريقى . وهو فى هذه اللحظة بالذات جالس فى الحديقة يعزف على قيثارة وينشد اناشيد الحب لمرغريت

وعندئذ بدا الشيخ يدرك حرج الموقف

قال : أيفعل هذا وأنت متلكئ هنا وتتوانى ؟ اذهب فى الحال وادعها الى . سأعرف كيف انهى هذا واضع حدا له . . ! وسوف تتزوج بك قبل مضى شهر .

فذهب سير جرفاس راضيا قرير العين . بينما عاد الشيخ الى كتابه

واهتدى جرفاس الى مكانهما بنغم القيثار فاقبل عليهما ، وابتدر مرغريت قائلا :

— ان سيدى اللورد يسأل عنك يامرغريت وهو يطلبك فى الحال فقامت لترى ما الخبر وبقى الرجلان وحدهما وكان الدون بدرو قد نهض احتراما لمرغريت فلما

ذهبت عاود مجلسه وراح يحاول الحديث مع السير جرفاس مراعيا كل الأدب فى لهجته

ولكنه اضطر الى السكوت اذ رأى جرفاس يكلمه فى انفة ويختصر ما امكن فى اجوبته ، وأقبل على القيثار يعزف متجاهلا وجوده كل التجاهل

فلم يلبث سير جرفاس أن اهتاج وانفعل ورأى فى ذلك اهانة بالغة ونوعا قاسيا من السخرية والاستهزاء أثار ما فى نفسه من الحقد على الرجل والموجدة ، فهجم على الاسبانى فضرب القيثار بكفه فاطاره من يده .

فنظر الاسبانى اليه بدهشة ولكنه لم يلبث ان راى هياج صاحبه وانقلاب سحنته فابتسم ابتسامة خفيفة ، وقال بصوت ملىء بالسخرية :

ـ ازالك لا تحب الموسيقى ياسير جرفاس !

قال : ولا الموسيقيين !

فاستطرد الاسبانى فى سكون ولكن باستغراب :

ـ لقد سمعت بأناس كثيرين هذا شأنهم . وأنا أفهم ان يحب الانسان شيئا أو لا يحبه . ولكنى لا افهم مطلقا هذه الحركة التى أبديتها اللحظة

وكان السير جرفاس قد شعر بأنه اتى عملا غير لائق فعلا فهدأت ثائرته قليلا

قال : كنت أظن أن سببها واضح وضوحا كافيا

فاجابه الاسبانى بقوله : ماذا تعنى ؟ !

فاحتد جرفاس قائلا : انك تفهم ما اعنى ...

فنهض الاسبانى زافرا متنهدا واتخذ سمات الحزن والأسف وقال :

ـ هل تعنى انك اردت أن توجه الى اهانة . هل هذا ما تريد منى أن أفهم ؟

فلم يشأ جرفاس أن يتراجع بعد أن اوغل الى هذا

الحد فقال :

ـ نعم اذا كان فى ذلك وضع حد لكثرة امتثالك وانتراضاتك .

فاجابه الآخر قائلا :

ـ ولكن افتراضاتى فى محلها . لانى أراك فعلت هذا مع انى لا أظن انى اهنتك او أسأت اليك من قبل

فصاح جرفاس قائلا : أنت نفسك اهانة . ومجرد وجودك اساءة فضلا عن انك اسبانى وانا امقت الاسبان جميعا

فوقف الدون بدرو وابتسم وهو يقول :

ـ الآن لقد فهمت حقا . وانى لآسف على أن اكون سببا فى ذلك ولكن .. هلا قلت لى ياسيدى ماذا يمكن أن افعله لترضيتك ؟

قال : هو أن تموت !

فتحسس الدون بدرو لحيته بأنامله . وهو لا يزال فى اتم الهدوء . وازداد جرفاس غيظا من سكون خصمه وهدوئه

قال : ولكن هذا طلب اراه كبيرا . فهل يرضيك أن تحاول قتلى ؟

قال : كل الارضاء !

فانحنى الدون بدرو قائلا :

ـ اذا كان الأمر كذلك فلا يسعنى الا ان احقق رغبتك . ولهذا ارجوك ان تنتظر لحظة حتى احضر اسلحتى لكى اقدم لك الفرصة السانحة .

وباحناءه من رأسه ، وابتسامة من فمه خرج مسرعا تاركا جرفاس وهو يسخط على نفسه لسلوكه الخشن الجاف ازاء شخص يبالغ فى أدبه ورقة سلوكه

وما هى الا لحظة حتى عاد الدون بدرو بالاسلحة قارا

معا الى بقعة يحجبها الشجر عن الابصار

واحب جرفاس ان يهزأ به . فقال :

— انك لتحسن كل الاحسان اذا كان لعبك بالسيف في مثل براعتك بالكلام وطول اللسان

فاجابه الدون بدرو بكل لطف : لا تخف !

فصاح به : انا لا اخاف شيئا .

قال مؤكدا : لا ضرورة . لانني لن امسك بسوء

فاشتد هياج جرفاس واستطرد الاسباني :

— انت تثير فهمي يا سيدي . ولا تفطن الى الحقيقة كثيرا . فهل فكرت مثلا في انك اذا قتلتني فسوف لا تجد انسانا يناقشك الحساب من قتلي . اما اذا انا قتلتك فمن المؤكد أن ابناء جلدتك سوف يشنقونني على الرغم من مركزي ومنصبي

فاجابه جرفاس وهو يستعد للمبارزة :

— يمين الله ما جال بخاطري ، ولست احب ان يكون هذا الفارق قائما بيننا .

قال : كلا .. مطلقا .. فلا تظن انني انما وجهت نظرك الى هذه الفكرة لكي اتحاشى المبارزة . ولكن ثق يا سيدي انني لن امسك بسوء .

فعاود الغضب جرفاس . قال : يظهر انك واثق من نفسك اكثر من اللازم .

قال : نعم . والا لما كنت اوافق على مواجهتك . ان انفعالك هذا هو الذي يجعلك متهورا وينسيك أشياء كثيرة . فمثلا كان اولى بك أن تتذكر انني وانا في حاشية الراهنة اسمي مرتبط بكلمة الشرف . فاذا تركت نفسي اقتل فقد اخللت بشرفي واضعت موقفي . لان موتي في هذه الحالة بسبب تصرف اشتركت فيه بنفسي يعتبر قريبا من الفرار او لا يقل عن الهرب من الاسر . ومن هنا يجب ان اكون

راضيا من نفسي والا لما وافقت على المبارزة مطلقا .

وكان هذا فوق احتمال جرفاس . فقد كانت سكينة هذا الاسباني ورباطة جأشه تستحق حقيقة الاعجاب . ولكن هذا الغرور لم يكن يطاق . ولهذا اشمأز جرفاس واشتد به الغيظ . فاسرع الى خلع سترته

ووقف الاسباني على استعداد ينتظر اشارة من سير جرفاس ، وهو ساكن الاوصال .. بادى النشاط .

واخيرا تلاقيا وجها لوجه وشرعا يتبارزان .

كان جرفاس ثائرا محنقا .. لذلك كانت مبارزته متفقة مع ثورته وحنقه ومماثلة لاخلاقه في الصراحة والصدق والمواجهة الخالية من الخبث والمكر والخداع .. على الرغم من اشتهاره بين رجال البحرية بالبراعة في السيف .

ولشد ما كانت دهشته ان يأتي الطعنات القوية التي كان يوجهها الى خصمه بكل قوة ذراعه ومتانة عضله ، لا تصيب هدفها ، بينما راح الاسباني يتلقاه ببراعة فائقة كأنها السحر .. فلم تلبث ذراع جرفاس أن كلت .. وقواه ان خارت .. وعند ذلك بدأ الغضب يتملكه ، فاستحالت حركاته بالسيف خبط عشواء . وكان في وسع « الدون بدرو » أن يقتله بسهولة ، وكلما رأى جرفاس براعة خصمه على هذه الصورة اشتد غضبه وبالتالي ازدادت حركة سيفه ضعفا وعجزا حتى لهث وبدأ العرق يتصبب منه .. وكاد جرفاس في لحظة يرتمي على خصمه ليمسك به .. ولكنه لم يستطع .

واخيرا تراجع عاجزا خائرا مختنق الانفاس ليستريح لحظة فلم يحاول الدون بدرو أن يتبعه ليهجم عليه .. وانما اكتفى بخفض سلاحه لاراحة ذراعه .. منتظرا خصمه ليعاود الكرة فيلاقيه . وقال بتهكم :

— بالعجب .. انك لا تزال بحاجة الى دروس في

المبارزة »

فاحتدم غيظ جرفاس وهجم عليه .

وفى هذه اللحظة بدأت الحوادث تتطور بسرعة .. فان سيف الاسبانى لم يلبث ان كف عن اتقاء ضربات خصمه والتخلص من طعناته . وراح يصطدم به حتى تلاقى النصلان .. وتقعقع المقبضان .. واذا بيسرى الاسبانى قد ارتفعت فجاة وامسكت بمعصم جرفاس .

وفى مثل سرعة البرق التى السيف من يمينه وراح يمسك بها سيف جرفاس من المقبض وينتزعه منه قبل ان يشعر بحركته الفجائية .

وهكذا وجد جرفاس نفسه اعزل .. وقد اصبح سيفه فى يد خصمه فوقف فى مكانه مغضبا هائجا .. ينفض العرق منه .. بينما وقف الاسبانى يبتسم بكل هدوء وينحنى له انحناءة ساخرة

وكأنما لم يكفه هذا الاذلال للسير جرفاس . حتى تهيىء المصادفة له اذلالا آخر .. اذ التفت هذا ناحية مرغريت وقد وقفت من كثب جاحظة العينين .. شاحبة الوجه . ملقية يسراها على صدرها .

ولم يدر جرفاس كيف انتت .. ولا كم لبثت فى موضعها .. ادرك انها قد شهدت هزيمته المخجلة .. ودحرته الاليمة المذلة .. فاستحيى وندى جبينه خجلا .. وود لو ان الدون بدرو لم يبق عليه .. بل ترك سيفه ينفذ الى قلبه حتى لا يواجه هذا الموقف الاليم .

ونظر اليها وهو مضطرب شاحب .. مجهد متعب .. فراى فى عينيها نظرة عتاب قاس .

قالت وهى تنقل نظراتها من احدهما الى الآخر :

ـ ما هذا . ؟

وكان الدون بدرو بلا شك هو الذى تولى الجواب ..

لانه كان هادئا ساكنا كان لم يجر شىء . قال :

ـ لا شىء . ! مجرد تمرين بسيط بالسيف لتعليم سير جرفاس فن المبارزة . ! لقد كنت ابين له اللحظة طريقة المدرسة الايطالية الحديثة فى هذا الفن .

وتقدم الى جرفاس فناوله سيفه قائلا بابتسامته المؤدبة :

ـ اظن ان هذا يكفى اليوم . وربما بينت لك هذا طريقة أخرى !!

وهكذا عرف الخبيث بهذا الاسلوب العجيب فى الكر والفاقة كيف يلمح لما اراد ان يخفى ؛ وهو انه كان كريما للغاية فى ترك خصمه حيا ؛ والاكتفاء باذلاله عن قتله !

ووقفت مرغريت تتأمله لحظة باحترام وتقدير ظاهر ثم قالت بهدوء :

ـ أرجو أن تتركنى لحظة مع سير جرفاس !

فانحنى وتناول سيفه من الارض ثم منطقته وانصرف ولم تكد تخلو الى جرفاس حتى اهابت به قائلة :

ـ جرفاس . نبئنى بالحقيقة ، ما الذى جرى بينكما ؟

فلم يسعه سوى الاعتراف بما جرى برمته ، ولبثت هى تصغى اليه صابرة .. شاحبة .. راعشة الشفتين قليلا .. حتى اذ انتهى ووقف حيالها خجلان مطرقا .. ساد السكون لحظة .. فلم تتكلم .. واخيرا قالت بين السؤال وبين التوكيد : يلوح لى انك كنت معتزما ان تكفينى مؤونة عصيان رغبات ابى !!

وفهم هو المعنى الذى ارادته .. ولكنه كان فى حالة يرثى لها فلم يرفع راسه من اطراقته .. وادرك انها على حق الان فى رفضها الزواج برجل مثله لا يصلح لشىء .. فلم يجد فى نفسه الشجاعة او المقدرة على الدفاع عن نفسه

فعادت تقول بسخرية :

– والآن ! لماذا لا تجيبنى ؟ ألست تحب أن تموت قتيلا ؟

فقال : اذا كنت لا تحفلين بى ولا تحبين .. فعلام هذه الحماسة وهذا الانزعاج والرعب ؟

فثم هياج خاطرها عما فى نفسها اذا راحت تجيب قائلة :

– ومن الذى قال لك اننى لا احفل ولا احب ؟!

وماكادت تفوه بذلك متسرعة حتى ادركت تهورها ولكن تلك الكلمات كانت كمثل السحر فى تأثيرها . اذ وقف يحملق البصر فيها وهو راعش واجف فهتف بها قائلا :

– مرغريت ! أحقا ما اسمع ؟!

فهزت كتفيها وقالت بعبث وسخرية :

– اليس هذا واضحا ؟ هل كنت تريد ان يأتى البوليس ليعاين الحادثة ويبحث عن أسباب الوفاة وتصبح مضغة فى الأفواه وينقل الخبر الى لندن ؟!

فتراجع مبهوتا . قال : أو هذا ماكنت تعنينه ؟!

قالت : وماذا كنت تريد منى ان أعنى أكثر من هذا ؟ هيا فان أبى يسأل عنك .

وهمت بأن تنصرف ولكنها التفتت اليه قائلة :

– أبن تركت قيثارى ؟ حقا لو كنت كسرته فلن أصفح عنك .

قال وهى منصرفة : مرغريت !

فوقفت عن كثب ونظرت اليه من فوق كتفها

قال وهو يدنو منها خطوة خطوة : لقد كنت مخطئا فهلا صفحت عنى ! لقد كان ذلك كله من اجلك يامرغريت . اذ اغضبتنى الى حد الجنون أن أرى هذا الانسان ملازما لك

والما فلم أطق صبرا ... لقد كنا سعيدين قبل أن يجىء ...

قالت : ولكنى منذ جاء لم أشعر بشىء ينغص تلك السعادة .

قال : أحقا ماتقولين ؟ . انها غيرتى الملعونة ! وانت تعلمين كم أحبك يامرغريت !

ومشت قليلا ثم وقفت ونظرت اليه وقالت : علم البس ستراك ولكن بعد اليوم عاقلا .. ..!

واختفت عن ناظره

وفيما كان يرتدى سترته وهو حزين مكتئب .. اذ عادت ثانية فهتفت به بصوت رهيب متزن : أى جرفاس ، اذ كنت حقا تريد منى الصفح .. وكان للصفح قيمة عندك .. فلتعدنى انك لن تعود لمثل هذا بعد اليوم !

قال بمرارة : اعدك !

قالت : وهل تقسم ؟

فأقسم على الفور .. ولم يخطر الى ان هذا الاحتدام منها قد ينطوى على معنى ليس فى مصلحته .... ولو ان لديه شيئا من المكر والخبث لعرف فى هذا الموقف كيف يستغلها ويستفسرها عن الدافع .... ولكن سير جرفاس كروشى لم يكن اخا مكر وماهو بالخبيث .. !

الفصل العاشر
الفدية

وغادر سير جرفاس قصر تريماليان فى ذلك اليوم وهو يحس بذلة لم تقع له فى حياته ، وجعل يلوم نفسه ويؤنبها على انه كان فى تصرفه مخطئا كل الخطأ .

لم يعمل اكثر من الطالب فى المدرسة الطائع الذى

واسترسل مع تهور الشباب ، وان الدون بدرو تصرف معه
التصرف اللائق ، بل أبدى رقعة نفس كانت وحدها جرحا
اليما له وقسوة بالغة عليه ومساسا بعزة نفسه وكرامته
وبدا له أن مرغريت لابد ان تكون عقب ذلك الحادث
هازئة به محتقرة له ؛ ولها العذر فى ذلك .. وان كان
شعوره هو بالنسبة لاستهزائها به مؤلما بدرجة لا تطاق
والواقع أن مرغريت لم يكن شعورها بالصورة التى
تمثلت له ، وانما الحقيقة انها لم تكن تريد ان يكون جرفاس
مدينا لاحد بأى فضل وقد آلمها أن يكون الدون بدرو قد
تغلب عليه كما آلمها ان يكون هو قد خرج من الميدان مغلوبا .
ولهذا السبب لم تعد عقب الحادثة تقبل على الاسبانى
بالحفاوة التى كانت تقبل بها عليه . وانما أخذت تتحاماه
وتتنبله وتوحى اليه فى صمت انها قد كونت رأيها فى تصرفه
فلا تريد أن تسمع منه تعليلا او اعتذارا لان كل تعليل منه
او اعتذار لم يعد يفيد .

ولقد حاول الدون بدرو بعد الفراغ من العشاء فى تلك
الليلة أن يبين انه قد تصرف تصرفا لا غبار عليه .

فلم تكد تنهض منصرفة الى ابيها بعد تناول الطعام
حتى دنا منها راجيا اليها أن تمكث لحظة لكى يتحدث اليها ،
فوقفت وهى معتزمة أن تبين له انها مغضبة لا تتحول عن
رأيها فى مسلكه .

قال : أراك تقسين على أشد القسوة بغضبك فى
أمر كان اجتنابه فوق طاقتى

قالت : لا احب ان اسمع شيئا عن هذا الامر .

انك اسأت استغلال مركزك هنا كما اسأت الى الثقة
التى وضعتها فيك حين سمحت لك بالاحتفاظ بأسلحتك .
أليست هذه حقائق أعرفها دون سماع دفاعك . بل ان هذه

الوقائع يادون بدرو قد انزلتك كثيرا من عينى وتقديرى

ولاحظت الالم البالغ الذى أحدثته كلماتها هذه فى
نفسه فتأثرت هى كذلك ، ولعل هذا هو الذى جعلها الآن
تصغى اليه مليا بعد ان كانت رافضة السماع اليه بتاتا

قال : لا اظن أن هناك عقوبة يمكن ان تنزليها بى اقسى
من هذه ياسيدتى . بل من سخرية الاقدار ان يكون هذا
العقاب عن تصرف كانت رغبتى الوحيدة منه ان احتفظ
بتقدير احرص عليه قبل اى شىء سواه . وقد اتهمتنى
بأنى لم احافظ على الثقة التى وضعتها فى شخصى . فهل
تسمحين بأن تسمعى جوابى ؟

قال ذلك فى ضراعة وتوسل . وبصوت مبتهل مؤثر
شجى النغم حلو النبرات فلم يسعها الا اجابة سؤاله وان
تظاهرت بشىء من التكره والاستياء .

فراح يشرح لها كيف ان سير جرفاس جاء وهو ينتوى
التحرش به وكيف اطار القيثار من يده وأسمعه خشن
الالفاظ وكان فى وسعه أن يتغاضى عنها لولا انه خشى ان
يحمل جرفاس تغاضيه هذا على محمل الجبن فيتهم فى
شرفه وكرامته .

ولهذا لم يسعه الا التحدى . وهو حاسب حساب
النتيجة فى خاطره بالتزام الاقتصار على اجابة سير جرفاس
الى طلبه دون اصابته او قتله .

واذا كان قد اظهر تفوقه فى المجالدة بالسيف ، فلم
يكن ذلك منه للفخر او الزهو ببراعته وانما كان غرضه
أن يحمى شجاعته اذا هو بعد الان رفض الاشتراك فى
مبارزات اخرى حين يفكر سير جرفاس فى المعاودة ومحاولة
استفزازه من جديد .

وكانت هذه الحجج قوية بلاشك ولكن اللادى مرغريت

مع اعترافها انها قد التقت بها لم تتحول عن شعورها الأول من جهته ؛ فقد ظلت مبتعدة عنه متحامية لقاءه في الايام التالية مشاغلة بزوارها وأصدقائها الآخرين .

وكانت تلاحظ حزنه وكآبته على مائدة الطعام ولاتبالى، كأنما تريد أن يتألم ويكتئب بسبب ماجرى بعد ذلك من امتناع سير جرفاس عن الحضور منذ يوم هزيمته ؛ ولقد ظنت هذا الحزن البادى على وجهه الشاحب وفى عينيه اللامعتين مجرد تظاهر بارع يناسب الظرف نفسه .

وكان هذا الظن بعيداً من الواقع ؛ اذ لو انها ادركت الحقيقة وعرفت مدى حزنه وألمه ، لتغير الموقف ولجرت الامور في مجرى آخر .

لقد كان الدون بدرو متألما في الحقيقة ، حزينا في الواقع ، فقد حدث ماكان لابد منه أن يحدث ؛ وهو جاذبية النقيض لنقيضه ، اذ شعر هذا الاسبانى بلهيب الحب في قلبه لمرغريت ، على فرط مابينهما من اختلاف وتناقض ، فهو الاسمر اللامع المتقد المشاعر البعيد الخيال كابناء الجنوب جميعا ، وهي الفتاة الهيفاء الذهبية الشعر ، الارجوانية الخد كزهر التفاح ، الساجية العينين ، الزرقاء الحدقة الصريحة النظرات .

ولم تكن في ذلك وحدها تختلف عن بنات جنسه الاسبانيات ؛ بل عن كل النساء اللاتى شهدهن في اوربا كلها ، وأن الحرية التي نشأت من الصغر عليها واستمتعت بها في غير تكليف ، ولا تبذل ، قد اكسبتها صراحة وقوة كفلتا لها وقاية تامة ومهابة رائعة وسلطانا على النفوس نقيضا ، وجعلت براءتها بلا بلاهة ، وعفافها بلا جهل ، وصراحتها بلا تهجم ، وحياءها بلا التواء ، وثقتها طبيعية بلا مخادعة أو اصطناع .

وقد كانت الامور جارية على احسن مايكون بينه وبينها الى ان حدث ماحدث مع سير جرفاس فتغيرت عليه ، وتنكرت له .. فلم يلبث الدون بدرو حين أدرك ذلك ان بدأ يبغض جرفاس ويمقته .. بعد ان كان مكتفيا من قبل بالسخرية منه والعبث به .

وقد لبث الدون بدرو ثلاثة ايام سويا على هذه الحال حتى اذا كان اليوم الرابع وكانوا جلوسا على المائدة .. دخل الخادم يقول ان سيدا اجنبيا يسأل عن الدون بدرو، فاستأذن الاسبانى في الخروج للقائه فأذن له .

وكان القادم رسولا من « ثانت » يحمل القضية المطلوبة .. وكان يكفي وصولها بهذه السرعة لكي يظهر مركزه الخطير في العالم ومكانته العظيمة وشأوه البعيد .

وكان الرجل الذى وقف في البهو لانتظاره في حذاء طويل مما يستعمله البحارة وذا لحية كثة سوداء وملامح لفحها هواء البحر ، وقد تأبط طرداً كبيرا .. فلم يكد يرى الدون بدرو قادما نحوه حتى انحنى وأطال صمته قائلا :

— في خدمتك يامولاى . أنا الطوان ويكلكرك من ثغر ثانت ..

فعبس الدون بدرو وتجهم واظهر الكبرياء وقال :

— كيف هذا ؟ لقد كنت اظن ان الدون دييجو هو الذى سوف يحضر بنفسه . هل اصبحت اليوم قليل الاهمية عنده ضئيل الحساب ؟ فأجاب الرسول قائلا :

— لقد حضر الدون دييجو يامولاى . ولكنه رأى من الحكمة ان يبقى في السفينة ولا ينزل الى البر .

فاستضحك بدرو قائلا : ومن انت ؟

قال : انا يامولاى صاحب السفينة التى ذهبت لاحضاره من ثغر سانتاندر والسفينة الآن راسية على مسافة

ميلين فقط من الشاطىء، وعليها الدون دييجو منتظرا اياكم وقد اتخذت التدابير للسفر بكم الليلة فان عندى زورقا صغيرا فى المركب قد وضعته فى التجويف القائم تحت الصخرة القاعرة عند الشاطىء، واعددت ستة رجال لتسيير الزورق نحو السفينة المنتظرة فى عرض البحر كما قلت .

قال : واين الفدية ؟

فمد الرجل يده بالرزمة التى كان يتأبطها وهو يقول : هاهى يامولاى !

فتناولها الدون بدرو ومشى الى النافذة ففض اختامها وبطرف سيفه أزاح اللفائف فظهر صندوق صغير مستطيل الحجم مصنوع من الابنوس فرفع غطاءه فاذا به يحوى عقدا من الدر اللآلىء قد وضع فوق وسادة صغيرة من المخمل .. وكل لؤلؤة فى العقد تكاد تشبه فى حجمها بيضة اليمام

وتناول العقد فى يده ثم قال للرسول :

ــ لقد احسن الدون دييجو . بلغه ذلك عنى

فبدت الدهشة على وجه الرجل وقال : الست قائلا له ذلك لنفسك يامولاى ؟ ان الدون فى انتظار ..

ولكنه لم يتم اذ عاجله الدون بدرو صائحا به : كلا ، ليس الليلة . لان الوقت ضيق لا يكفى للاستعداد . تعال غدا عند مغيب الشمس تجدنى قد اعددت كل شىء .

فبدا القلق على الرجل . ولكنه أجاب قائلا :

ــ كما تشاء يامولاى ولكن التأخير قد يكون خطر النتائج .

فتولى الدون بدرو عنه بوجهه وابتسم فى رفق قائلا : الحياة كلها اخطار ياصاح الى الملتقى غدا عند المغارة التى

يقترن لديها النهر بالبحر .

والآن اذهب فى حراسة الله .

فانحنى وبكلكوك وانصرف

ووقف الدون بدرو لحظة وحيدا يفكر حاملا ذلك العقد النادر الذى لايقوم بثمن فى راحتيه ، معجبا بلمعان درره ، وبريقها الوهاج ، وما لبث أن ابتسم لنفسه اذ كان يفكر فى الطريقة التى يقدمه بها ، واخيرا ربط طرفى العقد بربطة خفيفة وعاد ادراجه الى قاعة الطعام .

وكان اللورد وفرنسيس تريفانيان قد انصرفا عن المائدة فى تلك اللحظة وبقيت مرغريت وحدها جالسة بقرب النافذة تطل على الحديقة فلما دخل التفتت من فوق كتفيها ، وكانت يداه خلف ظهره فلم تلمح الشىء الغريب البديع الذى كان يحمله .

ودلف نحوها فوقف بجانبها عند النافذة ، بينما ظلت هى مرسلة بصرها الى الفضاء منتظرة أن يسترسل فى حديثه اذا شاء ، فما كان منه الا ان رفع فى رفق يده مدليا ذلك العقد الفاخر لحظة ، ثم تركه بكل رفق وسكون ينحدر فوق شعرها الذهبى !

وشعرت هى بهذه اللمسة الخفيفة ثم احست يدا باردة تحيط نحرها بشىء . فوثبت من مجلسها ملتهبة الخدين ، اذ ظنت أن هذه اللمسة من اناملة .

وماكادت تتحول اليه وتلمح العقد متدليا على بشرتها الناصعة حتى استضحكت ، بين الدهشة وبين الاطمئنان .

قالت : لا اكتمك ياسيدى انى خفت ... !

وتناولت اللآلىء فى يديها لتتأملها ، ولم تلبث ان ادركت قيمتها وروعتها فلهثت انفاسها وذبل الورد الملتهب على خديها ، وتمتمت تقول :

ـ ماهذا ؟!

قال ببساطة : الفدية التي احضرتها من بلادنا

ولكنها كانت في الواقع مبهوتة ذاهلة ، فلم ترد على ان قالت :

ـ ولكن ...

وامسكت . فقد كانت تعرف شيئا عن قيمة اللآلىء وكرائم الدر والجواهر الغالية فلم تشك في أن هذا الذي بين يديها يساوى ثروة ضخمة .

وعادت تقول :

ـ ولكن هذا ياسيدى افتداء غير معقول . هذه ثروة عظيمة . هذه فدية امير .

اجاب حزينا : وانا تقريبا كذلك !

وكانت تريد أن تسترسل في الحديث عن اللآلىء لولا انه صرف الموضوع كأنه تافه ولا يصح أن يشغلهما كثيرا . وهو يقول :

ـ أتريدين ان نتحدث جزافا عن شىء كهذا لا قيمة له في حين ان كل كلمة منك لى اثمن واغلى من كل هذه اللآلىء الحقيرة التي يتألف منها هذا العقد ؟!

وكانت هذه نغمة جديدة جريئة لم يتجاسر من قبل على الكلام بها نغمة حب ، ولهجة عاشق !

فحملقت البصر في وجهه مندهشة

وانطلق هو يشرح الغموض الذي يكتنف كلماته فقال :

ـ هاهى الفدية قد سلمت ، وهاهى ساعة رحيلى قد دنت . نعم لقد اقتربت ساعة الوداع سريعا هكذا ، والآن لقد أصبحت في حل من ميثاقى وقد ازمعت السفر ساعة لتو الى بلادى .

قالت : او بهذه السرعة ؟!

وخيل اليه أنها قد قالت تلك الكلمة بحزن وتأثر ، بهاجت عاطفته في اعماق نفسه ، وان لم يغادر سكينته وهدوءه المألوف .

ولكن لم يخف عنها ذلك البريق الشع من عينيه ، ولا الاحمرار الذي سرى ودب الى وجهه الشديد الشحوب ، فلم تلبث اوتنها ان تحركت وجاشت في اعماقها ، فقرعت ونولاها الارتباع .

واقبل هو عليها ينادى : مرغريت !

وكانت هذه أول مرة يناديها باسمها ، ولقد فاه به في نغمة معبرة فاتنة واسترسل قائلا :

ـ مرغريتا هل اذهب كما جئت ! هل اذهب وحيدا ؟!

فرأت هى انه لابد لها ان تتظاهر بأنها لم تفهم شيئا حتى تترك له خط الرجعة من طريق لم تكن تحب ان يسلكها بهذه الصورة ولا تريد أن يسير فيها أكثر مما سار فقالت :

ـ انك تواجد بالطبع صحابا واصدقاء على ظهر السفينة .

فأجاب بسخرية مرددا كلمتها :

ـ أصدقاء ! لست بحاجة الى اصدقاء ولا الى مال ولا الى سلطان . فان لى من ذلك كله الشىء الكثير ، ولكن حاجتى هى الى انسان يشاركنى فيها ، ويقاسمنى كل ما أملكه .

ولم يكتف بهذا التلميح بل استطرد قبل ان تقاطعه قال :

ـ اجمعت النية على تضييع حياتك الغالية في هذه الناحية الموحشة من هذه البلاد الهمجية في حين أننى

استطيع أن أفتح امامك اقطار الارض جميعا واجعلك درة بلاط كبير يامرقريت !!

فتراجعت قليلا ، وكان الغضب من نفسها أكثر واشد من غضبها لقوله لأنها أدركت انها قد عجزت من مطالبة ارادتها فتركته يسترسل في حديثه .

كان الغرض الذى تحدث عنه ينطوى على شيء من محاولة الاغراء ، وقد يكون هذا هو الذى اقتحم عليها فؤادها .

على ان تأثير هذا الاغراء في نفسها لم يلبث أكثر من لحظة قصيرة خفق فيها قلبها خفقانا سريعا متواليا . فلما تكلمت كانت هادئة ساكنة متملكة نفسها .

لقد أجابته برفق قائلة :

— لست أريد يادون بدرو ان اتظاهر بأنني لم ادرك معنى كلامك . وأنى اشكر لك هذا الشرف الذى تعرضه على ، واعتقد أنه يا صديقى لن يكون .. !

فصاح بها قائلا : لماذا لا ؟

وامتدت ذراعه اليمنى كأنه يريد أن يطوقها بهما ، وعاد يقول :

— اية قوة في العالم تحول دونه ؟.

— ليست هناك قوة تجبر عليه !..

ونهضت ونظرت اليه بعينيها الصريحتين الطاهرتين الصادقتين وجها لوجه .. وراحت تضرب امله الضربة القاضية بقولها :

— لانى لا احبك يا دون بدرو !.

ورأته يتراجع كأنما قد ضربته فعلا ، وكاد يتولى معرضا . ولكنه بسرعة التفت ليهاجمها مرة أخرى . قال:

— ولكن الحب سيأتى حتما يامرقريتى العزيزة .. وكيف لا يأتى الحب وانا العريف كيف أوقظه .. ولن اعجز والله عن ايقاظه .. لان الحب يولد الحب .. وان حبا كهذا الذى اسكبه في قلبك نقيا طاهرا ينبغى للحب عندك ان يستجيب .

والتمعت عيناه البراقتان بوهج الحنين وشدة التأثر وعاد يقول :

— أواه ! . اتعرفين يا بنية .. ثقى بى .. اننى أعرفك التى من الذكاء والعقل بحيث لا يخفى عنى ..

فقاطعته برفق قائلة :

ولكنى اراك لست من الذكاء بحيث تفطن الى ان هذه الجرأة منك تؤلمنى .

وابتسمت تلك الابتسامة الصريحة الواضحة المألوفة منها . ومدت يدها اليه وراحت تقول :

— لكن صديقين يا دون بدرو كما كنا منذ ذلك اليوم الذى اتخذتك فيه أسيرا .

وبرفق وتراخ .. ولكن باضطراد واستسلام .. تناول يدها بينما كانت انامل يدها اليسرى تمس اللآلىء المتدلية على صدرها وقالت :

— وسأحتفظ بهذه اللآلىء .. لا لقيمتها بل للذكرى هذه الصداقة الطيبة فلا تحاول بعد هذا أن تفسدها !.

فتنهد وهو ينحنى فوق تلك اليد الممتدة اليه فيقبلها وهو في منتهى الخشوع .

لقد انهزم امامها هزيمة ساحقة .. وادرك انه لاينبغى ان يتقدم بعد الذى جرى خطوة اخرى .

الفصل الحادى عشر
الرحيل

ولم يكن الدون بدرو من أولئك الذين ينهزمون بسهولة .. أو من أولئك الذين يتحملون خيبة فى أمر يطلبونه .. فان ثروته الطائلة ذللت له كل شىء .. فلم يعد عنده امر مستحيل .. حتى لقد ظن كل تمنع مدعاة لزيادة الشوق .. ومقدمة حلوة لاثارة الرغبة والحنين .

وقد قضى ليلته تلك متألما .. يقسم جهد ايمانه انه سوف لا يذعن لهذا الرفض .. ولن يسمح لها بأن تصر عليه .

- على انه فى اليوم التالى .. وهو اليوم الاخير له فى قصر تريفاليان لم يظهر شيئا من هذا التألم النفسى . وان كانت العين النافذة تستطيع أن تكشف آثاره فى وجهه .. على انه كان فى الوقت نفسه يبتسم ابتساماته اللطيفة .. ويبدو كعادته ساكنا مؤدبا رقيق الحاشية .

وقد انخدعت مرغريت بهذه المظاهر حتى اعتقدت ان قلبه لم يكن يحس بقدر ما كانت كلماته تعنى . وانه ربما كان فى ذلك الحديث متأثرا بدافع تفاؤل عارض لم يلبث ان تلاشى . فهدأ بالها من هذه الناحية وكانت قد احست نحوه بميل لم تشعر بمثله من قبل الا لواحد فقط وكانت بلا ريب ستتألم لو ظلت على اعتقادها بأنها آلمته برفضهـــا وسببت له حزنا .

وقد عرضت اللآلىء على أبيها وقالت له ان الدون بدرو قد دفع بذلك الفدية المطلوبة وأصبح يطالب بحق اطلاق سراحه وانه مسافر فى مساء ذلك اليوم بالذات . فلم يزد الشيخ على أن قال بغير اكتراث :

- حسن الغاية ! ولا بأس ..!

وخطر لمرغريت ان ترسل الى جوفاس برقية تخبره فيها بأن الدون بدرو مسافر فى ذلك المساء وتطلب اليه ان يحضر ويتلقى الصفح عنه من يدها ، الا تبين لها ان الغيرة من الدون بدرو هى التى حملته على الغياب وانه كان صادق الشعور من هذه الناحية بعد الذى ظهر من الاسباب لـ ذلك الحديث معها .

وجعلت فى ذلك اليوم تتلطف للدون بدرو وتظهر له الكرم والادب

وبعد الفراغ من العشاء استعد الدون بدرو للرحيل وذهب مارتن الخادم فاحضر للدون بدرو أسلحته وقبعته ورداءه وسارت مرغريت معه الى البهو ثم نزلت من السلم فاخترقت الحديقة دون ان تنبس بكلمة واحدة وكان يصح أن يتبادلا عبارات الوداع عند باب القصر ولكن كأنما كان يجتذبها الى السير معه بقوة ارادته فانطلقت معه شوطا آخر .. ثم وقفت وقد صممت على توديعه عند ذلك الموضع فمدت اليه يدها قائلة : لنودعك هنا الآن !

فوقف هو كذلك وواجهها فرأت الألم الذى يخطف بريقه عينيه الحزينتين ، وسمعته يغمغم قائلا :

- لم يحن بعد ! .. أتوسل اليك أن لا تحرميني من هذه الدقائق القليلة . الا ترين انى قد استطعت بمعجزة ان أتغلب على شعورى وأسحق عاطفتى ، وكل ما اسأله الآن هو أن تسيرى معى خطوات اخرى ، الى ذلك الموضع المبارك الذى فرحت هناك فيه بلقائك ، وحيث رأيتك لأول مرة ، دعينى أراك عنده لآخر مرة . فأودعك الوداع الأخير .. امنحينى هذا يا مرغريت !!

ولم تكن مرغريت حجرا صلدا حتى تقاوم او ترفض هذه التوسلات الحزينة الأليمة ، فمشت بجانبه فى صمت

لا يتبادلان كلاما حتى أتيا أخيرا على ذلك الموضع الذى تلاقيا فيه .

قالت : لقد كانا هنا . فقد كنت واقفا فوق تلك الصخرة البيضاء حين وثب عليك بروتس !

فوقف يتأملها ، ثم ما لبث أن زفر زفرة حارة وقال :
— لقد كانت قسوة منك بالغة أن منعتنى من ذلك وتهرته ..

وتمهل وهو لا يزال يتأملها كأنما يحاول أن يطبع كل دقيقة من دقائق وجهها فى صفحة خاطرة قبل الرحيل .

واسترسل : يا لك من بخيلة ! ألا تبغين المسير خطوة أخرى .

فثار قلبها الكريم من ضراعته . وأجابت رغبته

فغمغم شاكرا وراحا يهبطان الصخور المرتفعة حذاء مجرى النهر . وقد طرقت آذانهما حركة السفينة أو الزورق الراسى عند الشاطىء

وخرجا أخيرا من ظلال الشجر الى حافة الرمال وهى تبرق فى تلك اللحظة من منعكس ضياء المساء عليها ... حتى أتيا على زورق فى نهاية مجرى النهر قد وقف حوله جماعة من الناس تبدو أشباحهم فى الظلام

وما أن لمحهم الدون بدرو حتى رفع صوته وتكلم بشىء من الأسبانية فأسرع اثنان منهم اليهم

ومدت مرغريت يدها اليه للمرة الثالثة وقالت فى عزم :
— والآن وداعا ! أرجو لك ريحا رخاء فى سفرك .

فقال بحزن : أواه .. أناشدك الله أن تمكثى لحظة أخرى .. لحظة واحدة فقط !

وتناول يدها فى قبضته وعاد يقول :
— أن هناك شيئا آخر أريد أن أقوله شيئا يجب ان

أقوله قبل أن أذهب .

قالت : قله الآن وأسرع . فإن رجالك وقوف ينتظرون !

قال : لا شأن لهم . لأنهم خدمى .. مرغريت !

وخيل اليها أنه كاد يختنق . كما بدا لها أن وجهه استحال شاحبا شحوبا متناهيا .. وأنه كان يرتجف .. فتولاها خوف غريب فى تلك اللحظة .. فراحت تنتزع يدها من يده وهى تقول :

وداعا !

وهمت بأن تنصرف

ولكنه وثب فى أثرها وانقض عليها يطوقها بذراعيه ويدنيها من صدره وقد استحالت عاجزة متلاشية القوى كأنها وقعت فى فخ من فولاذ .. وانثنى يقول فى شبه نحيب :

— كلا ! كلا ! اصفحى عنى يامرغريت !

قالت غاضبة : يادون بدرو !

وجعلت تلتمس الفكاك من ذراعيه ولكنه شدد الامساك بها ولم تكن فى حياتها النقية الطاهرة قد تعرضت يوما لهذه المعاملة المهينة للعزة والكرامة . فجعلت تصيح به أمرة وعيناها من الشرر تكادان تحرقانه :

— دعنى .. « اذا كنت رجلا مهذبا يا دون بدرو فحسبك هذا . انه عمل لا يليق .. انه سفالة . بل نذالة لا حد لها !

قال وهو يضحك فى سخرية عالجة :

— رجل مهذب ! وما لنا الآن والمهذب أو غير المهذب ! نحن هنا رجل وامرأة . وانا احبك !

وعند ذلك أدركت سفالة غرضه ، وتكشفت لها نذالته ودناءة نفسه التى لا تعرف ضميرا ولا تبالى صوت كرامة ، فأرسلت صيحة من أعماقها تردد دويها فى الفضاء وعاد اليها

الصدى قارشا مخيفا رهيبا .. ولكنها مع ذلك احسـت ا
جوابا على صيحتها قد تردد في مكان سحيق وعرفت الصو
فارتجفت لمجرد خياله اشد الارتجاف .. فـنادت تنادي
باسمه :

— جرفاس . جرفاس !

واحست قبضة الاسباني قد تراخت عنها .. وانهـ
قد فكت من امســاكه .. ولـكنها قبل ان تحاول تحر
شعرت برداء قد القى عليها من فوق رأسـها فغمر بدانها
جميعا وامسك فمها وسد شفتيها .. واذا هي تحمل حملا
باذرع قوية وهي تعدو بها سريعا .. وفي اثرها جاء الدو
بدرو يجري وهو يصيح برجاله :

— هيا .. اسرعوا .. اسرعوا !

وقد وصلوا الى الزورق في اللحظة التي جاء جرفاس
فيها يعدو خلال الشجر يريد الشاطيء .. فما كان من احد
الاسبان الا ان سـدد فوهة بندقيته نحوه ليقتله غير ان
الدون بدرو ركل البندقية بقدمه فالقاها في اليم صائحا به

— ايها الاحمق ! من قال لك ان تفعل هـذا ! عيـ
انطلق ... والبدار الى السير !

وكان الزورق قد ابتعد بهم في اللحظة التي وصل فيها
جرفاس الى الشاطيء فاقرا مترقبا ، ولم يحفل بالماء ومشى
في اليم بقدميه لا يلوي على شيء .

واطلق صوته يصيح في غضب ممتزج بكمد :

— يا دون بدرو .. ايها الكلب الاسباني !

ولـكن القـارب مضى في طريقه وظل جرفاس يخوض
المـاء في اثره حتى بلغ الماء كتفيه . توقف يصخب ويلعن
ويلوح بقبضته في الهواء ويهزها هزا وهو يصيح ويتوعد

ووقف الدون بدرو يسمع هذا الصـوت المحتدم الذي
حملت الرياح ابرائه الى مسمعه ، ثم راح ينظر الى ذلك الرجل

الذي كاد يطلق النار على جرفاس فاهاب به قائلا

— لقد كنت مخطئا اذ منعتك من قتـله . فلو قتلناه
لكنا به رحماء .. !

الفصل الثاني عشر

الوزير

كان اللورد جارز مكبا على مكتبه ومجلداته على ضياء
الشموع التي اوقدها الخادم له على المنضدة . وانه لكذلك
في باملائه وسكونه اذ ارتفع امامه فجاة شبح موحش يقطر
الماء من ثوبه

وكان ذلك القادم عليه بتلك الصورة هو سير جرفاس!
فبهت الشيخ وذهل لمشهده هذا ، ولكن جرفاس لم
يتركه ليتكلم وانما بادره بقوله بصـوت قاصف كالرعد :
انهض يا سيدي اللورد . هيا اسرع يا سـيدي ولا تضيع
الوقت سدى !

وراح ينتزع الكتب الملقاة امام الشيخ ويكتسحها بيده
اكتساحا

فلم يزد الشيخ على ان جعل يتأمله في صمت وذهول
لا يوصف

واخيرا نظر اليه قائلا : ما هذا ؟! هل جننت ؟!
فاجابه جرفاس في شبه انتحابة : اتسـالني هل
جننت ؟ أي والله لقد طار لبي . وذهب صوابي
وانشا يقص عليه ما جرى قائلا :

— لقد ذهبت ابنتك . اختطفها ذلك الاسباني النذل
الضال .

وجلس اللورد بعد أن سـمع التفاصـيل جامدا وقد

حطمه الحزن وبلغ الالم من نفسه كل مبلغ
واستطرد جرفاس :
– لقد حطمها ذلك النذل ومضى بها كما يحمل الصقر
إصلمة بين اظلافه ومخالبه !
فاعتمد الشيخ بمرفقيه الى المائدة وتناول راسه بين
يديه واحد يئن انين العاجز وقد حطمه النبأ وذهب بآخر
قوته حتى غدا مشهده مؤلما يفت قلب الجماد ، ولكنه
مع ذلك لم يثر شيئا من الشفقة في نفس جرفاس ، اذ وقف
لحظة يتأمله وهو هكذا في عجزه وبأسه وانينه ، ثم صاح به
قائلا وهو يدور على عقبيه لينصرف : والآن طاب ابلك !
ولكنه ما كاد يخطو خطوة نحو البـــاب حتى ســـمع
الشيخ يناديه :
– جرفاس ! !
فوقف على تلك الصيحة المؤثرة وادرك اخيرا ان حاله هو
والشيخ سواء في المصاب والكارثة والالم الممض .
وما لبث ان رأى الشيخ قد وقف متمالكا نفسه مستوى
القامة بعد تلك الانحناءة التى احدودب لها ظهره من طول
مجلسه الى المكتب وكأنما افاقت حواسه من اثر الصدمة
التى انتابته ، وعاودته ارادته فاعتزم أن يفعل شيئا ازاء هذا
المصاب الذى حل به ؛ ولم يلبث رجل الفكر ان استحال
فيه الى رجل العمل !
قال : الى اين أنت ذاهب ؟
فأجاب الفتى في حماســـة رهيبة : في اثرها .. الى
اسبانيا !
قال مبهوتا : الى اسبانيا ! ولكن مهلا يا بنى . وانتظر
ودع التفكير يسبق العمل . فما تم شيء بلا فكر ، ولا تحقق
امر بلا روية وتبصرة . وحذار أن تفسد علينا كل شيء
بالعجلة والتهور !

ومشى مبتعدا عن المائدة وهو يضم اليه شقى رداله
وقد اطرق ودنا من النـــافذة حيث وقف لحظة يطل على
الحديقة واشباح الشجر والدوح الباسق وقد لاح القمر من
خلال اغصانها المتشعبة ورأى جرفاس هذا المشهد فوقفه
مغلوبا على امره
وتنهد اللورد وعاد يقول : الى اسبانيا ! اهذا ما قلت ؟
ولكن كلا يا ولدى ! ما هذا يفعل ذو اللب . ولـكن لنذهب
اولا الى الملكة فلعل جلالتها لا تزال تذكرنى وقد تنفع الذكرى؛
فضلا عن انها امرأة ، بكل معنى الكلمة ، فهى لا تتأخر عن
تقديم يد المعونة من اجل امرأة فى اشد الحاجة الى العون
والنصير ، سأذهب معك يا جرفاس ، ناد لى مارتن ، وليعدوا
الخيل والسواس ، وليعدنا فرنسيس بما تيسر من المال ،
لنقوم مع مطلع الضياء
ولكن جرفاس هز راسه واجاب قائلا :
– لا استطيع يا سيدى اللورد الانتظار الى الصبح فان
كل ساعة الآن غالية . ولقد كان فى خاطرى اللحظة الاتجاه
الى الملكة وكنت افكر فى ان اقصد الى دريك او هوكنز لكى
يلتمس لى الاذن عليها . فاذا كان لابد من مجيئك ياسيدى
فاتبعنى لأن مجيئك معى يؤخرنى .
فتولى الشيخ الغضب ولكنه رأى الحق واضحا فزفر
زفرة اسف وحزن وقال :
– اواه ! اننى شيخ كبير ضعيف وهن العظم منى ،
فلا انفعك فى سفرك بل فى الواقع اؤخرك . ولكن لعل اسمى
لا يزال له خطره والره عند الملكة اكثر من مركز دريك او
سواه عندها فسأكتب اليها رسالة ، واكبر املى أن لا تحرم
حاملها من حظوة لقائها . وهذه هى الفرصة التى امامك .
ومشى بنشاط الى المنضدة وجلس يكتب
ووقف جرفاس فى قلق فاقد الصبر منتظرا أن ينتهى

الورد من كتابته .
وأخيراً أتم الكتاب ووضعه في غلاف وختمه ثم دفع به
الى جرفاس ثم تهالك على كرسيه ضعيفاً واهناً وهو يقول :
ـ حقاً قلت يا ولدى . فانني لا أستطيع السفر معك .
ولكن الانتظار هنا مضنٍ . ورباه ! ان نصيبي من هذا المصاب
يا جرفاس أقسى من نصيبك وأشد إيلاماً ؟
وتأثر جرفاس فألقى ذراعه على كتفه قائلاً :
ـ اذا وثقت بي خفف هذا من ألمك . فلتطمئن الآن الى
انني لن أتنحى عن المستحيل اذا ما اضطرني الأمر اليه .
وستسمع منى أخباراً بإذن الله اذا وصلت الى لندن
وانطلق لا يلوى على شيء ، ولم تمض لحظة حتى سمع
الشيخ وهو في مجلسه حزناً كئيباً محطماً وقع حوافر
الخيل عاديات

وترك جرفاس جواده يطوى الأرض . وفي أورنباك لم
يجد السير جون ولكنه مع ذلك وجد صديقاً له ممن أحرزوا
المجد معه في معارك البحر وهو تريسليان . فاتفقا على أن
يسافرا الى اسبانيا بمجرد الاستعداد وأن سفينته في امكانها
أن تستعد للابحار في تلك الليلة بالذات . ولكن صديقه رأى
أن يتجها أولاً الى لندن . التماساً لمساعدة سيرجون هوكنز
وكان هذا صاحب حظوة عند الملكة ونفوذ في البلاد
ولم يأت مساء ذلك اليوم نفسه حتى كان السيرجون
يدخل بهما غرفة السير فرنسيس ولسنجهام في هوايتهول
ولم يحفل الوزير بأن ينهض لتحيتهما عند الدخول
بعد أن استأذن السيرجون لهما في المثول في حضرته
وانسحب السيرجون تاركاً الشابين معه .
فبادرهما هذا بقوله :
ان هذه القصة التي قصها على سيرجون مزعجة
قال ذلك ولم يكن في نبرات صوته ما يدل مطلقاً على

من الانزعاج ولا في نظراته الهادئة وهو ينظر اليهما
صا . وأشار بيده لهما أن يجلسا أمامه .. فأحنى
اوليفر تريسليان رأسه شاكراً بينما ظل سير جرفاس
وهو يلوح قلقاً شاحباً مضطرباً .. وحين بدأ يتكلم
صوته وريشت نبراته .
قال : أرجو يا سيدى الوزير أن يتاح لى شرف عرض
الأمر على أسماع جلالة الملكة
فمشط سير فرنسيس لحيته بكفه .. وابتسم
ابتسامة خاطفة ساخرة وأجاب قائلاً : ستحاط جلالتها علماً
دون شك
ولكن هذا لم يكن الغرض الذي يرجوه جرفاس ..
بين الرجاء وبين السؤال : الا تطلب لى اذنا على
تها يا سيدى ؟
نظر الوزير اليه متسائلاً : ما الفائدة من ذلك
سيدى اذا كان كل شيء سيبلغ لمسامع جلالتها
وسوف تأمرني جلالتها عقب سماعها بالموضوع باتخاذ
شيء من الاجراءات في شأنه . ولهذا يجب أن تمتثل
ذاتها السنية بأن تكفيها مؤونة المقابلات غير الضرورية التي
هذا القبيل
فتململ تريسليان في مجلسه وتحفز . ثم قال
صوت غاضب :
ـ ليس لأى رجل كالسير جرفاس مما يصح أن تكفى
الملكة مؤونة سماعه أو ترضى عن محاولة انسان منعه من
جلالتها
ولكن الوزير لم يتأثر لهذه اللهجة ولم يتزعزع .. والتفت
بكل هدوء وهو ينظر اليه نظرته الساخرة :
ـ أظنك لم تفهم يا سيدى ما أعنى . ان شخص الملكة
وحده هو ما يجب على أنا كما يجب على الجميع أن أحفظه من

مثل هذه المقابلات . انا ســلطتها وانا نفوذها قـــ
يستخدمان كما ينبغى تماما . ومن واجبى ان افعل ذلك
فانثنى جرفاس يقول : وماذا تعنى يا سير فرنـ
بهذا صراحة ؟

فجلس الوزير مستندا الى ظهر مقعـــده يتأمل
اخرى هذين الشابين المتحمســين الخياليين اللذين يتوهـ
انهما قادران على مقاومة ارادة وزير من وزراء الدولة
وأخيرا قال : معنى هذا اننى ساقدم احتجاجا شد
السفير الفرنسى غدا

فاندهش جرفاس وراح يقول : الســفير الفرنـ
وما شأن هذا بموضوعنا ؟

فابتسم سير فرنسيس بسخرية ظاهرة فى هــذه ا
واجاب بقوله :

ـ لــما كانت علاقاتنا مع اســبانيا فى الوقت الحا
مقطوعة كان من الضرورى توسط سفير فرنسا وهذا يمـ
الاعتماد عليه

فلم يطق جرفاس صـبرا على هــذه الاعتراضا
المستمرة . فصاح فى غضب قائلا : ولكن بالله ماذا يحد
للادى مرابريث بينما تحتج انت لدى سفير فرنســا وبخا
هو الملك فيليب ؟!

فجعل الوزير يقلب يديه اسفا على أن لا حيلة عن حـ
لديه وقال :

ـ لتكن عقليين اولا . لقد مضت على هذه السـ
بحسب اقوالكما ثلاثة ايام وهى فى البحر فى قبضة مختطفيها
وهذا يكفى ليتبين لنا أن الامر لم يعد يقتضى العجلة التى
تريدانها فلا فائدة من التحمس فى موضوعنا هذا الذى بـ
ايدينا

فنهض تريسليان من مجلسه متهيجا وهو يقول :

ـ ليست من رأيك يا سيدى الوزير . على أن المسألة
تعنى عناية الانسانيين .. لا عناية السياسيين .. فنحن
واقفين الساعة امامك رجلان ضـــحيا بحياتهما وما ملكت
ـــانهما فى خدمة الملكة . . وكل ما نسأله الآن مقابل
ـحياتنا هو ان يسمح لنا بمقابلة جلالتها . ؟
فقال الوزير : على رسلك .. على رسلك .. ليس هذا
بعده هو الذى تسألان .. الكما تسألانه لكى تطلبا بعـده
ـئا آخر .
فصرخ تريسليان قائلا : وهذا من حقنا . !
واردف جرفاس : ونحن نقتضيه .. ولن تنكره جلالتها
ـلينا .
فنظر اليهما سير فرنسيس بنفس النظرة الهادئة التى
ـظر بها اليهما فى البداية . لم ينهض من مجلسه قائلا :
ـ سادخل بكما على جلالة الملكة حالا ، وجلالتها تنتظر
ـانى الساعة
ومشى الى الباب وهو يقول : هلما بنا . !

الفصل الثالث عشر
الملكة

وسار بهما ســير فرنسيس ولسنجهام مخترقا بهما
ـرقا وردهات كثيرة حتى بلغوا بابا قد وقف عليه حارسان
ـاكيى السلاح .. فدخلا منه الى حجرة فخمة الرياش
ـث انتصروا رجالا من الحاشية جالســين على الارائك فى
ـلابسهم الرسمية .
وفى الحال تقدم احد الامناء يحمل عصا خاصة فى يده
ـحو سير فرنسيس .. فتبادلا كلاما قصيرا .. ثم انحنى
الامين ومشى الى باب صغير يقوم على جانبيه حارسان آخران
.. فدخل ولم يغب اكثر من لحظة .. ثم عاد يعلن ان جلالة

الملكة ستقابل سير فرنسيس ورفيقيه بعد لحظة .

ودخل الصديقان في أثر الوزير .. فتقدم هذا [...]
وبيده اليسرى أشار اليهما أن يجثوا مثله .

وكانت الملكة مرتدية في ذلك اليوم ثوبا ورديا .. [...]
لونه الى القرنفل .. وهي مزدانة بجواهرهـــا و[...]
اللؤلؤية كما رآها جرفاس أول مرة .

ولبثت الملكة تنظر اليهما ولا تتكلم .. ولعلها [...]
أنهما شابان أغيدان وسيمان .. وكانت معروفة بالميل [...]
الشبان الملاح المقسمي الوجوه .. حتى لقد كانت تخت[...]
لحرسها الخاص جنودا من حسان الملامح وجميلي الطلعات

وأخيرا تحولت الى الوزير فبادرته قائلة :

— لماذا أحضرتهما ؟

فأنشـــأ الســـير فرنسيس يذكر لجلالتها بهما و[...]
ما فعلاه في حرب الأرمادا حتى ظفرا بالحظوة لديها فأنعم[...]
عليهما بلقب « سير » تقديرا وإعجابا . وختم كلامه بقوله

— وقد جاءا يا مولاتي يسألان صنيعا صغيرا كجز[...]
عن الخدمة التي أدياها للوطن وكتشجيع لهما على خـــد[...]
في مستقبل الأيام !

قالت مرددة كلمته : يسألان صنيعا ؟

وخطف بريق الخوف في عينيها ثم قالت :

— هذا ما كنت أخشاه . فاذا كان هذا الذي يسألا[...]
مالا أو شيئا غاليا ذا كلفة فليمسكا عليهما كلامهما فقد كا[...]
الحرب الاسبانية تردنا متسولين

وعند ذلك تقدم سير جرفاس متنحنحا جريئا فقال

— لسنا نسأل مالا يا صاحبة الجلالة

فبدا عليها الارتياح والاطمئنان .. ومدت يدها الى [...]
سلة من الفضة بجانبها فتناولت بعض الحلوى . وقالت

— وما هو اذن ؟ تكلم يا فتى !

قال : لقد جئنا يا مولاتي نطلب عدالة ونستعدي على [...]
مارج

فنظرت اليه بريبة حادة لحالية وانثنت تقول : آه .. [...]
عدالة ! أعرف هذه الكلمة جيدا ! انها على شفة كل طالب
[...] .. وطامع في منصب أو ولاية . ايه . ايه يا فتى ! قص
[...] ما وراءك !

وألقت قطعة الحلوى في فمها فغابت بين شـــفتيها
[...]حمراوين

قال : أولا يا مولاتي انني حامل الى جلالتك كتابا !

وتقدم فجثا مرة أخرى وقدم الكتاب اليها قائلا :

— هل تتفضلين يا مولاتي بقبوله ؟

فعبست واستجهمت وتحفزت وقالت :

— ما هذا الكتاب ؟ انك لم تقل لي شيئا عنه !

فقالت الملكة : لا بأس من هذا مطلقا .

وتناولت الكتاب ففحصت أختامه

ثم قطبت حاجبيها عابسة وهي تقول :

— ممن هذا الكتاب أيها السيد ؟

أجابها : من مولاي اللورد جارلز يا صاحبة الجلالة

قالت مرددة الاسم : جارلز ! جارلز !

وكأنما تعالج ذاكرتها وما لبثت أن صاحت فجأة :

— آه . انه بلا شك روجر جارلز تريفانيان !

وأمسكت أنفاسها المتصاعدة ونظرت اليه قائلة :

— ومن يكون لك روجر يا فتى ؟

قال : صديقي يا مولاتي . وأنا صديقه وأحب ابنته !

قالت : آه ! ابنته . أكذا ؟ اذن له بنت ؟ أحسبك قد
أحسنت الاختيار اذا كانت البنت تشبه أباها فقد كان
وسيما جميلا في شبابه . أفقد تزوج ؟ لم أسمع بهذا قبل
الآن . يا عجبا !.

وتنهدت وظلت ساهمة لحظة .. ثم كأنما تنبهت
لتكيرها الى الموقف ففتحت الكتاب ونشرته بين يديها وجـ
لتجهد فى قراءته وهى تقول :
ـ هذا خط ردىء للغاية والله !
قال : لقد كتب فى لحظة اضـــطراب شديد وحر
يا مولاتى
قالت : لابد أن يكون كذلك ؟ الريقانيان الآن فى محنة
وقد ذكرته المحنة بى أخيرا لقد كان يجدر به أن يتذكر
هذا . كان خليقا به أن يتذكر الدين الذى على له كل هـ
السنين ؟! نعم كم سنة الآن ليت شعرى ؟!
وتنهدت مرة أخرى ولبثت لحظة تفكر
وبدا لجرقاس أن عينيها قد نديتا واختلجتا من شد
التأثر كأنما قد عادت بها الذاكرة الى الماضى البعيد .. الى
ســبيور الذى أحبها وأخلص اليها ولقى الموت فى سبيل
حبه وولائه
وأخيرا انتهت من ذكرياتها فالتفتت الى جرقاس قائلة
ـ لم يذكر لى دوجر شيئا فى كتابه أكثر من أن طلب
منى مساعدتكما فى محنة ألمة عرضت . فما هى تلك المحنة
فأنشأ جرقاس يقص بإيجاز وبلاغة وحــرارة والتـ
بالغ :
وحاول الوزير أن يقاطعه قائلا :
لقد كان هذا تصرفا سيئا . ويجب أن نتخذ التداب
لكى ..
فأسكتته الملكة صائحة به : أمسك عليك لســانك
يا رجل !
فسكت ولم يعتــرض مرة أخرى . ولم يكد ينتهى
جرقاس من القصة حتى صاحت جلالتها فى غضب :
ـ يمين الرحمن . لقد بلغت الجراة بهؤلاء الاســبان

دا حتـــاهيا . افلا ينبغى أن نوقفهم عند حده الفحة
جرينة ؟ أفيجرىء اسبانى منهم على النزول الى أرضـنا
سفينة مغرقة لم يرتكب هذا الجرم الشنيع ؟ يمين الله
سلمن بعـد حين مدى دفاع امرأة فى الدفاع عن امرأة
ثلها .. تالله لاعلمنهم هذا ولاقفين عليهم درســا اليما .
ولنستجهم ادع لى .. ولكن كلا . انتظر !
واجتازت القاعة الى ركن أخرجت منه صندوقا صغيرا
من الفضة ، فأخذت منه مقدارا بسيطا ، لكى تهضم الحلوى
التى ضايقتها ، وراحت تنقر بأصندوق الصغير على زجاج
النافذة
لقد أثرت القصة فى نفسها أكثر مما كان جرقاس يتوقع
ولا شك فى أن عاملا اضافيا آخر هو الذى حرك شعورها
بجانب القصة فى ذاتها ، وهو أن الفتاة المعتدى عليها هى ابنة
روجر ريقانيان . ولن اسم روجر كان كافيا لايقاظ ذكرياتها
القديمة ، ذكريات حبها الماضى ، والغرام الذى وقع لها فى
شبابها ، بقدر ما أن فيها أن الراوى فتى مليح معتدل القد
جميل المحيا ، وانه عاشق كذلك !
وأخيرا تركت النافذة بحركة تدل على القلق والانفعال
وصاحت بجرقاس قائلة :
ـ اقترب قليلا يا فتى !
فأسرع اليها ووقف باحترام قبالتها
قالت : أخـــبرنى يا فتى ماذا تطلب منى بالضبط أن
أفعل وما هى العدالة التى تنشدها !
وسمع الوزير هذا القول منهـا ، ورأى بوادر اللبؤة
الكامنة فيها قد ظهرت واستيقظت ، فخشى العاقبة ، وزاده
جواب الشاب تخوفا وخشية ، اذ سمعه يجيب الملكة قائلا :
ـ اننى معتزم يا صاحبة الجلالة أن أسافر حالا الى
اسبانيا لكى أتعقب الدون بدرو دى مندوسا

فصاحت به قائلة : يمين الله ان هذه الهـــزيمة
لجرينة . ولكن ما دمت تريد ان تتولى الامر هكذا بنفـ
فماذا بقى لى أنا ان أعمله ؟
وكان صوتها ينم عن شىء من التهكم ، وهو ما يتناسب
مع تلك الفكرة الجنونية التى سمعت بها
فاجابها جرفاس بقوله : لقد كان أملى يا مولاتى
تتولى جلالتك حمايتى فى هذه السفرة وضمان عودتى منها
سالما ، ويعـــلم الله اننى لا اقول ذلك خوفا على نفـ
ولكن . . .
فقاطعته قائلة : ولكن كيف احميك انا ؟ ! ان حمـ
لك فى أرض الملك فيليب ، وفى هذه الظروف . . .
وراحت تلعن وتصخب
ولما كفت عن اللعن والسخط وساد السكون لحظة . . .
الوزير ان يتدخل ، فقال :
— لقد كنت قبل مجيئنا يامولاتى اقول لسير جرفـ
ان جلالتك سوف تعهدين الى باتخاذ الاجراء المناسب فى
الشأن ، كأن تبلغ الملك فيليب عن طريق سفير فرنسا مثلا
فصاحت الملكة قائلة : وماذا كان جواب الفتى ؟
فعاجلها جرفاس قائلا :
— اسمحى لى يامولاتى بكل احترام ان اقول ان الام
مستعجل للغاية
قالت : هو كذلك يابنى ! ولو ان لسير فرانسـ
فتاة وقعت فى ايدى الاسبان لكان اقل فتورا وارودا مـ
ازى . .
ثم طوت عنه كشحا معرضة والتفتت تنقر على الزجاج
وهى تقول :
— يجب ان نجد طريقة . . فهيا يافتى فكر معنا واجهـ

ذكاؤك . . ولست احفل مطلقا ان كان مانقترحه تهورا أو
جرأة بالغة . .
ولم يكن جرفاس قد فكر فى خطة معينة . . فسكت
لحظة وعقله حائر ولكن سير اوليفر تريسيليان ابرق فى تلك
اللحظة يقول :
— هل تأذنين لى يامولاتى فى الكلام ؟
وتقدم خطوة نحوها فاستدعى اليه الانظار .
فهبت فيه صائحة :
— قل مابدا لك وعجل به ؟ .
قال : ألست يامولاتى لاتذكرين ان الشرف الذى حبوتنى
به كان جزاء لى على استيلائى على سفينة القائد فى اسطول
الاندلس ، وهى السفينة الوحيدة التى امكننا ايقاعها فى
ايدينا . . وقد اسرنا قائدها ، الدون بدرو فالديز . . وهو
المشهور بانه اقوى وابرع قواد الاساطيل الاسبانية فى
البحار . . كما اسرنا معه سبعة أشخاص من اكبر البيوتات
فى اسبانيا . وهؤلاء جميعا فى الوقت الحاضر تحت يـد
جلالتك سجناء فى البرج .
قال هذا ولم يزد . . ولكن لهجته كانت رهيبة مفعمة
بالايحاء والتنبيه . . وقد أزعجت الوزير اشد الازعـــاج
فصاح به قائلا :
— بالله ماهذا الذى تقصده ؟ .
ولم يجب تريسيليان . . لان الملكة كانت الى الجواب
اسبق . . اذ استضحكت ساخرة من الوزير عابثـــة به .
والتفتت تقول :
— اليس مايقصده واضحا . ؟ ولكن دعنا منـــك انت
ياصاحب الفكر المتراضع . . ! يا ذاكرة قريبى هذا المقعد من
المنضدة لكى اكتب . . الله ليعلمن ملك اسبانيا مدى ذراعى .

فتقدمت الوصيفة دالكرز فقربت المقعد من المنضدة .. فمشت الملكة اليه فجلست وهي تقول :

ـ على بقلم .. وانت ياولسنجهام اذكر لى اسماء السبعة السجناء فى البرج مع فالنز ..؟

فاصفر وجه الوزير وارتعشت لحيته المستطيلة وقال متلعثما :

ـ هل تنوى مولاتى حقا أن ..

فقاطعته بقولها :

ـ ستعرف ثيثى حالا انت وذلك المغفل الآخر فيليب . ما اسماؤهم قلت لك ..؟

وكان انفعالها شديدا .. فلم يسع ولسنجهام سوى الاذعان . وتلقت هي الاسماء فكتبتها امامها .. واقبلت تكتب الى فيليب الذى كان فى وقت ما يتمنى الزواج بها حتى انتهت بعد لحظة من تحرير الخطاب فطلبت شمعا ختمته .

وحاول السير فرنسيس الاعتراض مرة أخرى .. ولكنها انتهرته ثانية بحدة .

وشعر الوزير باهانته فعمد الى الاحتجاج باسم مجلس البلاط . ! ولكنه لم يكد يتفوه بهذا الاسم حتى التفتت اليه محنقة قائلة انها ليست تحت امر هذا المجلس أو ذاك .. وان هذه الاهانة التى لحقت بسفينة الكليرية من اسبانى هى فى الواقع اهانة موجهة لانكلترا نفسها .. وهذا الكتاب الذى كتبته هو جوابها على هذه الاهانة .. وعلى سير جرفاس أن يسلمه الى المرسل اليه .

فتراجع ولسنجهام مرتبكا .

ودفعت الملكة بالكتاب الى جرفاس قائلة :

ـ ها هو سلاحك أيها الفتى . سر الى اسبانيا ولا تن فى الوصول اليها . فان هذا الكتاب هو بمثابة سيفك .

فاذا ماخاب فى يدك لاقدر الله فتق التى صانتقم لك . اذهب معه ياسير فرنسيس ودعنى أعرف أولا بأول ماذا يأتيك من أخباره . وحذار من أن تكتم أمرا عنى فان حياتك تصبح فى خطر .

فجثا جرفاس وتناول الكتاب

ومدت الملكة يدها اليه فقبلها بخشوع واحترام . واذا بها تمد يدها الاخرى فتمس برفق فروع شعره المرسل الاشقر اللون وهى تقول بصوت قلب متلهف :

ـ انك حقا لفتى بديع ذو قلب عاشق وعاطفة طاهرة . وانى لادعو الله لك أن يرد عليك فتاتك سليمة وأن يعيدك الى وطنك ناجيا

وخرج جرفاس وصاحبه متعثرين من حضرة الملكة

واستأذن سير فرنسيس منهما وهو فى قلق كظيم وتركهما وهو يخشى مما حولاه ويشفق من أن يؤدى يلقى بالعالم فى أتون من النار !

الفصل الرابع عشر

القس توبس

كان الخوف شعورا غريبا عن احساس مرغريت . لانها فى كل حياتها وقد بلغت الخامسة والعشرين لم يحدث لها يوما ما يثيره فى نفسها ولم تنزل المخاوف بساحتها فى يوم من الايام .

فلا عجب اذا لم يفارقها اعتدادها بنفسها لحظة واحدة ، وهى على تلك الصورة المنكرة مكممة ، ملفوفة ، محمولة على غير ارادتها بخشونة وغلظة .

وانما كان الشعور الاول الذى استولى عليها هو الدهشة الخليطة بالاستياء والاشمئزاز ، ولم تحاول المقاومة . لانها

ادركت أنه من العبث محاولة تجربة قواها البدنية في هذه الظروف

ولم تشعر بحركة الزورق وصوت المجاذيف ومواقع اقدام البحارة في نواحيه للاشراف على سيره . فان العصابة التي شدت حول عينيها واذنيها جعلت الاصوات لاتصل الى سمعها الا خفوتا .. وكانت مع هذا تحس ان هنالك شخصا كان يجلس فوق رأسها .. وان ذلك الشخص هو بلا ريب الدون بدرو وان ذراعه كانت محيطة بكتفيها كوقاية اوتحفظ، فلم يزعجها ذلك كما كان بلا ريب مزعجا لها في وقت آخر

ولم يمض نصف ساعة حتى شعرت بأن تلك الذراع المطوقة قد تراخت عن كتفيها وان الايدى قد امتدت الى الحبل الذى استخدم للف العباءة حول بدنها ، واذا بها تجد العصابة مرفوعة عن وجهها .. واذا هي تفتح عينيها على وجه الدون بدرو تسمع بأذنيها صوته وهو يقول :

– هلا غفرت لي يامرغريت هذه الجرأة المخجلة ؟

وكان هذا السؤال منبعثا في نغمة تضرع ورفق واستعطاف فلم تلبث أن وجدت صوتها . بل ادهشها انه لم يزل هادئا قويا لايت التسرك وهي تجيبه قائلة :

– سوف نتكلم في ذلك حين تنزلني الى الشاطىء عند الصخرة القريبة من قصر تريفانيان ؟

فرأته يبتسم ابتسامته الحبيبة الماكرة الكبيرة المليئة بالاعتداد ؟

تلك الابتسامة التي كانت فيما مضى محل اعجابها فاستحالت الآن كريهة شنيعة في نظرها .

وعاد يقول : اذا لم يكن لي امل في الصفح قبل الآن فمن الخير لي ان اقتل نفسي يأسا والما .. هيهات لارجوع يامرغريت ولا مآب فانت معي الى النهاية

فحاولت ان تنهض ولكن ذراعه عادت لتطوقها لتحول دون تحركها والتنى يقول لها راجيا ملحا :

– هدوءا ياعزيزتى ولا تخافي عدوانا مطلقا على كرامتك ذلك واصلة الى المركز الرفيع الذى اعددته لك والسلطان العظيم الذى انت اهله .

قالت : ان هذه الرفعة هي التى تريدها انت لنفسك وهي رفعة المشنقة التى تنتظرك .

لم يحر جوابا وانما تراجع زافرا وصمت متألما حزينا . اذ رأى من الخير أن يتريث حتى يزول مابها . ويخف غضبها ، وهو بلا ريب زائل بمجرد ادراكها أن لافائدة مطلقا من المقاومة .. وهذا الادراك سوف يلاشي عنادها اكثر مما تلاشيه كلماته وعباراته

وظل الزورق يهم سائرا .. فراحت تدير عينيها في جوانبه ، فلم تلبث ان تنبهت الى وجود رجل آخر بجانب الدون بدرو عند الدفة وكان ذلك الرجل ممسكا بالسكان في يده . فاتجهت اليه باحتجاجها . مطالبة في لهجة الامر القترن بالوعيد أن يلف بالزورق ويعود بها من حيث اتى

ولكن ذلك الرجل لم يفهم شيئا مما قالت . بل تكلم بالاسبانية مع الدون بدرو فرد عليه هذا بحدة وانتهار

فلم يسعها الا ان تلتزم كرامتها بالسكوت فصمتت . وارسلت بصرها فيما حولها مرة أخرى . فاذا مصابيح سفينة كبيرة تلوح قريبة والزورق اليها شاخص يمخر العباب في ذلك السكون الرهيب

وما هي الا لحظة حتى حاذى الزورق جانب السفينة من ناحية سلم الصخور ورأت مرغريت في تلك اللحظة فوق السلم شبحا ممسكا بمصباح

وطلب اليها دون تذرر الصعود فرفضت وشعرت

لاول مرة بدبيب الخوف الى قلبها وأخذت تقاوم وتتمنع وتأمر وتهدد بيد أن ذلك لم يحل دون اختيارها أقل الضررين حرصا على بعض كرامتها حين حملها الدون بدرو عنوة وصعد بها الى ظهر السفينة .. لكفت عن المقاومة

وأنزلها دون بدرو فى وسط السفينة حيث قامت حلقة من المصابيح المضاءة

وعند مدخل السفينة وقف القبطان يحمل مصباحا فى يده وعلى قيد خطوات منه وقف رجلان أيضا . أحدهما ضخم الجثة فى ثياب اعتيادية والآخر عملاق نحيل يرتدى مسوح قسيس من قسس الدومنيكان . وقد احتجب وجهه فى ظل القلنسوة التى تغطى رأسه

وما كاد الدون بدرو يدنو من الاول حتى انحنى هذا له وراح يتحدث اليه مخافتا بصوته . وكان هذا هو الدون دييجو كبير خدم الكونت ماركوس الذى جهز السفينة للرحلة الى انجلترا حين جاء النبأ بأن مولاه فى انتظاره

أما القسيس فقد بقى حيث هو جامدا كالصنم مخفيا يديه فى أرداف ردائه الفضفاض . فنظر الدون بدرو ناحيته نظرة متسائلة عن سر وجوده . فتولى الدون دييجو على الفور شرح السبب قائلا : انه لما كان المتبع الا تسافر أية سفينة فى خدمة اسبانيا الكاثوليكية دون أن يصحبها مرشد دينى فقد رأى أن يصطحبه فى سفره . وراح يقدمه الى الكونت باسمه قائلا انه يدعى القس سالسيفو . لتبادل القس والشريف مراسم الاحترام الظاهرى بانحناء الرأس احناءة التحية والسلام .

وفيما كان القس يرفع قامته بعد الانحناء . اذ بدا وجهه الذى كان مختفيا فى ظل القلنسوة . فاستطاعت مرغريت أن تلمح فيه سحنة ناحلة شاحبة تطل منها عينان سوداوان

تبرقان بريقا مخيفا يرسل البرودة فى الاوصال . وقد لمحت فى بريق عينيه ذلك البريق الذى التمع لحظة ثم اختفى. شيئا من الوعيد الشرير المخيف والمكر السىء المطمر . فارتجفت نفسها رجفة شديدة .

وسمعت عندئذ دون بدرو وهو يقول لها ان القمرة الرئيسية فى السفينة تحت امرها .. وانه يصبح أن تتبع الدون دييجو ليقودها اليها

فترددت لحظة رافعة الرأس متحدية النظرات . ولكنها لم تلبث أن مشت فى اثره .. وتبعها الدون بدرو .

وعند مدخل الردهة المؤدية الى الغرف شعر دون بدرو بيد أمسكت بذراعه .. فالتفت ليرى من هذا .. واذا به القس الواقف بجانبه .. لعبس فى وجهه مستاء من هذه الحركة غير المؤدبة .. ولكن القس لم يأبه بعبسته بل وقف وراء الشريف يسأله قائلا :

ــ ماهذه المرأة التى اصطحبتموها معكم فى السفينة ؟.

وشعر الدون بدرو بأن القس فى غضب يكظمه فأحب أن يقابله بجواب عنيف ولكنه تمالك جأشه فأجاب بكل تؤدة قائلا :

ــ هذه السيدة هى التى ستصبح قريبا الكونتيس ماركوس . وأنا مسرور بانتهاز هذه الفرصة لاعلان هذا الخبر أمامكم حتى تكلموا عنها من الآن فصاعدا بلهجة الاحترام الجدير بها .

وتركه منصرفا وهو يلعن فى سره الدون دييجو على اصطحاب قس كهذا من قسس الدومنيكان المشهورين بالوقاحة والخيلاء على الناس دون فارقا بسبب سلطتهم الدينية التى يتمتعون بها فى ديوان التفتيش .

والقى الدون بدرو نظرة على أثاث القمرة الكبيرة فارتاح

له وادرك انه حقيق بالسيدة التي ستقيم فيها .

وكان بجوار المائدة القائمة في وسط الغرفة خادم يسمى (بابيلوس) اختصه «دون بدرو» بحبه وجعله تابعه الخاص .

وأشار «دون بدرو» الى مرغريت الى موضع المائدة ، فتقدم بابيلوس فأمسك بالمقعد ريثما تجلس عليه .

فنظرت مرغريت الى الاسباني بسكون ، وكان وجهها شاحبا وشعرها مضطربا قليلا وثوبها غير متسق ، وقد تمزقت باقته الحريرية من اثر حملها فوق كتفه ، وكان صدرها يعلو ويهبط دليلا على بلوغ الاحساس الذي كانت تحاول اخفاءه عبثا وتود لو تغالبه .

وأنشأت تقول بكل فتور واحتقار واحتجاج ساخر :

ـ ولم يعد لي اختيار ، فلا يسعني الا التسليم ، ولكن فعلك هذا يا دون بدرو فعل جبان ومخلوق جاحد ناكر للجميل تقابل احساني اليك بالاساءة .! لقد وددت لو انك تركت لذلك المصير الذي اثبت لي الآن انه جدير بكل اسباني من ربه كل شريف عالي النفس .

ومشت في رفق الى المائدة فاتخذت مجلسها رافعة الرأس في كرامة جريح ، بينما وقف هو شاحب اللون وفي عينيه بريق ألم موجع ، وقد اثاره جرحها وهمها ، فمال برأسه قليلا وانثنى يقول :

ـ هذا العتاب القاسي استحقه ولا ادفعه ، ولكن لي عذري في ذلك لاني لم افعل الا ما اوحت الي به عاطفتي ، وللعاطفة عذير وشفيع وأنا اعتقد انني رجل شريف .!

فضحكت ضحكة قصيرة ساخرة ، فاضطرب وراح يردد كلمته قائلا :

ـ نعم انني رجل شريف لولا ان تغلب على نفسي دافع قوي شديد السلطان لم املك مقاومته ، لقد عرفتك يا مرغريت

فأحببتك حبا قويا قتالا .. حبا يائسا مستميتا .. وأقسم لك انني لست بالرجل الفاسد العاطفة ، ولا بالعابث المستهتر .

ويجب ان تتذكري قبل الحكم على عملي انني لم اعمد اليه عبثا واستهتارا لانني رجل سوء .. ولا تحسبيه اختطافا ، فان هذا تعبير قبيح .

قالت : ولكنه التعبير المناسب العمل القبيح الذي اتيته بل للجريمة التي سوف تسأل عنها وتحاسب عليها حسابا عسيرا .

قال : ليكن جرما ما تقولين . ولكن ثقي انني ما كنت لافعل ما فعلته لو لم تأتمر الظروف نفسها بي لتدفعني الى فعله . فقد كانت السفينة في انتظاري عرض البحر على مقربة من سواحلكم ، ولم يكن ينتظر ان تبقى طويلا هكذا دون ان يكتشف أمرها .

فلم يكن اذن من السرعة والتعجيل بد ، واذا كنت قد كاشفتك ليلة الامس بالحب منهيا جاثيا وجلا ، فعذري ان الزمن كان يجري بي مسرعا . والعجلة حتما مقضيا ، ولولا ذلك لاصطبرت مليا ، واخفيت ما بي طويلا ، ريثما تشعرين انت من تلقاء عاطفتك ، لان رسالة القلب كالشرارة الكهربائية حين تنبعث تنفذ وتسري ، لقد كنت في جهل من امري ، هذا هو كل ما هنالك ، ولكني مع الزمن كنت سأوقظ شعورك ولم يكن الزمن تحت امري وا أسفاه !

وبسط ذراعيه في حركة تأثر شديد واحتدام عاطفة واقبل عليها قائلا :

ـ لم يكن في وسعي اذن غير الالتجاء الى هذه الحيلة السافلة ـ كما تسميتها ـ فرارا من المستحيل الذي لن يكون .. وهو التخلي عنك والرحيل بدونك .

ولقد اصبح معروفا في هذه السفينة التي ذاهب بك الى

اسبانيا وجعلت الكونتيس ماركوس تألف من هــذه اللحظة والجدة بل الاحترام والاجلال تفترن بهذا الحب

وتمهل وانثنى ينظر اليها نظرة حزينة متضرعا شاكيا، ولكن تلمانه ونظراته لم تحمل فيها اثرا ظاهرا ، بل كانت النظرة التي اجابت بها قاسية حادة ، واذا هي تقول :

— لقد ثلث الصور السابعة وانت ماض في للامــك هذا انت وقد تدل ، ثم لا البث لحظة أخرى ان احسبك احمق مغفلا ، ولكني الآن بعد ماترعت من حديثك ازداد مزيجــا محزنا منهما معا !

لقد عاملتني بعنف وأسات الى كرامتي على امــل ان تكرهني للخضوع لك ، وتركت في البيت الذي اوالا واحسن مثواك حزنا دائما وهما مقيما .

واقول لك ان هذه المحاولة عبث منك وطائل تحته . فلن أكون زوجا لاحد بالرغم مني ، ولكني اذا اردت ان تكسب غفرانا او صفحا قد يأتي يوم لتحتاج اليه ، فاني اطلب اليك مرة أخرى ان تأمر برجوعي الى الموطن الذي انتزعتني منه

فخفض من عينيه وزفر وقال : دعينا نأكل !

والتفت الى الخادم بابيلوس الواقف عن كثب فاشــار اليه بتهيئة الصحاف ليأكل

ولم يلبث دون بدرو أن وجد نفسه معجبا بتلــك الشجاعة التي أبدتها وبتلك الجلسة المستوية التي جلستهـا قبالته ومواجهتها لنظراته في ثبات وسكون .

وقد كان واثقا كل الثقة من أنها سوف تسـلم له في النهاية .. لان الحجج التي صارحها بها كانت حقا صادقة صادرة عن يقين وايمان فليس أمامها سوى الصــبر : وهو فضيلة لا تصبح مستحيلة الا مع الشك

وتناولت الطعام غير متمنعة ولا معرضة ، وشربت أيضا

قليلا من النبيذ ، ولكنهــا احتاطت لذلك ولم تشرب الا من الابريق الذي يشرب هو منه ، ولاحظ هو هذا التوقي فاعجب بذكائها ، وهكذا راح تحديها وتشككها فيه عوامل اعجاب بها في عينيه

وفي صباح اليوم التالي خرجت مرغريت الى ســطح السفينة فاذا وجهها ينم بشحوبه والخطوط الظاهرة فيه على ما قاسته في ليلتها من عذاب وهم شديد وسهد بالغ ، ولم يكن في حركتها أو ثوبها امارات أخرى تكشف عن حقيقة نفسها ، فقد عنيت باصلاح ثوبها ، وتضفير جدائلهــا وكانت تمشي بخطوات ثابتة وهي تلوح ساكنة أعجب السكون .

وجعلت تتنقل في جوانب السفينة وجيئة مفكــرة ، ولكنها لم تلبث أن شعرت بشــبح مستطيل قريب منهــا ، فتطلعت ببصرها اليه ، فاذا هي ازاء القس لويس ، الــذي رأته ليلة الامس ، وقد بدا على ضياء النهار أصغر سنا مما تصورته لأول وهلة حتى لا يكاد يتجاوز عمره الحقيقي اواسط العقد الثالث ، ولاح لها أنه على الرغم من نظــراته الجائعــة الذئبية لا يزال وسيما أو عليه مسحة من الجمال ، يسترعي الابصار أينما سار أو شوهد

وكان واقفا على قيد خطوات منها ممسكا بكتــاب من كتب الدين وحبات المسبحة متدليات من كفه .

ولمح نظراتها اليه فاحنى رأسه قليلا لتحيتها وان ظل وجهه ساكنا لا اختلاج فيه كأنه مقدود من خشب

وتقدم نحوها وعيناه الواسعتان الرهيبتان مستقرتان على وجهها فلم تلبث أن شعرت بنبضها يسرع في خفقه

ولشد ما كانت دهشتها أن راح يحييها بالانكليزية

وكان حديثه لها ، الرجاهي أن تكون قد وجدت الاقامة في قمرة الباخرة جميع اسباب الراحة المطلوبة لها ، والاصل

في أن تكون قد باتت نوما هادئا في الليلة الماضية واستيقظت في الصباح نشيطة النفس معتمدة على أمهم العذراء عليها السلام

وكان خاطرها في تلك اللحظة منشغلا بشيء آخر، منهمكا في مناجاة نفسها بأن هذا الرجل قسيس، يعتنق الدين الذي تعتنقه، ولئن كان مخالفا له بعض المخالفة، وإنه من حراس الفضيلة وحماة الخير ونصير المظلومين، ففي وسعها أن ترجو معونته، وتلتمس نصرته إذا هي قصت عليه ما جرى لها، ومركزه الديني يبيح له الاعتراض على الدون بدرو إذا ما كان تعرضه اليها

فلم تلبث هذه النجوى أن الهبت شعورها، فاتقدت نظراتها، وفارقتها الكآبة التي كانت غامرة محياها، وأنشأت تقول:

— يلوح لي أن الله قد أرسلك لي لتكون نصيرا.

ولمح هو البريق الجديد الذي خط على وجهها فبدت على سحنته أمارات العطف والاشفاق فأجابها قائلا:

— أنا لست إلا خادما ضعيفا عاجزا من خدام الله. فما خطبك أيتها الأخت في الإنسانية؟

فأنشأت تقص عليه بإيجاز كيف أخذت عنوة من بلادها واحتملت على كره إلى السفينة وكيف أنها أصبحت تحت رحمة الدون بدرو

قال بسكون: أعرف ذلك

فصاحت به مرتاعة: أتقول أنك تعرف ذلك؟!

واستنكرت أن يكون هذا القسيس مشتركا في المؤامرة وتلاشى سريعا ذلك الأمل الذي كانت تعلقه على معونته، إذ كيف يمكن أن يكون على علم بقصتها ثم يبدي هذا الاستخفاف بالأمر ولا يتحرك للاحتجاج عليه

قال: واعلم أيضا أن الدون بدرو لا يقصد بك سوءا وأن نياته ليست شريرة ولا آثمة ولا تنطوي على التفكير في معصية

قالت مبهوتة: كيف ذلك؟ أوليس من الشر والإثم والمعصية حملي هكذا على غير إرادتي وإكراهي على ما لا أحب؟

قال برفق: هو عمل خاطيء بلا شك وتصرف سيء، ولكنه على كل حال لم يصل إلى ما كنت أخشى أن يكون من بداية الأمر، فقد كنت أخشى أن يكون منطويا على معصية في حق الله يعذبه الله عليها أشد العذاب. نعم هو ظلم بين هذا الذي نزل بك. وأنت كلتمسي عندي الوقاية منه فثقي يا أخت أن لن تتعرضي لشر ما ولن يصيبك سوء فإما أن يردك الدون إلى بلادك في الحال. وإما أن تتخلصي من هذا الإكراه بمجرد وصولك إلى السواحل الإسبانية

وسمعت مرغريت ذلك فكادت تصيح من فرط السرور وشدة الجذل، من أنها استطاعت بكل سهولة الظفر بوقاية هذا القس لها وحمايتها من الأذى.

وتقدم القس أوليس فرسم علامة الصليب فوق رأسها وتمتم بدعوات مخافتة، فتطلعت اليه ببصرها، وعيناها تختلجان وتبرقان ببريق شك عجيب، وادرك هو معنى تلك النظرات المتشككة في بركته ودعائه فغمر وجهه في الحال ظل ريبة شديدة، ولم يلبث أن ذهب خاطره مع تلك الريبة إلى أبعد حدودها، فتبين أن الدون بدرو قد تجاوز حدود الله وارتكب معصية بالغة، لا تقتصر على مجرد اختطاف أو إكراه بل تبلغ آخر درجات الإثم، لأنه وهو المتدين، وسليل بيت من أعرق بيوتات اسبانيا المؤمنة التقية الورعة، قد جاء معه بامرأة زنديقة .. كافرة! .

وأمام هذا الاستكشاف الفجائي، ازور القسيس

مبهوتاً ، وتراجع ذاهلاً مرتاعاً ، والزمت شفتاه في غمرة الالم والاستنكار ؛ وانطلق منصرفاً عنها لا يلوى على شيء ..

الفصل الخامس عشر

بوادر الشر

كان تأثير هذا الاكتشاف شديداً في نفس القسيس لويس حتى لقد لبث لحظة طويلة منزعجاً مبهوتاً من هذه الصدمة التي أصابته . يفكر فيما ينبغي أن يتخذه من التدابير لمحاربة ابليس ولتخليص نفس الدون بدرو ذي مندوسا من حبائله

وقد طال بهذا الرجل المتدين الدعاء لله والصلاة والابتهال أن يهديه الى الوسيلة التي تمكنه من تحقيق هذه الغاية ويهبه القوة لمحاربة الشيطان الذي كاد يستولي على نفس الدون بدرو بوقوعه في فتنة امرأة زنديقة كافرة ، ودعا الله طويلاً أن يمكنه من التغلب والنجاح .

وقد طال به الدعاء لله حتى أصيل اليوم التالي اذ شعر بأنه قد استقوى وتجهز وتدرع لمحاربة ابليس اللعين

وكان الدون بدرو في تلك الساعة يستنشق الهواء فوق سطح السفينة فتقدم اليه القسيس وراح يصب في مسمعه حديث الدين والوعظ والهداية والارشاد ، ولكن الدون بدرو كان ساهماً مفكراً فلم يقبل على سماع كلماته في بداية الامر ، ولم تبدر منه بادرة على الغضب أو نفاد الصبر

وكان القسيس قد خشي أن يقاطعه أو يعرض عنه لجعل كلامه طويل المقدمات ، كأنما يلقي عظة دينية لا غرض له منها سوى الارشاد ، فتكلم أولاً عن اسبانيا ومجدها السابق وحالتها اللاحقة ، فسمى مجدها دليلاً على رضوان

الله عنها ، ودعا ما لحقها أخيراً اثراً من زوال ذلك الرضى وحلول الغضب والنقمة محله

وانتبه الدون بدرو عند هذا الحد من الحديث فتساءل الا يمكن أن يكون انكسار الارمادا في حرب انجلترا علامة على هذا الذي يقوله القسيس ؟!

فتحمس هذا وامسك بهذا الخيط في الحديث ، وراح يضرب على هذه النغمة ، فقال ان هذه الهزيمة قد جاءت نذيراً من الله لهذا الشعب الذي خدعه الزهو والكبرياء والغرور ؛ وهي جميعاً من حبائل الشيطان وفخاخ ابليس ؛ حتى ظنوا أن مجدهم السابق وانتصارهم العزيز وعظمتهم البارزة هي من صنع انفسهم وثمرة جهودهم ، فاراد الله ان ينكروا تذكرة لهم حتى يدركوا انه بغير رضا الله لا يتم شيء في هذا العالم

وأحب الدون بدرو أن يعترض ووجد في خاطره امثلة وشواهد كثيرة من المنطق الدنيوي تمكنه من الاعتراض ولكنه لم يفعل وترك القسيس يمضي في حديثه

وطفق القسيس يشرح الشيء الكثير من ماضي اسبانيا وحروبها الدينية حتى انتهى الى أن اسقف توليدو ، طليطلة ، نفسه كان متهماً بالمروق البروتستانتي وبث تعاليم الكفرة في اسقفيته ، وانه اذا كان قد برىء من تلك التهمة فما ذلك الا من فساد رأى الذين برأوه ؛ وكان يجب ان يلقى في نار جهنم ، كما ينبغي أن يلقى الكفرة والزنادقة جميعاً .. اللهم آمين !.

واشتدت عند هذا الحد حماسة القسيس ؛ فبسط ذراعيه في الهواء وكان منظره حقاً مخيفاً يلقي الرعب في الافئدة ، فلم يكن من « الدون بدرو » الا أن ردد قوله : « آمين !. »

فلم يكد القسيس يسمع كلمته هذه حتى تحمس أكثر من قبل وقال :

– هذا هو ما كنت انتظره منك وانت المؤمن العامل في سبيل الله .. نعم .. ألست أخا لي في أخوة سبايي ودينيك !. أو لست بهذا مسئولا عن محاربة الكفر أينما وجدته .. ومقاتلة الزندقة !. و ..

وعند ذلك بدا الدون بدرو يتجهم ويعبس من فرط هذا التهويل والتر هذه المبالغة فقال قاطعا :

– لماذا تسألني يا قسيس لويس !.

قال : لكي امتحنك لأني اراك الساعة قائما على حافة هاوية سحيقة ولكي أتأكد النفسي ان ايمانك قوى الى حد تجنبك السقوط في تلك الهاوية .

فاندهش الدون بدرو وأجاب قائلا :

– أتقول انني على حافة هاوية ؟ . أنا ؟ . انك لتدهشني يا أخي !.

واستضحك ساخرا

فصاح القس قائلا :

– انك لتوشك أن تفسد دينك النقي وايمانك الصحيح باقدامك على التزوج بامرأة كافرة !.

ففهم الدون بدرو المراد وان كان قد بهت به وفوجيء لانه في الواقع لم يكن قد فطن الى هذه الحقيقة في بداية أمره ولم ينظر الى مسألة غرامه من هذه الناحية !.

ولهذا وقف مضطربا مرتبكا ، وقد تبين له كيف انه لم يفطن الى ذلك كله من قبل ، ولكنه لم يلبث ان استعاد ثقته بنفسه واعتداده بقوته ، فهدات ثائرته ، وزال ما به من اضطراب ، اذ أحس انه لن يعجز بعد تحقيق غايته من الزواج باللادى مرغريت أن يردها الى الايمان الصحيح

بعدها من الزيغ والكفر .

فلم يكد يكاشف القسيس بهذا الذي جرى في خاطره حتى ارتفعت حماسة هذا الأخير !.

وراح يحثه على هذا الايمان الحار طويلا .. وانه أي مستعد آزره ويناصره في هذا السبيل .

وهكذا استخلص القسيس من الدون بدرو السماح له بلقاء مرغريت ويحاول بالاقناع والهداية أن يردها عن الكفر الى الايمان .

وقضى القسيس ثلاثة أيام متوالية يحاول بكل حذر ورفق ، وصبر وحمية تحطيم الحصون التي كان يعتقد ان ابليس قد أقامها حول الفتاة . وكان يخيل اليه مع ذلك انه كلما جاهد وحاول هدمها قاومته وغالبت هجماته العنيفة .

أما مرغريت فقد تلقت أحاديثه أولا بفتور ، وازدحمت خاطرها بالأسئلة .

وخيل اليها ان الأقدار أرسلت اليها هذا الرجل العجيب ليتحدث اليها على تلك الصورة لكي ينفي عنها الثقل القاتل الذي كانت تشعر به في هذه الفترة التي أجبرت عليها اجبارا ، ولكي تشغل فكرها عن المستقبل والمصير .

أما هو فكان يرى ذلك الاستخفاف منها فتتلوى نفسه من شدة الألم والعذاب ويحس انها قد اوتيت حولها روحا شريرة من البساطة تفتن العباد فتونا حتى كاد ييأس من محاولاته

ولقد كانت الموضوعات التي جاء القسيس يتحدث اليها عنها جديدة على خاطرها ، لم يشتغل بها عقلها من قبل كثيرا ، فقد كان أبوها فيلسوفا لا يحفل بالدين ، فلم يعن بتربيتها من هذه الناحية وانما تركها لنفسها تعتنق

ما يوقعها من العقائد . ولكنها فوجئت الآن في هذه المسائل النفسية ؛ لم تر بأسا من التفكير لتفسيرها ، بل جعلت الحجج والأخيلة والأفكار تتزاحم على عقلها في وسط المناقشة فياضة متدفقة حتى أدهشت هي نفسها مثل دهشة القسيس وعجبت من أمرها مثل عجبه

ولم يكن احساس القسيس لوبس مقتصرا على العجب ولكنه كان في حالة يأس محض أليم ، وقد اقتنع الآن أن الآباء الأولين كانوا على حق في منعهم ترجمة الكتب الدينية ونشرها بين الناس وقد تجلت له حكمة هذا المنع وهي أن الذين لا يستطيعون فهمها على حقيقتها يضطرون الى تشويه معانيها وافساد أغراضها وبذلك تستحيل أدوات الخلاص بفعل الشيطان ومكره أدوات ضلال بعيد .

ولما قال لها ذلك قاطبا محتدما ضحكت هي منه ضحكة مداعبة متدللة كأنما قد ألقى بها جمالها الفتان أمام عينيه لتجتذبه في شراكها وتحتله في فخها ؛ فعلت تقلب الدون بذرو تقله ؛ وشعر القسيس بذلك فأخفى عينيه بيديه وهو يصرخ قائلا :

— أعوذ بالله . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم !

فازدادت ضحكا . واتسعت تداعبه قائلة :

— يا سيدى القس أهكذا أصبحت أنا في عينيك الآن إبليس يريد أن يقتلك وأنت تحاول أن تتوارى منه خيفة . وقد يكون هذا الورع معقولا وحسنا من قسيس ولكنه مؤلم وغريب من رجل . ولكنى لن أتركك حتى يسلم أحدنا بالهزيمة أمام الآخر

فرفع يديه عن عينيه ليحملق في وجهها مرعوبا مأخوذا وهو يقول مرددا ما قالته « حتى يسلم أحدنا للآخر بالهزيمة !! » وقد أخذ هذه العبارة على معناها الحرفي ؛

وانثنى يصيح بانفعال وغضب قائلا :

— أحسبك تعنين بهذا أن تقولى حتى ينتصر الشيطان .. فيا ويلتاه اذن !

وانطلق كالمختنق يلتمس الهواء النقي من ذلك المكان المشبع في نظره بأنفاس الإثم والكفر المبين

كان ذلك في اليوم الثالث من محاولاته . وقد انتهى هكذا بنتيجة مخيفة للغاية . اذ ظلت كلماتها تطارده .. وهي « لن أتركك حتى يسلم أحدنا للآخر » لقد كان هذا تهديدا .. تهديدا من ابليس أرسله اليه على لسان تلك المرأة وشفتيها الملوثتين كفرا .. فلم يلبث أن تبين له أنه قد أصبح في خطر .. وانقلب الصائد صيدا .. ووقع هو في الفخ وكان يظن أنه هو الذى يريد أن ينقذها هي من حبائله !

وبدأ يتشكك وتمر عليه لحظات يذهب به الخاطر فيها الى أن حججها وكلماتها قد تكون صحيحة .. وأنه من المحتمل أن يكون هو مخدوعا وأنه ربما كان مخطئا في فهم تعاليم الدين من حيث جوهرها الصحيح

وعجب كيف يحدث ذلك له وهو القسيس العالم المطلع بأسرار الدين ودقائقه ، على يد امرأة .. بل فتاة غريرة لم تتفقه فيه ولم تتبحر تبحره .

وتصور أن ذلك لا يمكن أن يكون منها هي وحدها .. اذ من أين يأتى لها ذلك العلم الجديد .. لا بد اذن أن تكون ملبوسة ! تقمصها ابليس اللعين ليضله ضلالا بعيدا .. والا فكيف وقفت هكذا حيالة عادلة الأوصال .. سافرة البدن .. تتحلى بقوامها الأهيف .. وتلقى برأسها ناحية لتضحك ملء فمها ضحكات رنانة طلية الأغاريد .. وجدائل شعرها الذهبي يكاد يتوهج من ضياء الشمس ليملأ قلبه

فتنة ساحرة .. وعيناها الجذابتان ترنوان اليه هو وتهكما وعبثا .. وذلك النحر الأبيض الجميل البادي على أحسنه من قوارة ثوبها الشفاف ومن تحته صدرها الناهد البارز الذي جعل عينيه تستقران عليه وتمهلان طويلا

تصور ذلك في خلوته الى نفسه فخيل اليه ان عينيه لا تزالان متمهلتين راتيتين نحو الصورة نفسها ولكن في الخيال .. والصدر ذاته ولكن في لوح الخاطر .. على الرغم من انه كان يغطى جفنيه بكفيه ويود لو يقتلع عينيه بهما اقتلاعا حتى تحتجب تلك الصورة الخيالية من نفسه

ووجد نفسه يرتعش فغمغم مستعيذا بالله من الشيطان الرجيم .. مستغيثا بالرب من اعماق صدره لينقذه من هذه الفتنة الجسدية التي استبدت به

وفيما هو كذلك غارق في بحر لجي متلاطم لا يشعر بما حوله اذ مست يد كتفه فانتبه من ذهوله كان قطعة من حديد محمى قد مسته .. واذا به يرى بجانبه الدون بدرو وهو يتأمله مبتسما نصف ابتسامة

وابتدره هذا قائلا :

— مع أي شيطان يا قس لويس أراك مصارعا !

فتطلع القس اليه بعينين ذاهلتين وأجاب بقوله :

— هذا هو ما أحب أن ابينه .. فتعال أجلس بجانبي لنتحدث قليلا

فأطاع الدون بدرو .. وساد سكون لحظة .. ثم انثنى القس يتكلم .. عن أصل الشيطان ونشأته وطبيعته والأسلحة الغريبة التي يتخذها للغواية والتضليل .

وأطال في هذا ونحوه كثيرا حتى مل الدون بدرو سماع كلامه فصاح قائلا :

— مالي أنا وكل هذا الذي تقوله لي ؟

فاستدار القس نحوه والقى يده فوق كتفه بحدة وراح يسأله بحرارة قائلا : أتستقبل ذاتا من لذة وقتية مسمومة على مائدة شهية حافلة بألوان لا نهاية لها ولذة مقيمة في جنة عرضها السموات والأرض تحوى كل ما تلذ الأعين وتشتهى الأنفس ؟!

فأجابه الدون بدرو قائلا : بالطبع لا

قال : اذن تحذ حذرك من الآن أيها الأخ !

قال مبهوتا : حذرى مم يا صاح ؟

فراح القس لويس يجيبه بالكناية قائلا :

— لقد أرسل الله المرأة الى هذا العالم لامتحان الرجل والويل لمن يقع في حبائلها !

فقال الدون بدرو متضجرا : تكلم بصراحة يا صاح!

فابتدأ القس يقول : ان هذه المرأة ..!

ولكنه لم يتم لأن الدون بدرو قاطعه بقوله :

— اذا كنت تعنى اللادى مرغريت تريفايان فتكلم عنها باحترام او لا تتكلم مطلقا .

ونهض الدون بدرو غاضبا يهم بالذهاب ، ولكن القس لم يكن ليتراجع وقد بدأ . فراح يقول له :

— اعلم يا مولاى أن هذه المرأة كافرة لا امل في هدايتها على الاطلاق ..

فنظر الدون بدرو اليه وتحسس لحيته ثم أجاب قائلا :

— قد يكون ذلك مستحيلا بوسائلك أنت وأساليبك!

قال : كلا بل بكل الوسائل اطلاقا .. أنها متقمصة !

فبهت الدون بدرو وألجم من الدهش فلم يستطع شيئا غير ان راح يردد الكلمة ترديدا « متقمصة ! »

قال : نعم لقد تقمص ابليس روحها . وهى ساحرة

.. متصلة بالعالم السفلي !

فصرخ الدون بدرو في وجهه قائلا : صه ايها المجنون! القد بلغ منك الغرور هذا الحد حتى انك لعجزك عن حفظها ونصحها وهدايتها لم تجد وسيلة لاخفاء جهلك وعجزك سوى الزعم بأنها مرتبطة بروح ابليس . هذه سخافة . بل حديث خرافة !

ولم يتأثر القسيس لهذه الاهانة وانما هز رأسه قائلا : لا تفسير له غير ذلك . وقد اوحى به الرب لى قبل ان تكشفه حواسى وعندى البرهان على صحته . هل سمعت ما اقول ، عندى البرهان ! وكان يمكن ان تفطن انت اليه ايضا لو لم تخبلك في فخها وتوقعك في شرك حسنها الفتان .

فاشار الدون بدرو اليه بالصمت في زجرة شديدة وهو يقول :

ـ اراك تذهب في تفسيرك بعيدا ايها القس ! فلا تعد لهذا بعد الآن لئلا يتملكنى الغضب فانسى المسوح اللتى انت مرتديه !

وعند ذلك نهض القسيس فوقف إزاءه متحديا رافع الراس ، وقال :

ـ لا يجدى التهديد مع رجل يعلم ان له الحق في الكلام

فصاح الدون بدرو به : وهل انت ذلك الرجل ؟

ولكنه كان قد غالب نفسه والتفت الى نفسه الساخرة المستهترة بكل شيء ، فاستأنف يقول :

ـ لا تنس انني انا ايضا لى حقوق في هذه السفينة ، ومن هذه الحقوق حق القائك في اليم اذا انت تجرأت ولو وقحت !

فلم يكد القسيس يسمع ذلك حتى انكمش وانزوى

قال : أتقول هذا لي انا ؟ هذا تجديف وسوء أدب في حق الدين أخـيك قد مرقت وكفرت من الآن حتى سولت لك النفس أن ترفع يدك على قسيس بورك امام الهيكل بالزيت المقدس ؟

فنهره الدون بدرو قائلا : اذهب من هنا ! اذهب ابحث لك عن جهلاء تعظهم يا هذا . فما انا بحاجة الى مثلك .

ولكن القسيس وقف مشبكا ذراعيه امام صدره في شمم الجراة والجمود ، وقال :

ـ لقد اردت ان انبهك واحذرك ولكنك لا تريد ان تستمع لى . ومن قبلك طالما هزا قوم بالوعيد فحق عليهم غضب الله . افلا تتعظ وتتذكر مصيرهم ؟

فضحك الدون بدرو مستخفا بوعيده وقال :

ـ انا لست منهم ياهذا . انا الدون بدرو دى مندوسا اولونا كونت ماركوس وكلمتى هى العليا في هذه السفينة. فتذكر ذلك كله الا اذا اردت ان يلتقمك الحوت كيونس عليه السلام !

فلبث القسيس ينظر اليه مليا بعينين متفحصتين ثم رفع يديه فارخى القلنسوة فوق رأسه . وانصرف .

الفصل السادس عشر

بين خطرين

وبعد يومين القت السفينة مراسيها حوالى المساء في خليج سانتاندر الذى تكتنفه الجبال من كل ناحية وكان اليومان السابقان قد انقضيا في سكون ظاهر وان كان القلق مستحوذا على النفوس ؛ فاما القسيس لويس فلم يحاول من جديد الاقتراب من مرغريت ؛ وكان ذلك كافيا

للدلالة على أنه قد قطع الأمل من هدايتها ، ولكنه كان قد حاول مرتين فتح باب الحديث مع الدون بدرو . ولو تم له ذلك لكان خبر الدون بدرو ، لأنه كان سيعلم حقيقة الخطر الذي يحلق به . غير أنه كان في حالة نفسية ثائرة ، يشعر معها بأنه قد تسامح مع هذا الرجل الدنيء أكثر مما يلزم .

ولهذا جعل الدون بدرو يقابله بكل برود ويتلقاه بكل فظاظة ويطارده من حضرته حتى أصبح الفتى مقتنعا كل الاقتناع بأنه لم يكن مخطئا في تقديره ، وأن النية التي انتواها لرد هذا الجاهل الكافر عن غيه هي عين الحق والصواب .

ومن جهة مرغريت كان الدون بدرو أيضا مشغول البال يخشى أن لا تتحقق آماله في اختطافها لمشيئته ، بسبب ما كان يشهده من ثباتها ورباطة جأشها ، وارتباكه كلما حاول مفاتحتها

وإزاء هذا العناد بدأت نفسه تثور وتضطرب وتجيش في أعماقه ، حتى حدث الانفجار المنتظر حين ألقت السفينة مراسيها في ذلك الخليج مساء يوم جميل من أيام أكتوبر ، وكانت جالسة ، في الدورة الكبيرة وقد اشتد بها القلق

قال الدون بدرو مفاتحا إياها بالنبأ : لقد وصلنا !

وكان شاحبا في تلك اللحظة غاضبا هائج النفس منقد العينين .

قالت : تعني أننا قد وصلنا يا سيدي . لأن هذا بالنسبة لي ليس وصولا إن هو مرحلة من مراحل سفرة شاقة مؤلمة أكرهتني أنت عليها إكراها !

فتظاهر بأنه لم يفهم غرضها تماما وأجاب بقوله :

ـ هذا صحيح فإننا غدا مواصلون السفر برا ولا يزال

أمامنا مراحل نقطعها وإن لم تكن طويلة فلن تمضي بضعة أيام حتى نكون في قصرنا بأوفيدو .

قالت بكل برود ظاهر : أرجو أن لا يكون ذلك !!

وكان اعتمادها حينئذ على القسيس لويس ، إذ على الرغم من أنه ابتعد يومين لا يدنو منها ، كانت لا تزال تثق بها وعدها من حمايته لها ورقابته ولا تشك في طهارة قلبه وطيبته .

وسمع الدون بدرو كلمتها تلك فقال ساخرا متهكما :

ـ أتقولين إنك لا ترجين ذلك !!

ودنا منها وقد أحاله عنادها شيطانا هائجا مريدا ، وقلب شعوره في الحال كراهية ومقتا شديدا .

ولكنه لم يلبث أن هدأ وعاد إليها يقول بلهجة المحب اليائس :

ـ إن عنادك هو وحده الذي يقف في طريقنا ، فأنت تأبين أن تصغي لي أو تستمعي لتوسلاتي الخاشعة ورجائي المتواضع .

فأجابته : إنك حقا متواضع يا سيدي ! ومن تواضعك إنك تحسب في إمكانك أن تظفر بأي امرأة إذا هي أصغت إليك !!

قال : هذا سوء أول لمناي . أصغي إلي يا مرغريت .

وراح يحنو عند قدميها . واسترسل :

ـ إني أحبك ! وإن حبي لكفيل بأن يجعل حياتك في أوج المجد والسعادة والهناء . وليس لك عن هذا مرجع ولا مآب . فقد لبثت معي هنا في هذه السفينة أسبوعا كاملا فلا غيب عن بالك ما سوف يظن الناس وما قد يفترضون . وهو ما سبيل إلى إصلاحه بغير الزواج بي . فتنعم بشعائره الآن . فإن هنا قسيسا يستطيع أن ..

وكيف أن هذه الحماقة منها هي التي جعلت لهذا الرجل الحق في أن يعتقد أنه القدير على استغلالها وإخضاعها في قبضته اذا شاء ومتى أراد .

لقد لعبت بالنار ، وها هي النار توشك أن تندلع لا لتحرق أناملها فقط ولتشوي جلدها لحب ، بل لتأكلها كلا ولتلتهمها التهاما !

ووجدت نفسها في تلك اللحظة تنادي جرفاس نداء عقيما فلا تجد الجواب !

يا الله .. لو أنه كان في تلك الساعة حاضرا ، اذن لجثت عند قدميه وراحت تتطهر بالاعتراف له بما كان من حماقتها وعنادها ، والاقرار له بالحب ، ذلك الحب الوحيد الذي عرفته في حياتها ولن تعرف يوما سواه .

وعند ذلك انتقل بها الخاطر الى القسيس ليس فلم تلبث ان استعادت شجاعتها المتلاشية بالاطمئنان الى حمايته فالآن وقد وصلوا الى البر ففي وسعه أن يستعين بآخرين لتنفيذ السلطة المخولة له اذا ما خطر للدون أن يقاوم ويعصى ارادته

ولكنها لم تتبين الحقيقة الا فيما بعد حين كانت في غمرتها لتطرق سمعها صوت الدون بدرو وهو يتحدث مع دبكلارك .

وكان يتكلم معه بالفرنسية ويسأل عن القسيس وكيف لم يأت العشاء

وسمعت مرغريت دبكلارك وهو يقول : لقد نزل القسيس الى البر بأوامرك منذ ساعة من الزمن

فتساءل الدون بدرو وللشر .... ولكنه حمد الله لتخلصهم منه

ولم تكد مرغريت تسمع هذا حتى خفق قلبها أشد

ولكنها لم تدعه يتم جملته . صائحة به :

- انك لتتحدث عن الظنون والافتراضات . ملخصها انها الرجل الذي والثقة التي لن أجد في انجلترا الها الذي واحدا يفترض شيئا كهذا عني حتى أقضي عليهم قضاء

فمضى ولم تأوده الغضب ، صاح بها في غيظ محتدم

- لقد كان لي وسعي أن أجعل هذه الافتراضات صحيحة لولا أن حبي لي صدقه وطهارته وقوته ونقاءه قبيلة هو الذي منعني وحال بيني .

فوثبت ناهضة من مجلسها وهي لاهثة الانفاس وصرخت قائلة :

- اتجاسر على أن تقول هذا لي انها الوغد السافل

فاستضحك ساخرا .. وقال :

- الان لا حاجة بنا الى الكلام يا سيدتي فلن يبدأ تكون في قصري بأرفيدو حيث تقيمين مختارة أو كارهة ومن الحكمة أن تقبلي لنفسه كزوجة وسيتم الزواج قبل أن نغادر هذه السفينة .

وتركها صافقا الباب في اثره بعنف شديد

وتهالكت مرغريت على المقعد الذي كانت قد تركته وهي ترتعش والجثة مضطربة جارية هلعا ، وكانت تلك هي المرة الأولى التي فقدت فيها ضبط نفسها واستسلمت للدموع الغضب والخوف معا .

وفي تلك الساعة الرهيبة ، وذلك الموقف العصيب ، لم تلبث أن مثل امام خاطرها شبح جرفاس ، بقده الرهيف ، وضحكه المرح ، وطهارة نفسه النقية ، فتسأل الرجل المهذب كيف يكون !

وتذكرت كيف انها جرحت خاطره لكي تعبث وتلهو بمحادثة هذا الاسباني وأدبه المزيف ، ورقته المصطنعة

الخفقان من فرط السرور والأمل المتوثب . اذ أدركت سر انصراف القسيس كما ادركت ان الدون بدرو قد جهل ذلك السر ولم يخامره من ذهاب القسيس أي ارتياب
وقد كان حسابها صحيحا ، فقد ذهب القس في شئون تتعلق بخلاصها

وفي صباح اليوم التالي نهضت مبكرة من ليل مسهد قطعته مؤرقة يتنازعها الأمل والخوف وارتدت ثيابها وخرجت الى سطح السفينة قبل ان يغادر الدون بدرو فراشه على أمل أن تقابل القسيس اذا هو عاد مبكرا من مهمته .

وكانت واثقة من انه سيعود مبكرا ، وقد تحقق شعورها لانه في الواقع عاد مع مطالع الضياء مصطحبا في زورق عددا من الرجال كلهم متشح بالسواد وقد تسلحوا بالسيوف كما حمل بعضهم الخناجر
ولمح بحارة السفينة الزورق القادم بمن فيه وفي الحال سرى اللغط في صفوفهم ، لانهم ادركوا ان هؤلاء هم رجال ديوان التفتيش أو الكلاب الضارية . كما كانوا يسمون في ذلك الحين . وكان مشهدهم وحده كافيا لقذف الرعب في النفوس وسريان الهلع الى الأفئدة !

وسمع ديكلارك القبطان هذا اللغط بين رجاله فأرسل غلاما الى الدون بدرو ليبلغه الخبر . فما عتم هذا ان جاء بنفسه متدهشا وان لم يبد على وجهه القلق ، اذ عزا هذه المناورة لبعض الاجراءات الرسمية التي تتخذ في الثغور والموانيء عند وصول السفن اليها ، تنفيذا لبعض القوانين الصادرة من ديوان التفتيش مبالغة في الحيطة والمراقبة .
وكان الدون بدرو قد وصل الى سطح السفينة في اللحظة ذاتها التي وصل فيها القسيس لويس الى مدخلها

بعد أن انزل السلم له امتثالا لأمره وفي أثره أقبل نحو ستة من الرجال المتشحين في سوجهم السوداء .
وكانت اللادى مرغريت قد أسرعت لكي تحيي القسيس عند ظهوره فلمحها الدون بدرو فلم يلبث الشك أن خامره وظن أن في الأمر حيلة مدبرة لافساد خطته ومنعه من تنفيذ مشيئته .

ولم يطل به الشك ، فان اجابة القسيس على تحية مرغريت كانت في ذاتها جوابا على ذلك السؤال الذي خطر للدون بدرو منذ لحظة . فقد رأى القسيس وهو يرفع يده ويشير بها نحو أولئك الذين احضرهم معه ، كما سمعه وهو يلقى كلاما بالاسبانية اليهم ، وشاهدهم في الحال قد تقدموا مسرعين بينما تنحى القسيس ليراقب وينظر ، في حين وقف رجال السفينة في معزل ينظرون خائفين مرتبكين
واضطربت مرغريت من رهبة هذا المشهد فوقفت عن التقدم وهي تشعر بأن شيئا آخر غير الذي كانت ترتقبه لا يلبث ان يحدث ، واذا بالدون بدرو قد تقدم خطوة تحول بينها بينهم ، وصاح بهم صيحة أوقفتهم .
قال : ما هذا ؟ وما شأنكم بهذه السيدة ؟!
فأجبرهم احترامهم لمركزه على التريث ، والتفت بعضهم الى القسيس لويس كأنما يطلب تعليمات منه ، واذا به يوجه الخطاب الى الدون بدرو قائلا :
— تنح جانبا أيها الكونت ! ولا تحاول مقاومة ارادة ديوان التفتيش والا عرضت نفسك وعرضت هذه المرأة معك لنقمة الديوان وغضبه ، واعلم ان لا تهمة هناك موجهة اليك في الوقت الحاضر لأنك لست الا ضحية سحر هذه المرأة وفتنتها .
فحملق الدون بدرو البصر في وجهه وهو يكاد يتميز

من الغيظ ، وقد هاله واخافه تصور الخطر الذي احدق بمرغريت اذ سمع كلمة السحر والفتون والذكر ما كان القسيس يقوله من التقمص والشياطين ، تبين له ان ذلك اللعين قد استغل هذا التجني عليها اسوأ استغلال ، وان العقاب الذي ينتظر مرغريت سوف يكون مرعبا للغاية تجزع عليها اشد الجزع ، واعماه الغضب من كل شيء .. وحمله على التهور والمجازفة ، غير ناظر الى النتائج ... فتقدم خطوة في كبرياء وعظمة رافع الرأس واضعا يمناه على مقبض سيفه .

وتلاقت عيناه المتقدتان بعيني القسيس الهادئتين تكشر عن انيابه واهاب به قائلا :

— اترك هذه السفينة في الحال انت وهؤلاء الاوباش الزعانف الذين جئت بهم قبل ان القي بكم جميعا في اليم

فاجابه القسيس بكل هدوء على سبيل النصيحة :

— اراك تتكلم يا سيدي في غضب ولكني سأتغاضى عما قلته واحب ان احذرك مرة اخرى من توريط نفسك بالدفاع عن هذه المرأة الكافرة الساحرة التي جئنا للقبض عليها .. فحاذر يادون بدرو فان ذلك خير لك !

فصاح الدون بدرو وهو هائج متذمر : يا دون دييجو فتقدم هذا في الحال نحوه وهو شاحب اللون راعش ، فالقى الدون بدرو اليه اوامره ، وهي ان يلقوا هو ورجاله بهؤلاء الزعانف الاوغاد في اليم غير مبطئين !

فتردد الدون دييجو وكان رعبه شديدا من مولاه الكونت ولكن رعبه من سلطان الكنيسة كان اشد ، لان هذا السلطان لا يحفل بنبلاء او اشراف او ملوك !

ووقف البحارة كذلك مذعورين لايتقدم احدهم لتنفيذ هذا الامر .

واسرع القسيس الى اصدار الامر الى رجاله بحمل المرأة رغم اية مقاومة تعترضهم .

فتقدموا ولكن الدون بدرو اسرع اليها فجعلها خلف ظهره ووقف هو في وجوههم ، واستسلمت مرغريت لهذه الحركة لانها ادركت من عيني القسيس وحركته انه لا يقصد بها خيرا .

وفي خطفة البرق ظهر سيف الدون بدرو من غمده وصاح قائلا :

— الى الوراء !

غير انهم لم يتمهلوا اكثر من لحظة ريثما امتشقوا هم كذلك سيوفهم وكروا غير هائبين ، وراح الدون بدرو ينادي رجاله اليه فلا يرى منهم احدا يجاوبه ، وقد وقفوا جميعا متفرجين كالانعام فانثنى يسميهم كلابا واوغادا ويصفهم باشنع الصفات

واسند ظهره الى الباب الخشبي حيث وقفت مرغريت شاحبة اللون مضطربة راعشة .

وانقض القوم عليه فطعن احدهم في نحره ، وآخر في بطنه ، قبل ان يتكاثروا عليه فيحملوه الى سطح المركب ويشدوا وثاقه ويلقوه على الارض لاحراك به .

وتركوه على هذه الصورة ليعودوا الى المرأة الكافرة التي جاءوا في طلبها وكانت واقفة في مكانها مشرئبة العنق متماسكة الاوصال ، علما منها بانها اذا حاولت اية مقاومة لم تسلم من العنف والاذى

قالت وهي لاتبغي ممانعة :

— ما معنى هذا ؟ أهذه هي الحماية التي وعدت بها امرأة في شدة ، امرأة مسكينة طلبت اليك النجدة وركنت الى عونك وآمنت بمكانتك الدينية ومركزك .. مامعنى هذا

ياسيدى ؟

فبدت الرحمة والتأثر فى عينيه .

قال : يا أخت .. ان الشيطان الرجيم قد غواك ، فتعالى معى لاطهرك وأنقى روحك من ادرانها ، يا أخت لا تخافى ولا تحزنى ، فاننا لانبغى غير انقاذ نفسك الضالة وروحــــك الخاطئة ..

فألقت مرغريت بصرها على آخر مداه ، فرأت المنازل والمبانى المتناثرة فوق الشاطىء ، كما شهدت القصور البازخة والحصون الشواهق

أهذه هى اذن اسبانيا الارض العجيبة ، وسيدة العالم بأسره .. ؟!

واقتادها القوم الى الزورق فى سكون ..

الفصل الســابع عشر

ديوان التفتيش

والظاهر أن القسيس لويس كان قد رتب كل شىء مع زبانية ديوان التفتيش فى سانتاندر قبل أن يعود الى السفينة فى ذلك الصباح مع رجاله اذ لم يكد هؤلاء ينزلون من زورقهم الى الشاطىء حتى وجدوا خيلا ومحفة فى انتظارهم فى حراسة ثلة من رجالهم .

وحملت اللادى مرغريت فوق المحفة كما رفع الدون بدرو فوق ظهر جواد بين رجلين من الجماعة وركب القسيس بغــلا بينما اعتلى الباقون من شرطة ديوان التفتيش فى ذلك العهد — وكانوا يسمونه « الجوازل » — صهوات الخيل .

وابتدأ المسير ..

وكان قد تقرر أن يرسل (الدون بدرو) والمرأة المتهمة باستخدام السحر لغوايته الى أوفيدو بالنسبة لانهــا موطن

الرجل ومنازل أهله .

وكانت البلاد الاسبانية جميعا تحت تصرف ديوان التفتيش وفى قبضة يده ، فكان من السهل على الركب أن يغيروا خيلهم فى الطريق مرحلة بعد مرحلة .

وكان رحيلهم من (سانتاندر) فى الساعة ذاتهــا التى كان جرفاس فيها وزميله الديفر بريسيان قد ركبا سفينتهما فى البحر سيرا لمطاردة (الدون بدرو) واستخلاص فريسته منــه .

ولكن الركب كان مسرعا فى مسيره فطويت السبل الابعد الادنى حتى وقفت بهم الخيل بباب ذلك الديوان فى أوفيــدو

وكانت هذه الرحلة بالنسبة لمرغريت حلقة أخرى من حلقات حلم مزعج ابتدأ على سطح السفينة قبيل المسير ، وقد ظلت طوال الطريق فى حالة ذهول لا تعقل شيئا سوى أن الدون بدرو قد وقع هو ايضا معها فى شرك محيك بسبب حماقته وتهوره وتطرفــه وغروره ، وانه مهما يكن من هذا الخطــر الجديد عليها ، فهو على الاقل قد انقذها من براثنه ، وخلصها من الغرض الذى كان يريده منها !

على أن (أوفيدو) لم تكن خاتمة المسير .. اذ لم يمض القوم فيها أكثر من ليلة واحدة . وكان السر فى مواصلــة المسير والرحيل عن « أوفيــدو » هو أن الدون بدرو كان فى تلك الولاية أعظم نبلائها شأنا وأكبر أشرافها سلطانا ، وكان اتخاذ أية اجراءات ضده فى قلب الولاية ذاتها خطوة جريئــة قد تؤدى الى نتائج سيئة . لا سيما وان (الدون دى كيروجا) أسقف طليطلة ، وأحد زعماء ديوان التفتيش كان خاله ، وان خير ما يلجأ اليه فى هذا الشأن هو ارساله الى طليطلة نفسها لمحاكمته فيها اذا رأى خاله وجوب محاكمته .. حتى لا يستهدف أحد لغضب الاسقف ، أو يأتى أمرا يؤاخذ عليه .

واستغرقت الرحلة اسبوعا كاملا .

وكان الامل الوحيد الذي يحيا في نفس مرغريت متعلقا بجنسيتها الانكليزية ، اذ خطر لها انه في وسعها أن تلجأ في طليطلة الى السفير الانكليزي ، او ترفع شكواها في حالة غيابه من طريق السفير الفرنسي ! وهذا الامل الوحيد هو الذي جعلها تتحمل الآلام وتصبر على الهم والعذاب الشديد وهي محمولة الى ذلك البلد البعيد .

وعند وصول القوم الى طليطلة وضع السجينان في سجن الديوان – اي سجن محكمة التفتيش – وهو بناء مستطيل مكون من طبقتين في شارع ضيق .. وقد بني على الطراز العربي بسبب النفوذ الذي كان للعرب في تلك المدينة .

وما لبثت مرغريت أن وجدت نفسها مقفلة في حصن مظلم لا يحوي غير فراش من القش ومنضدة خشبية وكرسيين فقضت ليلها في سهاد شديد وحزن أليم .

وفي صباح اليوم التالي دخل عليها رجلان من حراس السجن فاقتاداها الى غرفة صغيرة على يمين الردهة الطويلة في الدور الارضي ذات نوافذ تطل على الحديقة ، ولكن هذه النوافذ عالية يدخل منها الضياء والهواء ولا لم تتمكن العين من رؤية الخارج .

وفي هذه الغرفة كانت المحكمة الدينية منعقدة لاستجوابها والتحقيق في تهمتها ، فلما دخلت رأت حيالها منضدة مستطيلة قد جلس عليها ثلاثة أشباح في قلانسهم المعروفة ، وهم رئيس المحكمة القسيس جوان أرانزيلو والعضوان اللذان يؤلفان معه هيئة المحكمة ، وفي ناحية من المنضدة الطويلة جلس الكاتب وعن شماله جلس القس لويس صالسيدو ، وقد سمح له بالجلوس في مكانه هذا لمعرفته بلغة المتهمة وباعتبار أن حضوره في مصلحة المتهمة نفسها كما هو في مصلحة المحكمة

التي تتولى محاكمتها .

ولما دخلت مرغريت تمشي بين حارسيها .. كانت تلوح رافعة الرأس متكبرة الى حد الخيلاء والصلف تمشي بخطوات ثابتة ، مقطبة الجبين في استياء يخالطه وعيد ، وأنفه يمازجها تحد ظاهر .

وكان جمالها ذاته ، ذلك الجمال الرائع الذي يأخذ بالالباب عاملا من العوامل التي ازعجت أولئك القضاة ، وكانت لا تزال مرتدية ذلك الثوب الذي يكشف عن نحرها الناصع ، كما لاح قدها الاهيف ، وخصرها الناحل ، يزيدها جمالا وفتونا

وكانت شاحبة اللون ؛ ذلك الشحوب الذي يكسب الوجه مسحة من النقاء ويجمله في جلال الطهارة والطهر كما كان نمها يبدي شدة عزمها وقوة ارادتها وفي عينيها بريق نظرات ثابتة ساجية هادئة ، ذلك الثبات أو الهدوء المستمد من نقاء الضمير وسمو الوجدان وروعة الكبرياء .

وتأملها القضاة في صمت لحظة وهي تتقدم الى حرم المحكمة . واذا بهم مطرقو الرؤوس . كأنما جعلتهم مهابتها وسكينتها وجمالها وهالة الطهر المحيطة بها وهي تمشي في محيط من نور يرعشون مخافة أن يستضعفوا امام هذا الجمال الحسي البادي امام أبصارهم ويتراخوا في تأدية الواجب الملقى على كواهلهم .

غير أن القس لويس هو الذي لبث وجلا ينظر اليها وفي عينيه بريق الدهشة والعجب ، وكان يعجب في خاطره كيف أن ابليس اللعين يأبى الا أن يحيط عباده فيما يخدع الاعين ويغوي القلوب .

ووقفت مرغريت امام المنصة ، وتمتم الرئيس جوان بكلمات قلائل من الاسبانية ، فلم يكد يسمعها الحارسان حتى تقدم احدهما فأشار اليها ان تجلس فوق المقعد القائم ازاء حرم

المحكمة ، تجلست بكل هدوء ووضعت يديها في حجرها وانتظرت ما سيكون .
وانسحب الحارسان باشارة من الرئيس ، واقبل هذا على المنصة قليلا وعاد يتأملها في سكون ، وكان الضياء قد تلألأ في تلك اللحظة من تلك النوافذ العالية فكشف عن وجهه فاذا هو يلوح تأملا مستقرا ذا عينين رحيمتين وفم حساس بل كان وجهه يبدو رقيقا رحيما ، يكسب السكينة والاطمئنان وحين بدأ يتكلم كان صوته منخفضا عندما تسكن الاذن اليه
وخاطبها الرئيس بالانكليزية وكان يتلعثم بها
بدأ يسأل الاسئلة المألوفة . عن اسمها وسنها الخ ...
ثم قال :
— المعلومات المقدمة الينا تفيد بأنك لسوء الحظ تعتنقين المذهب البروتستانتي الخارج على الدين . فهل تعترفين بذلك ؟
فابتسمت قليلا وراوا ذلك منها قبيحوا ، لانه لم تجر العادة من قبل أن يبتسم متهم في ذلك الموقف . وبخاصة حين توجه اليه تهمة خطيرة كهذه !
وأجابت قائلة : سواء اعترفت أو لم اعترف . فان هذا الامر يا سيدي يلوح لي أنه ليس من شأنك .
ومرت لحظة قبل أن يتنبه الرئيس من ذهوله وشرود خاطره وراح يخاطبها بكل رفق :
— بل من شأننا . لاننا نعمل على المحافظة على ملتنا من الزيغ والقضاء على كل ما من شأنه تعريضها للخطر .
قالت : يجوز في اسبانيا . ولكني لم آت اسبانيا باختياري ولا بارادتي وانما حملت اليها حملا فاذا كنت الآن هنا فما ذلك الا نتيجة اعتداء صارخ اصابني من سعيد من سادات اسبانيا الشرفاء .. لكل ما يحصنني من القوانين الاسبانية .

اذا طبقت بعدالة وانصاف . هو اصلاح ما وقع لي . ورد الظلم عني وتمكيني من العودة الى بلادي . ولستاعتبر نفسي الامجنيا عليها ومدعية تطلب العدالة .
وترجم الرئيس كلماتها الى زميليه عضوي المحكمة فبدت علامات الدهشة على صحنتيهما . وساد السكون لحظة واذا بالقسيس لويس يقول :
— ليت شعري هل يحتاج الامر الى شيء اكثر من هذا التصريح لثبوت التهمة عليها ؟ ألا ترون كيف تتكلم وتحاج وتناقش ببراعة شيطانية كأنها محام مجرب خبير بالقانون . فهل أنتم في شك من أين استمدت قوتها هذه ومن أين أتتها هذه الحجج الغريبة ؟
فأشار الرئيس اليه بالتزام الصمت قائلا :
— أنت هنا يا القس لويس بصفة شاهد فقط ولست محاميا ضد المتهمة أو لها . الا حين تسألك المحكمة .
فأحنى القس رأسه ممتثلا ازاء هذا التأنيب الخفيف واتجه الرئيس الى المتهمة مستطردا :
— ليس ذلك من اختصاصنا أيتها الاخت فان هذه المحكمة المقدسة هي فوق ذلك سلطة واعتبارا . لان اختصاصها هو النظر في الخطايا التي يقترفها الانسان في حق الرب ومن ثم فان اجراءات القوانين العادية لا محل لها هنا ولا اعتبار . ذلك انا أوضاعنا وطرائقنا ونحن نسترشد بهداية الرب فيما نحكم به ونكسب رضاه .
وتمهل قليلا ثم أردف بصوت رقيق متلطف :
— أقول لك هذا أيتها الاخت حتى تقطعي كل رجاء في محاولة الاحتماء بأي شيء قد لا تكون له صلة بقضيتك الا عرضا فقط أو بسبب الظروف .
ولكن هذا الكلام لم يخف المتهمة . وانما اشتد تقطيبها

وقالت :

– مهما يكن من قلة مبالاتكم بالاوضاع .. ومهما تكن التهم التي توجهونها الي ، فان هنالك على كل حال نظاما معينا للاجراءات ، وهذا النظام يقضي أولا وقبل كل شيء بأن تسمعوا مني الدعوى التي أريد أن أقدمها بالنظر الى أن الاعتداء الذي وقع علي ، حدث قبل موضوع التهمة التي يمكن أن توجه الى فاذا ما سمعتم دعواي . ولكم أن تسألوا في امر صحتها القسيس لويس كشاهد اثبات ، واذا ما حققتم علامتي ورشمتم القسيم نفسي وعاينتم الحالي على اساءته ، وجدتم ان كل اتهام يوجه نحوي قد اصبح لا محل له ولا قيمة ولا اعتبار ، فان كل ما انتهيه من هذه الاجراءات التي تتخذونها نحوي هو ان ذنبي عندكم أنني في اسبانيا وأنا أدين بالمذهب البروتستانتي ، وأنا أكرر ما قلته لكم وهو انني ما جئت الى هذه البلاد بمحض اختياري ، وأن وقع الظلم عني هو في ذاته تقل منها حتى لا الوث بدلني تربتها الطاهرة .

فعبس الرئيس وهز رأسه قليلا وقال بلهجة العتاب والأسف :

– أراك تتهكمين أيتها الاخت .. ؟

قالت : قد لا يظهر الحق أحيانا الا من طريق التهكم .. انكم أيها السادة تخيفون وتقسكم وتسيئون استخدام سلطتكم . لانكم تنسون أنني لست من رعايا ملك اسبانيا ولست في حدود أملاكه باختياري .. وليس لانجلترا سفير في الوقت الحاضر بعاصمة اسبانيا .. ولكن سفير فرنسا قد يتوسعته في قضيتي وانا أحب أن ألجأ اليه وأرجو حمايته .. ولا أخالكم تنكرون على هذا الحق !.

فأجاب الرئيس بقوله :

– اسألي يا أخت حماية الرب .. فانها الحماية الوحيدة

التي تعني شخصه .

وكان القسيس جوان قد بدا يتأثر ويتألم ويشفق في أعماق صدره على هذه المخلوقة الضالة التي لا تزال تتعلق بحجج واهية في سبيل الخلاص من الشرك المخيف الذي وقعت فيه .

ومال على زميليه ليشاورهما في الأمر .. ثم اقبل هو بعد هذا على المنصة فقال موجها الخطاب اليها

– نحن رأينا لكي نختصر هذه المحاجة العميقة ان نأخذ بأقوالك واعترافك .. من انك تدينين بالمذهب اللوثري – البروتستانتي – أو الخوارج – ونحن في هذا انما ننظر نظرة رحيمة لانك انما وقعت في خطيئة ترجع الى نشأتك وتربيتك .. ولكن اذا أنت أردت منا الرحمة التي لا نضن عليك بها وجب عليك أن تدلي الينا باعتراف تام صريح كامل عن كل المعاصي والخطايا التي أنت متهمة بها .

وهمت مرغريت بان تقاطعه لولا ان رأت يده ترتفع مشيرة لها بالسكوت .

واستطرد هو قائلا :

– أما الحجة التي تتذرعين بها وهي انك لست موجودة في اسبانيا بمحض اختيارك فالجواب القاطع عليها انك فيها نتيجة التصرفات التي أنت متهمة بها ومن ثم فالمسئولية عن وجودك في هذه البلاد واقعة عليك كما لو كنت قد جئت اليها باختيارك .

فأثار هذا المنطق سخريتها واشمئزازها وقالت

– لقد سمعت ابي يقول انه ليس هنالك شيء يشوه الحقائق أشنع من هذه المغالطة . والآن قد أدركت صواب ما قاله .

ولكنه تجاهل كلماتها ومضى فى سرد تهمتها :

– انك متهمة باستخدام الفاتن السحر فى اغواء الدون بدرو دى مندوسا حتى اضللته واخرجته من دينه وكان الصادق الايمان التقى العابد كما جعلته يدنس شرفه ويعصى ربه باعترامه الزواج بكافرة مارقة من دين الله ، وانت متهمة ايضا بالتجديف وهو منتظر من امرأة تشتغل فى سبيل الابالسة فهل تعترفين بخطيئتك ؟

فصاحت مرغريت قائلة : اتسألنى ان اعترف . اتريد منى ان اقر باننى اشتغل بالسحر . رباه ! يخيل لى اننى فى مستشفى المجاذيب ؟

فهز الرئيس كتفيه كأنه لم يسمع شيئا واسترسل :

– فاذا صحت هذه التهمة سقطت دعواك بانك هنا لانك شريفة اسبانيا اعتدى عليك ، وسقطت ايضا مطالبتك بالالتجاء الى المحاكم المدنية عن طريق سفير فرنسا او غيره لانه قبل ان تسمع اية محكمة دعواك ضد الدون بدرو دى مندوسا يجب بالضرورة ان تثبتى براءتك من التهمة الموجهة اليك .

فاجابته على الفور قائلة وقد استعادت هدوءها وتمالكت ارادتها :

– وهذا ليس بشاق على ولا عسير ، على شرط ان يكون فى اسبانيا عقول تفهم والباب تعى . اولا دعنى اسألكم من هو صاحب هذه التهمة الموجهة ضدى ؟ هل هو الدون بدرو ؟

ولم يجب الرئيس حتى استشار زميليه والقسيس لويس كذلك ، ثم استطرد :

– اعلمى ان الدون بدرو ليس هو الذى يدعى عليك هذه الدعوى وانما التهمة تستند الى شهادة رجل يحق له بخبرته وعلمه ان يستخلص منها ما يستحق استخلاصه .

وتمهل لحظة . ثم استطرد :

– ولم تجر العادة فى هذه المحكمة قبل الآن بمكاشفة المتهم باسماء الذين ابلغوا عن جنايته ولكنا لا نمانع فى الانحراف هذه المرة عن هذه القاعدة حتى لا تشعرى باننا لا نريد ان نوفيك القسط الذى تستحقين من العدالة ، ان الشاهد او المبلغ هو القسيس لويس سالسيدو !

فلم تكد تسمع ذلك حتى دارت برأسها الجبال نحو القس ولم يتراجع القسيس حيال نظرتها الساخرة الهازئة المحتقرة وانما برقت عيناه بريق الاصرار والعناد .

والتفتت الى قضاتها تقول :

– لقد كنت فى وقت ما قد لجأت الى هذا القسيس اطلب حمايته . وذلك حين ادركت اننى وقعت فى خطر شديد هو شر ما يهدد امرأة فاضلة بالسوء وشناعة المصير . افهو الذى يشهد باننى استخدم السحر ؟!

فتبادلت المحكمة الرأى ، ومد عضو اليسار يده الى الكاتب فتناول منه ورقة فنظر فيها لحظة ثم دفع بها الى الرئيس فقال هذا :

– وستسمعك تحرى هذا الاتهام بحذافيره . حتى تتأكدى اننا نبدى لك كل الرعاية والصبر ونأخذ فى اموالك منتهى العدالة .

وراح يقرأ ما فى الورقة .

ولشد ما كانت دهشة مرغريت اذ علمت أن هذا القسيس كان يسترق السمع عليها هى والدون فى احاديثهما وتجاذبهما الكلام فى الفترة . وكان يدون لديه كل كلمة تبلغ اذنه .

وتلا ذلك بيان طويل مفصل عن المحاولات التى حاولها القس لتحويلها عن مذهبها وهدايتها من ضلالها ، وكيف انها

كانت تفسر الآيات على هواها وتشوه معانيها وتعللها لأغراضها مثل الشيطان الرجيم والعياذ بالله .

ومن ذلك عرف مصدر الوحي الذي يتنزل عليها . وهو ابليس اللعين ووسواسه وادرك سر وقوع الدون بدرو في حبائلها واستسلامه لفتنتها واعترافه بنفسه في احاديثه لتلك المرأة بأنه في حبه لها مدفوع ضد ارادته بقوة خارجية عنه ، قوة مجهولة لا يستطيع لها مقاومة ولا عصيانا .

وانتهى القس لويس من مذكرته بالسؤال عما عسى ان تكون تلك القوة المجهولة الغلابة التي يشير الدون بدرو اليها غير قوة الوسواس الخناس ابليس الذي استخدم تلك المرأة لتنفيذ غايته وماذا يمكن أن يكون من نتيجة ذلك غير شيوع الزندقة والكفر في اسبانيا بسبب زواج الدون بدرو بتلك الساحرة !

ووقف الرئيس عن التلاوة والقى الصفحة الاخيرة من الاوراق أمامه وراح ينظر بعينيه الرحيمتين الى وجه المتهمة وهو يقول :

ـ الآن عرفت التهمة ، والمتهم . فهل تنكرين شيئاً مما جاء في هذه الاوراق التي تليت عليك ؟

وكانت ساكتة شاحبة قد فارق عينيها بريق التحدي وزال ظل الإبتسام الذي كان يتموج على شفتيها . وبدأت تشعر بالحبائل التي امتدت حولها لايقاعها في الفخ ، حبائل التعصب والخرافة والنعرة الدينية ولكنها مع ذلك استجمعت آخر قواها لتدافع عن نفسها فقالت بكل ثبات :

ـ لست أنكر شيئاً مما ورد من الوقائع في هذه الاوراق فقد دونت بدقة تامة ، وهي صحيحة بقدر ما في الاستنتاج منها من كذب وبهتان وتجريح عجيب .

وترجم القس لويس عبارتها ودون الكاتب جوابها وابتدأ القس الرئيس يستجوبها قائلاً :

ـ ما هي تلك القوة التي كان الدون بدرو يشير اليها في عبارته تلك التي وجهها في حديثه ، اذا لم تكن هي القوة التي فسرت بهذا التفسير ؟

فصاحت به قائلة :

ـ من اين لي علم ذلك ؟

واعار الألم صوتها قوة تأثير ورهبة نغم ورنين أليم .

ولكن الرئيس ظل هادئاً يظهر صبراً طويلاً كصبر القديسين ، وحلماً ليس كمثله في حلم الحلماء .. واستطرد

ـ والا كيف تفسر خروج الدون بدرو على مقتضيات الشرف والتمسك بالدين الا اذا كان قد جن وفقد عقله ولبه واستمع الى هواه .

فأجابته قائلة :

ـ هذا هو التفسير الوحيد بالفعل الذي يمكن استخلاصه من سلوكه و ..

غير أن الرئيس قاطعها برفق وهو يبتسم ابتسامة ماكرة . قال :

ـ أنت مريبة في التفاظل المجمع ولكن هذا كله تضييع للوقت أيتها الأخت . ونحن قضاتك لا نتردد في مساعدتك على تبرئة نفسك . فاذا ما اردت أن نجعل شفقتنا عليك منتجة ولنستخدمها كواجب يقضي علينا بانقاذ نفسك من الضلال ، وجب عليك أيتها الأخت أن تعاونينا على تأدية هذا الواجب .. وذلك بأن تعترفي لنا اعترافاً كاملاً صريحاً بالتهمة

الموجهة اليك ·

فصرخت قائلة : اعترف ·· ! اعترف بماذا ·· ؟ هل اعترف بهذا الكلام الفارغ ·· وهذه الاستنتاجات الجنونية ·؟

واستضحكت عابثة مستهزئة واستأنفت :

ـ هل اعترف بأن اللادى مرغريت تريفانيان تشتغل بفنون السحر ·؟ رحماك يا الهى ·! ولكنكم يا هؤلاء تحتاجون الى بينات أكثر من هذه وبراهين لاثبات تهمة غريبة كهذه التى توجهونها الى ·!

وهنا التفت نحوها عضو اليمين فقال طالبا من القس لويس أن ينقل اليها كلماته :

ـ ان البينات الاخرى التى نحتاج اليها لادانتك ننتظرها منك أيضا · فدعينا نرجو اليك أن تدلى اليها حتى يمكننا أن ننقذ روحك من نار جهنم تصليها أبدا · أما اذا لم يكن التكفير والندامة الصادقة يكفيان لحملك على الاعتراف · فان عند ديوان التفتيش وسائل تجعل أشد الناس اصرارا على الكتمان يعترف بالحقيقة ·!

وسمعت مرغريت هذه الكلمات التى نقلها اليها القس لويس فشعرت بقشعريرة · وسرت فى أوصالها رجفة رعب شديد · وظلت تتطلع الى هؤلاء القضاة الثلاثة الجالسين حيالها وهى شاردة النظر مضعضعة الحواس ·

ورأت الرئيس يرفع يده باشارة الانصراف ·· فأحست يدا تمس كتفها ·· واذا هى يد أحد الحراس ·· فادركت أن الجلسة قد انتهت ، فنهضت متثاقلة وهى تشعر بالخوف أخيرا وقد استولى عليها وحطم قواها ، فتركت نفسها تقاد بين حراسها الى السجن الموحش الرطب الأليم ·

الفصل الثامن عشر
الحلم

وتركت مرغريت يومين كاملين لتفكر فى أمرها فى تلك الوحشة الأليمة فى السجن · وكان القوم قد تركوها هكذا فى محبسها على أمل أن يحملها الوعيد الذى توعدوها به على التسليم وترك العناد ·

ولكن تفكيرها مع ذلك اتجه اتجاها آخر عكس ما كانوا يؤملون وقد أظهرت هذا الاتجاه أمام قضاتها حين استدعيت الى الجلسة التالية ·

وقد حدث تغيير طفيف فى هيئة المحكمة ·· وذلك أن عضو اليمين استبدل بآخر يفهم الانكليزية ويتكلم بها · ولكنه مخيف السحنة تدل ملامح وجهه على القسوة المتناهية، كما استبدل كاتب الجلسة برجل سواه يعرف لغة المتهمة حق المعرفة ، وقد حضر القس لويس هذه الجلسة أيضا ·

وابتدأ الرئيس من حيث انتهى فى الجلسة الأولى فعاد يرجو الى المتهمة ان تساعد المحكمة على استعمال الحلم معها بأن تدلى باعتراف كامل صريح ·

واذا كانت مرغريت قد استسلمت للخوف والحزن من ناحية لفقد قواها وبعدها من زوجها الغضب والتأثر بذلك الاكتشاف الذى كانت تعتقد أن تفكيرها فى السجن خلال اليومين الماضيين قد ساقها اليه ·

قالت : أليس أجدر بكم وأنتم تظهرون حرصكم على الحق أن تسمحوا للحقيقة بأن ترفع رأسها ·؟

قال الرئيس بلهفة : الحق ·؟ وأى حق تعنين ·؟

قالت ما دمت قد سألتنى فانى محدثتك : ان الدون بدرو دى مندوسا أولوتا عظيم من عظماء اسبانيا ·· ولكن

تصرفاته كانت تصرفات وغد اليم تقع تحت طائلة العقاب في المحاكم المدنية .. فضلا عن انه اقترف جناية في حق الدين .. وهي التجديف والوعيد لأحد رجاله .. وسفك دم آخرين من عمال وشرطة .. وهذه كلها اعتداءات يمكن أن يحاكم عليها في محاكم تفتيشكم . ولكن نظرا الى أنه رجل عظيم وكبير النفوذ ومن الشدة والصعوبة العمل على عقابه لم تجدوا بدا من البحث عن وسيلة لنقل التبعة واللائمة الى سواه . أي الى من يكون كبش الفداء عنه . ومن هنا اخترعتم فكرة انه لم يكن مسئولا عما فعل لأنه كان مسحورا وتحت تأثير امرأة انكليزية كافرة تشتغل بالسحر فهي التي افسدته في هذه الدنيا وستكون السبب في حرمانه من نعيم الآخرة !.

وليس عندي ما أقوله أكثر من هذا الذي قلته سوى أن هذا التصرف الذي تتصرفونه نحوي مؤلم قاس شنيع لا يليق . واذا أصررتم عليه فسوف تحاسبون عليه ان عاجلا او آجلا فان الله لن يترك هذا الفعل المنكر بغير عقاب .

وتمهل الرئيس جوان حتى كف الكاتب عن الكتابة ونظر اليها مليا بعينيه الرحيمتين ثم قال :

ـ اننا ننكر هذا الذي تصفيننا به بكل قوانا . اذ ليس في خاطرنا ان نعفي من العقاب أي انسان مهما عظم شأنه وعلا قدره اذا ما أذنب يوما في حق الله ونحن فوق هذا الاتهام . بل نحن نؤثر ان نذهب الى النار بأنفسنا على أن نخل بواجباتنا المقدسة فنلقي بهذا أيتها الأخت وعودي الى مجلسك لكي تعيدي التفكير في أمرك وأدعو الله أن يلهمك الصواب اذ يلوح لنا أنك لا تزالين في حالة نفسية لا تساعدنا على الاستمرار في محاولتنا في مصلحتك ورحمة بك .

ولكنها لم تشأ الانصراف . بل ظلت أن تسمع اقوالها

في الدفاع عن نفسها

فقال الرئيس جوان مندهشا : ماذا يمكن ان تقولي أيتها الأخت ازاء الحقائق والوقائع الثابتة ضدك . لست أرى خيرا في استمرار الجلسة اليوم .

ولكنه مع ذلك أشار بيده الى أحد الحراس أن يقف وكان قد تقدم ليأخذها الى السجن .

وانشأت هي تقول : ليس ما تستندون اليه حقائق ولا وقائع . ولكن مجرد استنتاجات وتخريجات ما انزل الله بها من سلطان . فليس في وسع أحد أن يثبت علي تهمة السحر التي اصطنعتموها ضدي . ولو بالشهادة على أنني رؤيت يوما اتمتم بتعاويذ . او أطلق بخورا أو غير ذلك . وانما كل ما فعلته هو التسامح والتغاضي عن تصرفات شخص ما بسبب نفوذه وسمو مركزه في المجتمع . والاكتفاء بإدانتي لتبرئته .

وكان الرئيس جوان قد تأثر لها . وكاد يميل الى جانبها . لولا انه لم يلبث أن قال لنفسه أن الظواهر كثيرا ما تخدع وأن الشيطان قد يتخذ سمات الطهر أحيانا تحقيقا لغاياته ومقاصده .

على أنه ترك لها سبيل الكلام . لأن اجراءات المحكمة تقضي بأن يترك للمتهم مجال القول واسعا لعله اذا تكلم كشف عن نفسه وهو لا يدري .

ولذلك استأنفت قائلة :

ـ واذا صح انني استخدمت فنون السحر لحمل الدون عدو على الزواج بي واعتناق مذهبي الذي ترونه كفرا وزندقة . فلماذا لم احجزه في انجلترا وانفذ كل مقاصدي آمنة من كل خطر او سوء .

فبادرها عضو اليمين بالجواب قائلا :

- لا شك في أن رغبتك كانت منصرفة الى مشاركة الدون بدرو في ثرائه ومركزه ومجده وسلطانه . ولكني اذا علم هنا في اسبانيا أنه بقي في انجلترا بسبب الزواج بكافرة فان أملاكه جميعا تصبح في خطر من المصادرة كما يصبح هو نفسه معرضا للحكم عليه بالاحراق في النار .

وابتسم الرجل كمن أعجبه الرأي البديع الذي رآه .

والتفت اليها الرئيس قائلا : هاك الجواب !

فاربد وجهها شاحبا من الذعر والألم . وصاحت به قائلة :

- اتسمي هذا الكلام الفارغ جوابا ؟

وكانت تلك صرخة يأس . غير أنها ما لبثت أن تمالكت نفسها فعادت تقول :

- حسنا جدا . دعونا اذن نفحص في ناحية أخرى هذه المسألة التي تريدون أن تسموها حول . هل تسمحون لي باستجواب المبلغ ؟

فنظر الرئيس اليها نظرة عطف حائر . ثم التفت الى القس لويس ليستعد لاسئلتها

قالت : اذا كان كل ماذكره القس لويس يثبت أن الدون بدرو وقع تحت تأثير السحر كما يدعي - لانني لا أعرف شيئا كهذا - فكيف يمكن أن يكون هذا اثباتا على بأنني أنا التي سحرته ؟

قال : يا عجبا ! اتسألينني كيف ؟

وراح ينظر اليها مليا . ثم التفت الى المحكمة لانه لم يستطع أن يتحمل نظرات عينيها المتحديتين .. قال :

- لم أتم اتهامي لهذه المرأة على أساس هذا الذي قلته

فقط عن السحر والفتنة الشيطانية ولكني أذكر المحكمة الموقرة انما شرحته في مذاكراتي ولقد كتمت عنكم شيئا آخر لم أجرؤ على الاعتراف به في تلك الاوراق ولكني اعترف به الآن واستميح المحكمة المقدسة الرحمة والصفح . اني أعترف امامكم بأنه كانت تمر بي لحظات أشعر فيها بأنني موشك على الوقوع في خطر سحرها الجهنمي . كنت أنا فيها قد بدأت أشك في حقائق الدين والكتاب المقدس بسبب تفسيراتها المضللة وتأويلها الغريب . عندئذ أدركت أنها في خدمة ابليس اللعين . فقد كانت تهزأ بي ومن كلماتي واستشهادي بآيات الله وكلامه وتضحك ضحكات السخرية والعبث والاستهزاء .

وتحمس القس لويس والتهبت مشاعره وفاض فيضه الخطابي حتى ملك أسماع المحكمة وأثر في نفوس سامعيه .

ثم جلس وقد أخذ رأسه بيديه وهو يرتعش من قرعه الى قدمه وقد خذلته شجاعته في اللحظة الأخيرة فلم يجسر على أن يضيف الى ما صارح المحكمة به ان البرهان الاخير القاطع على مكرها وسحرها هو ذلك التأثير الرهيب الذي غمرته به وهاجمته من ناحيته في معقل عدالته وطهارة احساسه ونقاء جوارحه .

لم يجسر على أن يعترف أمامهم كيف كان لجرمها الناصع وصدرها الناهد وجسدها الاملد يتمثل له في خياله ويبدو له في خلوته الى نفسه حتى لقد كاد يتنحى عن واجبه نحو دينه ويمتنع عند وصول السفينة بهم الى سانتاندر عن تبليغ أمرها الى ديوان التفتيش . وكيف كان يوشك أن يلقي بالقلم جانبا فلا يكتب مذكراته . مخافة على جمالها الفاتن وجسدها البديع وحسنها الساحر الأخاذ بمجامع القلوب من عذاب الحريق الذي يجب . عدالة وانصافا . أن يشوى به شيا .

وسمع صوت الرئيس وهو يسألها برفق عما اذا كان ذلك الجواب قد أقنعها ؟ .. كما سمع صوتها وهي تقول :

— لم نسمع غير كلمات لا معنى لها ولا يمكن ان تقوم برهانا
صحيحا للأخذ به . هو يقول انني كنت اناقشه بمكر وخبث في
أمور تتعلق بالدين . وأنا أقول ان مناقشتي له كانت بناء على
ما تعلمته من المجلد الذي عثر به فهل يدل هذا على السحر؟
لو كان الأمر كذلك لكانت كل امرأة بروتستانتية الآن ساحرة!

وعند ذلك لم يسألها الرئيس الأسئلة بل أغلق وفض
الجلسة وأمر برد المتهمة الى السجن .

ولكن لم يكد الحراس يسوقونها حتى التفت الى القس
لويس فالحق عليه بالاستجواب على سبيل ازاحة ضميره .
وظل يطيل في مناقشته ومحاسبته حتى أن عضو البحث احتج
قائلا :

— ان المبلغ بالمتهمة قد أصبح نفسه متهما !

فتلقى القس جوان هذا الاحتجاج عابسا متجها لزميله
مذكرا له بقوله :

— ليس استجوابي له قانونيا فقط بل أمرا مستحسنا
ومرغوبا فيه . ومناقشة المبلغ في هذه القضية على الخصوص
واجبة لأنه لا توجد بينة غير شهادته هو ومحض أقواله .

فأجاب عضو البحث قائلا : ولكن هناك شهادة الوقائع .
شهادة العبارات التي فاه بها الدون بدرو والتي اعترفت المرأة
نفسها بأنه حقيقة فاه بها وحقيقة ما ذكره القس لويس تماما في
مذكراته وتقاريره . فاذا كان حضرة الرئيس يريد أن يريح
خاطره فلا يحسن أن يحيلها في الحال الى غرفة الاستجواب!

ولم يكد القس لويس يسمع بهذا الاقتراح حتى تحمس
صائحا :

— نعم . غرفة الاستجواب! لندع التعذيب ينتزع
الحقيقة من هذا الفساد السيء الذي نعثر عليه . وبهذا تستطيعون
التوكيد الذي يساعد على اصدار الحكم .

ولكن القس جوان تجهم وعبس ونظر الى عضو البحث
مغضبا وهو يقول : أتقول لكي أريح خاطري؟ أهل أنا جالس
هنا في مقعد الحكم وبمركز القضاء لكي أريح خاطري؟ ومتى كانت
راحة خاطري أو قلقه بالنسبة لخدمة ديني وتأدية واجبي حق
مني وديني؟ نحن سوف نصل الى الحقيقة في النهاية مهما
تعبنا واجهدنا أنفسنا في سبيل استخلاصها ولكننا سوف
نستخلصها لحق الله ومرضاته وابتغاء وجهه لا لراحة بالنا
أو بال انسان في هذا الوجود .

ونهض من مجلسه منتصبا تاركا عضو البحث متعجبا
مرتبكا لا يجد جوابا وهم القس لويس بأن يتكلم . لولا أن
أشار اليه الرئيس قائلا له على سبيل التذكير انه ليس عضوا
من هيئة المحكمة فلا حق له في الكلام ما لم يؤذن له بذلك .

وفي خلال السكون الذي تلا تلك المشادة تناول الرئيس
الأوراق والملفات التي كان الكاتب يجهزها فقرأها بإمعان وقال
أخيرا :

— لنرسل صورة عنها الى المفتش العام في هذه المسألة
اجابة لطلبه .

وكان اهتمام المفتش العام في ولاية . كاستيل لشبلة .
وهو الكاردينال جاسبار دي كيروجا رئيس اساقفة طليطلة
بهذه القضية بالذات راجعا الى أن الدون بدرو كان كما ذكرنا
من قبل ابن أخته وكان عزيزا عليه . وهذا هو السر في أن
رجال التفتيش في الاقليم خشوا من النظر في قضية الدون
بدرو وأحالوها الى طليطلة حتى تكون تحت عين المفتش العام .

وقد شغلت هذه القضية خاطر الكردينال وأزعجته لا
مهما كان هنالك من السلطة والنفوذ ، ومهما كان في الوسع
تحميل متهم آخر جريرة التهمة ، فالواقع أن الدون بدرو ابن
أخته قد ارتكب جناية خطيرة . ومن المرجح أن يقال انه انما

أوتكيها فطمئنا الى المولد ، معتمدا على سلطان خاله وأراه شيئا كهذا لا مفر من أن يناله العقاب . وقد وقعت من قبل حوادث لم تتورع محاكم التفتيش فيها عن اصدار احكامها ضد الامراء والاشراف .

ولم يكن سلوك الدون بدرو وهو في سجن طليطلة يساعد على تخفيف مهمة الكردينال فقد كان يقابل التهمة الموجهة اليه بمنتهى الاحتقار وضحكات السخرية الممزوجة بالغضب . وجهر على القول بأن المحكمة بسبب مركزه وقرابته للمفتش العام تحاول تبرئته باختراع قصة السحر ، مع أن اللادى مرغريت لم تستخدم ضده سحرا اللهم الا سحر جمالها وفتنتها ، فاذا صح أن هذه المحاسن هي من فنون السحر وأعماله جاز ارسال كافة المليحات في العالم الى المحرقة لانهن من بعض النواحي ساحرات .

فكانت المحكمة أمام اصراره على هذا الكلام الذى يكفى لاثبات ادانته تحاول أن تنبهه الى هذا السلوك مضى به . باعتبار أن كلامه على هذه الصورة وسلوكه بهذا الشكل يدلان على أنه لا يزال واقعا تحت سحر تلك المرأة الكافرة وأن سحرها لا يزال متفشيا في نفسه وأعصابه . ولكن هذا التخريج الذى كان يراد به القاؤه يثير غضبه ، فكان يسمى القضاة بلهاء مغفلين وحميرا في الجهل وبغالا في العناد ، بل لم يتردد في أن يقول لهم مرة انهم هم الذين ركبتهم الشياطين واستولت على نفوسهم الابالسة ، وانهم في وحشيتهم وتعصبهم وتعطشهم للدماء يصح أن يسموا « الكلاب الضارية » !

هكذا واجه المحكمة في الجلسة ، فاضطر الرئيس الى تأجيلها وأرسل خبرا الى الكردينال كيروجا يبلغه وقاحة ابن أخته وسلوكه المعيب أمام المحكمة ، ويعلمه بأنه لا يرى الادلة كافية لثبوت الادانة بالنسبة لمرغريت من حيث تهمة السحر .

وان الاتهام الوحيد الذى يمكن السير في الدعوى من جهته هو الكفر لانها لو كانت فعلا ساحرة ، فسوف تعاقب على سحرها ضمنا عند الحكم عليها من ناحية التهمة التى يصح اسنادها الى تلك المرأة .

وقال رئيس المحكمة في كتابه الى الكردينال ان المحرقة ستنعقد في طليطلة يوم الخميس التالى — السادس والعشرين من اكتوبر — وكان تاريخ الكتاب التاسع عشر منه — وانه يصح استباق التهمة بالكفر اليها لاعدامها حرقا بينما يجب ان يطهر الدون بدرو من الجريمة في الوقت نفسه في يوم التنفيذ بنوع من التكفير ستفكر المحكمة فيه وتعرضه على الكردينال لاقراره .

الفصل التاسع عشر

الملك

في الوقت الذى كان فيه الكردينال كيروجا المفتش العام بطليطلة ينظر ويفكر في فحوى كتاب رئيس المحكمة كان السير جرفاس كروسبي يلتمس المثول بين يدى جلالة الملك فيليب الثانى في قصر الاسكوريال .

وكان قد انقضى أسبوعين على الرحيل من لندن الى مدريد وكانت كلها آلاما وعذابا لا يطاق حتى لقد خيل اليه من القلق والجزع ونفاد الصبر ان السفينة بطيئة والسير متراخ والشقة مترامية ، وبينما كانت مرغريته العزيزة الغالية في أشد الخطر وهى أحوج ما تكون اليه كان هو متحرقا يكاد يجن من الكمد ، ويود لو استعار جناحى طائر ليصل اليها غير متمهل .

لقد كانت الرحلة حلما مزعجا . أحالت ذلك الفتى المرح الضحوك اللاهى رجلا عبوسا مكتئبا مستسلما للحزن والتفكير

ووصلت السفينة بهم الى خليج سانتاندير بعد وصول السفينة الاولى بستة أيام .

وكان نزولهم بذلك الثغر باعتباره أفضل طريق الى مدريد وكانت هي وجهتهم المقصودة لا ادرك جرفاس أن من العبث محاولة البحث عن مرغريت أو اقتفاء أثرها قبل أن يتسلح بتلك السلطة التي كان يؤمل أن ينتزعها من الملك فيليب ، فلتكن اذن وجهته رأسا الى حضرة ذلك الملك العظيم قبل القيام بأية محاولة .

ولم ترفع السفينة أي علم يعلن جنسيتها وهي تلقي المراسي في المياه الاسبانية ، فقد رؤي أن ذلك احتياط وحذر لا بأس به من أي خطر قد يقع لهم .

ولكن لم يلبث أن تبين أن العدول عن رفع علم فوق السفينة كان خطرا تماما كخطر رفع علم يمت الى دولة معادية الا لم تمض ساعة على رسوها حتى أقبل صندلان كبيران مليئان بالجنود المسلحين وعلى رأسهم محافظ الثغر نفسه وقد جاء يستطلع عن جنسية السفينة والغرض من قدومها على هذه الصورة وهي مسلحة ببعض المدافع مما يدل على أنها سفينة حربية .

فأمر أوليفر ترسيليان بانزال السلم وطلب الى المحافظ الدخول ولم يمانع في اصطحابه ثلة من الجنود بصفة حرس شرف وتقدم الى المحافظ بصفته ممثل الملك في الثغر ، السير جرفاس محييا ، ثم أخبره بأنه رسول من قبل ملكة انجلترا برسالة الى ملك اسبانيا . وتوكيدا لذلك أظهر له الغلاف بأختامه الملكية وشعاره المعروف .

فلم يكد المحافظ يعرف ذلك حتى نظر اليه نظرات الغيظ المكظوم ووجه اليه عبارات ترحيب جافة متحفظة .

وركب جرفاس صندل المحافظ ، وطلب اليه الاذن له

بانزال اثنين من رجاله الى البرليكوتا بصفة خادمين له . ولكن المحافظ أصر على أن يرفض الطلب .. واعدا بأن يكفل له اثنين من الاسبان بدعوى أنهما أنفع له وأصلح .. لمعرفتهما بالبلاد ولغتها .. فأدرك جرفاس أن الغرض من تعيينهما له هو أن يكونا حارسين عليه ، وأنه سيكون هو أيضا تحت الحراسة الى ريثما تنتهي وفادته .. أو يصدر أمر الملك بالكف عن هذا الاحتياط .

ولم يأبه جرفاس بهذه الاجراءات ، لأن كل غرضه هو أن يصل الى الملك بأية وسيلة .. حتى لو طلبوا اليه أن يشدوا وثاقه ليحملوه الى جلالته مقيدا في الاغلال لما تردد في القبول .

وكان الاتفاق يقضي بأن يبقى ترسيليان في سانتاندير منتظرا لحين عودته .. فاذا انقضى شهر ولم يعد اليه ولم يرسل له رسولا أو كتابا كان لترسيليان أن يفهم من هذا أن زميله قد خاب في مهمته .. وأن يعود الى انجلترا ليبلغ الملكة الخبر .

وقد قضى في سفره الى العاصمة ستة أيام حسوما .. ولكنه حين وصل اليها علم أن الملك ليس مقيما فيها .. وانما ذهب للاقامة حينا من الزمن في الاسكوريال .. وهو قصر منيف قائم فوق جبل شامخ .. أنشأه الملك لنفسه .

ولم يلبث أن احتواه في القصر بهو فسيح وقف فيه جمع من الناس حلقات .. بينما كان آخرون يروحون في جوانبه ويغدون ، بين ضباط في ثيابهم العسكرية .. وبلاطيين في أوشحتهم الزاهية .. وقساوسة ورهبان في مسوحهم السود .

ولما دخل جرفاس أقبل حاجب فاقتاده الى غرفة صغيرة حيث نزع أسلحته قبل المثول في الحضرة الملكية .

ووجد جرفاس نفسه في حجرة صغيرة بسيطة الأثاث

.. وزكمت أنفه روائح الادوية وعبق العقاقير .. وقد وضعت في وسطها منضدة مربعة فوقها رزم من أوراق ودواة وأقلام .

وفي مقعد خشبي بسيط جلس أعظم ملوك عصره وزمانه .. مرتفقا حافة المنضدة بيمناه .

وجد جرفاس ازاءه رجلا صغير الجثة ، هزيلا خاويا ، معضن الوجه كثير التجاعيد ، ذا جبين ناتيء ، وعينين صفراوين زرقاوين ، أو تكادان تكونان عديمتي اللون، وقد قام من تحتهما أنف بارز كأنف النسر ، وكان فمه منفرا لان فكه الاسفل منحرف الى الامام بشكل قبيح ، ذا شفتين صفراوين باهتتين تفغران باستمرار فتكشفان عن فم لا أسنان فيه . وقد تراخت خصلات من الشعر من ذقنه المنتوف في موضع اللحية منه ، وله شاربان رفيعان مضطربان وشعر ناحل رمادي وخطه الشيب . !

وقد جلس مادا ساقه اليسرى التي قرح النقرس فيها فوق كرسي صغير مغطى بنمرقة ، وهو متشح بالسواد ، لاحلية عليه غير شعار الاسرة الملكية وهو « الفروة الذهبية » حول عنقه .

وكان ممسكا بالقلم في يده يضع ملاحظات على أوراق يقرأها وهو مستمر على هذا النحو طويلا متجاهلا وجود سير جرفاس الماثل بين يديه .

ومن خلف الملك . وقف رجل متوسط العمر طويل العود في مسوح الجزويت وردائهم المسبغ الطويل ، وكان هذا الرجل كما يعلم جرفاس بعد لحظة هو الاب « الن » الذي يصح أن يعتبر سفيرا للكاثوليك الانكليز في بلاط فيليب ، وكان موضع احترام جلالته ومحل لرعايته واحسانه .. وعند الناقتين وقف القسيس دييجو دي كاف .

وظل القلم في يد الملك يمر على الاوراق مستمر الصرير بينما ظل جرفاس واقفا في مكانه لا يتحرك منتظرا حتى يفرغ الملك مما هو ماض فيه وبجانبه الضابط الذي جاء به ، وكلما مرت اللحظات به وهو على هذه الصورة منتظر ، ازداد عجبه من منظر هذا المخلوق القزم الحقير الذي تقتحمه الابصار من فرط دمامته ، حتى لقد تمثل له أشبه شيء بعنكبوت قذر جلس في وسط نسيج خيوطه !

واخيرا تناول سانتوير الخادم الاوراق من جلالته ، وعند ذلك أرسل الملك من تحت جبينه الناتيء نظرة سريعة من عينيه الباردتين الجامدتين الى وجه ذلك الانكليزي الطويل القد الماثل في حضرته من لحظات طوال .

وبدأت الشفتان تختلجان ، وما لبث أن انبعث من بينهما صوت منخفض في كلام سريع ، أشبه بطنين حشرة في ذلك السكون الرهيب .

وكان كلامه بالاسبانية ، لانه لم يكن يتكلم أو يقرأ غيرها اللهم الا قليلا من اللاتينية مما وعاه في المدرسة .

وكان سير جرفاس يعرف من الاسبانية ما يكفي للاغراض الاعتيادية ولكنه لم يستطع ان يلتقط من كلام الملك لفظة واحدة فوقف مرتبكا لحظة حتى انبرى الاب « الن » فترجمه له فكانت لهجته تنم عن أصله الانكليزي .

قال : ان جلالة الملك يقول لك يا سيدي أنه يعرف انك رسول اليه من قبل ملكة انجلترا وانك تحمل رسالة الى جلالته .

فاخرج سير جرفاس الرسالة من صدره وتقدم ليعرضها فصاح به الراهب الجزويتي قائلا في لهجة حادة آمرة :
- اركع يا سيدي !

فامتثل سير جرفاس للأمر طائعا ومد الملك فيليب يد
كأنها أشبه بيد جثة ميت لاشتداد بياضها ، وتناول الرزمة ،
وكأنما راح يزنها فى كفه لحظة بينما جعل يقــرأ العنوان
المكتوب بخط الملكة على الغلاف وانثنى يقلبه بين يديه ويفحص
الأختام .

وأخيرا ، وبهزة من كتفه ، فض الأختام ونشر الكتاب
بين يديه وجعل يقرأه .

وكان جرفاس قد انهض من جثوته توقف يتأمل وجــه
الملك بلهفة زائدة وقلق شديد ، فاذا به يرى عبسة تهبــط
تدريجيا الى قمة ذلك الأنف المستطيل ويشهد الشفتين تختلجان
وتتحركان مرة أخرى واليد ممسكة بالرسالة ترعش بشــدة
كأنها أصيبت بفالج فجائى .

وعاد الملك يتكلم ولكن الغضب فى هذه المرة أعاد صوته
قوة وجعله مسموعا فى الحجرة كلها وفهم جرفاس كل لفظة
منه بوضوح وجلاء .

قال وهو يحرك الورقة فى يده الناحلة بحركة غضب
شديد :

ــ لعنة الله على تلك الكافرة الوقحة !!

وفى الحال تلاشى صرير أقلام الكاتبين الجالسـين الى مكتبيهما
فى ناحية من القاعة ، كما وقف سانتوير التابع الخاص والأب
الن والقسيس ديبو جامدين فى أماكنهم ممسكى أنفاسهم من
رهبة الموقف وهو السكون الذى ساد المكان .

وتمالك الملك نفســه بعد لحظات طويلة وانثنى يقول :

ــ ولكن هل يمكن أن أكون مخطئا ؟!

وعاد ينشر الورقة المعروكة المضطربة وهو يقول :

ــ اقرأها يا الن على مسمعى مرة أخرى أو ترجمها لى

واجعلنى أفهمها تماما بلا أدنى خطأ !

فتناول الجزويتى الرسالة وراح يقرأها ويترجم ما فيها
بالاسبانية بصوت يتزايد رعبا واستنكارا .

وكان هذا أول علم سير جرفاس بلهجة الخطاب الذى
تلقاه من الملكة وأسلوبه وكلماته .

كان رهيبا فى ايجازه ، رهيبا فى جلائه ووضوحه ، مكتوبا
باللاتينية ، واصفا حادث الاختطاف وظروفه ، خاتمة رسالتها
بأنه اذا كان جلالته يريد معلومات أخرى فليسأل رسولها اليه ،
مذكرة له أن لديها فى سجن برج لندن الاميرال الاسبانى دون
بدرو فالديز وسبعة من أشراف مملكته أسرى سجناء تحت
يدها .. منذرة بأنه اذا لم تعد الليدى مرغريت الى بلادها سالمة
لم يمسها سوء ، واذا لم يرجع السير جرفاس كروسبى ورفقاه
من أسبانيا بعد حمل رسالتها اليه فسوف تبعث الى جلالته
برؤوس الدون فالديز وصحبه ، غير مبالية بتقاليد الحرب
وشعائر الأمم وتدابيرها المتبعة مع الأسرى والسجناء .

وساد السكون لحظة وقد جلس الملك صامتا يفكر ، ثم
رفع صوته قائلا :

ــ هذه وقاحة لا معنى لها ، وتهديد فارغ لا قيمة له ، ان
امرا كهذا لن يكون ، ولن يسمح شعبها البربرى باقتراف جناية
بربرية كهذه ، ولكنها محاولة منها لتهديدى بالخيالات والأشباح
ولكن أنا فيليب أسبانيا لا أهدد بالأشباح .

فأجابه جرفاس بجرأة قائلا : لن تشهد أشباحا أمامك
حتى تسلم اليك تلك الرؤوس يا مولاى .

فلم يكد يفوه بهذه الكلمات حتى بهت الجميع وساد
الحجرة صمت رهيب من أثر الدهشة التى استولت عليهم
لتلك الجرأة العجيبة .

ونظر الملك اليه ثم اشاح عنه بوجهه ، وقال برفق :
ـ أحسبك انت الذى تكلمت ؟ فمن الذى اذن لـك فى الكلام ؟
فأجاب جرفاس بثبات جنان : انى تكلمت حين رأيت ضرورة للكلام ..
فعاد الملك يقول بسخرية وتهكم : تقول تكلمت حين رأيته ضروريا ؟ الضرورة اذن هى المبرر ، حقا انى أتعلم شيئـا جديدا يا سيدى ! وليس مثلى بالذى يمل المعرفة يوما او يسأم التعليم .. ولعل هناك أشياء أخرى تقولها لى مادمت متلهفا هكذا لسماع اقوالك .
وكان الوعيد الذى ينطوى عليه قوله وتنم عنه نظراته الثعبانية ، مخيفا مرهوبا ، وكان قد دار بعينيه نحو احـد سكرتيريه وراح ينادى :
ـ رودريك ! اين أوراقك لتدون لى أجوبته .
وعاد ينظر الى جرفاس قائلا :
ـ ان معك رفقاء كما يقول هذا الكتاب . فأين هؤلاء ؟
قال : فى سانتاندر ينتظرون رجوعى الى السفينة التى اقلتنى .
قال : واذا لم ترجع ؟
اجاب : اذا لم اكن على ظهر المركب فى اليوم الثالث عشر من نوفمبر فسوف يقلعون بها الى انجلترا ليبلغوا جلالة الملكة انك تفضل أن تتسلم رؤوس رجالك على تنفيذ العدالة التى تقتضيها الفضيلة فى ديارك .
فبلع الملك ريقه ونظر الآن الى الواقف خلفه الى هـذا الشاب الجرىء نظرة اشفاق وقال له بالانكليزية ناصحا :
ـ تذكر يا سيدى مع من تتكلم ؟ انى أحذرك لخـيرك

ومصلحتك !
فأبدى الملك اشارة لاسكاته والتفى الى جرفاس يسأله قائلا :
ـ وما اسم السفينة التى تنتظرك فى سانتاندر ؟
فأجاب جرفاس على الفور بتهكم وتحد ظاهر :
ـ تسمى « وردة العالم » ويتولى قيادتها مستر اوليفر تريسيليان وهو رجل شجاع مغوار ، يعرف افانين القتال فى البحار ، والسفينة تحمل عشرين مدفعا والاعين عليها ساهرة ليل نهار .
فابتسم الملك لهذا التهديد غير المكشوف ، وقال : سنختبر شجاعة هذا القبطان !
فأجابه جرفاس بقوله :
ـ لقد جربتم ذلك يا صاحب الجلالة من قبل فى رعاياكم فاذا جربوها مرة أخرى كانت التجربة أقسى وأسوأ عذابا . فاذا حيل بين السفينة والاقلاع الى بلادها والوصول الى سواحل ديارها فى موسم عيد الميلاد فسوف تأتى اليك الرؤوس السبعة بمثابة هدية العيد !
وكان الملك قد هدأ فى تلك اللحظة بعد أن عرف فى الحديث ما كان يريد أن يعرفه ، فقال وهو يدير ابهجته :
ـ اما انت أيها الكلب الانكليزى الذى لا تقل وقاحة عن المرأة الشريرة التى اوفدتك بهذه المهمة الوقحة مثلكما فسوف نعطيك درسا تتعلمه قبل ان نصرفك من حضرتنا .
ودفع يدا راعشة وقال :
ـ خذوه فقلوه . فانى سأطلبه مرة اخرى !
واجتذبه الضابط الى الوراء ليذهب به .. ولكنه ظل واقفا يحتج ويتذمر ، فنظر الملك اليه بسخرية .. وأشار اشارة

يديه ان يخنقوه !

فمشى جرقاس محتدما غاضبا وهو عاجز لا يستطيع مقاومة حتى اذا بلغ الباب راح يقول من فوق كتفه بينما كان الحارس يدفعه :

ـ تذكر رؤوس الاسرى وهاماتهم . واعلم انك انت الذى رضيت لهم الهلاك !

فاخـــرج من الحجرة عنوة ليتلقاه الجنود ويقتادوه الى السجن .

الفصل العشرون

ضمير الملك

كان تصرف الملك غريبا غير مألوف منه ، لانه لم يكن من طبعه ولا من عادته أن ينبعث مع عاطفتـه ويترك الغضب يتملك شعوره بل كان الصبر الفضيلة الوحيدة فيه ، واليها يرجع الفضل فى العظمة التى اكتسبها والشأو البعيد الذى بلغه .

لهذا كان غريبا منه أن يغضب تلك الغضبة التى تولته حين قرأ ذلك الكتاب ، وحين سمع كلام ذلك الرسول المتوقح الجرىء .

ولو ان اهانة كهذه وجهت اليه فى وقت غير ذلك الوقت لما سكت عنها ، وقنع بالغضب والانفعال منهـا ، ولكنه كان يشعر بعجز ، وفقدان حول ، وذهاب سلطان ، بعــد تلك الهزيمة البحرية التى اصابت اساطيله وحطمت سفنه وجواريه المنشآت فى البحر كالاعلام .

على انه وان كان قد ضعف ووهن امره الا انه لم يبلغ به الضعف حد العجز المطلق امام السخرية والضغط والوعيـد

والاكراه .

لذلك راح يقول للاب الن : ستعلم الملكة أن ملك اسبانيا لا تحركه النذر ولا يؤثر فيه الوعيد . أما هذا الكلب العقور الذى كان هنا منذ لحظة ورفقاؤه الذين ينتظرون فى سجونهم هؤلاء الكفرة والملاعين فان ديوان التفتيش سينظر فى شأنهم يا قسيس ديجو هذه المسألة تخصك .

فعادت الحياة تدب فى ذلك القسيس الذى كان واقفا ازاء النافذة كالصنم أو التمثال ، اذ تقدم ببطء خطوات قليلة نحو الملك وهو يقول بصوت عميق جياش :

ـ لست يا مولاى المقصود بهذا الوعيد ، وانما المقصود به قبل جلالتك هم أولئك السادة البواسل الذين أبلوا فى خدمتك أحسن البلاء وهم الآن سجناء فى انجلترا ينتظرون وصول الفدية من اسبانيا ثمنا لهلاكهم يا مولاى .

قال الملك وهو يغمز بعينيه الصفراوين :

ـ انهم مهددون فى حياتهم فقط ، ولكنى انا مهدد فى كـــرامتى وشرفى .. وهنا كرامة اسبانيا وشرفهـــا سواء بسواء .

فانحنى القسيس على المنضدة الخشبية وهو يقول :

ـ وهل يسلم شرف اسبانيا اذا نفذ هذا الوعيد فى ابنائها الكرام الابرار .. ؟

فحدجه الملك بنظرة قاسية .. ولكن القسيس استطرد قائلا :

ـ ان شرف اسبانيا قد اريق فى تلك الغـــارة البحرية الخطيرة التى اقدمنا عليها ضد الانكليز ، فهل يرضى جلالة الملك أن يضيف الى الدماء الزكية التى سفكت دم الخادم المخلص العظيم ، دون كالديز ، وهو اكبر مقاتل بقى لجلالتكم من الاحياء .. أم دم ، أوبرتو مركيز فوينتساليدا ، .. أو دم ، دون رامون

كاف ، أو ..

فقاطعه الملك قائلا : ثم الجيلك .. ؟ لقـــد انكشف سر حماستك .. ؟ مسألة عائلية اذن .. ؟

ولكن القسيس استرسل غير مكترث :

ـ هذا صحيح .. ! ولكن أليست هي مسألة عائلية بالنسبة لجلالتك أيضا .. أليست أسبانيا كلها هي أسرة الملك وقومه وأهله وعشيرته .. ؟ أليس بلاؤها وأشرافها هم ذوو قرابته وآل بيته الكريم .. ! فمن يكون هذا الانكليزي الوقح الذي كان هنا اللحظة ورفقاؤه الذين يرتقبونه في سالفاندر اذ هم قورنوا أو وضعوا في الميزان بجانب أولئك السادات الأشراف الذين يعيشون أسرى في تلك البلاد .

وقد يصح لجلالتكم أن تلقوا بهذا الوقح وأصحابه الى محكمة التفتيش لعقابهم بمثابة كفرة وزنادقة .. فان هذا من حقك ، بل من واجبك نحو الملة والدين .. ولكن هل يعوض هذا عن أولئك الأشراف الثمانية الذين سيطـــاح برؤوسهم ويؤتى بهاماتهم وهي تقطر دما فتلقى في حجرك ثأرا منــك وانتقاما .. ؟

وسمع الملك هذا القول فاجفل واضطرب .. وخيل اليه كأنما قد وضعت الرؤوس حقا في حجره .. ولكنه لم ين أن تمالك فقال :

ـ كلا .. أنا لا أسلم للوعيد .. !

غير انه لم يسكت عند هذا الحد .. ولكن الكلام الذي فاه به بعد ذلك نم على حقيقة شعوره .. فقد راح يقول :

ـ ان ذلك الوعيد عبث ولن تستطيع تلك المرأة أن تنفذه لانه سيجلب عليها سخط العالم بأسره .

والتفت الى الأب (الن) فقـــال : السـت على حق فيما أقول .. ؟

ولكن الراهب الجزويتي تفادى الجواب الصريح ، اذ قال :

ـ انك يا مولاى ازاء امرأة عنيفة لا تعرف ربا ولا دينا .. امرأة لا توقر شرائع .. ولا تحترم قوانين ؟

فصاح به الملك وهو لا يزال متشبثا باعتقاده في أن الملكة اليزابيث لن تجرؤ على تنفيذ الوعيد : ولكن عملا كهذا ...

فاجابه الراهب على الفور : لئن كان في الواقع شنيعا فهو ليس أشنع من قتل ملكة اسكوتلندة .. فقد كانت تلك أيضا فعلة لم يكن العالم الاسباني يعتقد انها تجسر على اقترافها

واذ ذاك شعر الملك بصدمة قضت على آماله . وبـــدا يتخاذل ويتراجع في أعماق سريرته .

ولكنه مع ذلك صاح بالرجلين قائلا انه لن يسلم ولن يقبل هذه الاهانة بحال من الأحوال .

ثم صرفهما من حضرته بجفـــاء .. فخـــرجا في صمت وسكون .

وحين خلا الى نفسه راح يرتعش من شدة الكمد والغيظ المكظوم وهو يعيد قراءة الكتاب ويتذكر وقاحة الرســول الذي حمله اليه .

ولكنه أخيرا بدأ يفكر في القصة التي أثارت ذلك الوعيد .. وكان قد نسي من شدة غضبه التفكير في هذه الناحية .. فجعل يتساءل في نفســـه : كيف نجا الدون بدرو من الموت .. مع ان الاخبار التي وصلت الى مسمع جلالته كانت تؤكد بأن سفينته ، الكونسبسيون ، قد غرقت في البحر بكامل من عليها .

وفي الحال تذكر ما جاء في كتاب الملكة اليه ، وهو انه نجا بأعجوبة وآواه قوم من الانكليز حتى عاد الى اسبانيا مختطفا فتاة من أهل البيت الذي بر به وأنقذه وحماه من الهلاك .ولكن

اذا صح هذا فكيف ان الدون بدرو لم يحضر ليقدم فروض
التحية والواجب لملكه على أثر رجوعه الى البلاد ؟
ومن يمكن ان يعرف هذا السر ؟
لا يعرفه غير خال الدون بدرو الكردينال كيروجا رئيس
ديوان التفتيش وكبير أساقفة طليطلة !
وفي الحال استدعى الملك سكرتيره الخاص رودريك
فأملى عليه بضعة أسطر الى الكردينال يطلب اليه فيها الحضور
حالا الى الاسكوريال .
فنفذ السكرتير الامر بأن أوفد رسولا على ظهر جواد الى
الكردينال في طليطلة لكي يمثل في حضرة الملك بلا ابطاء .
وأراد الملك بعد هذا أن يصرف النظر عن هذه المسألة حتى
يحضر الكردينال ، ولكن كلام القسيس ديجو دى كاف على
يتوارد على خاطره ، فلبث يتمثل رؤوس أولئك الاشراف الاسرى
ملقاة في حجره وهي تقطر دما زكيا ، وخيل اليه انه قد رأى
من بينها وجه فالديز الشجاع المغوار الذي خدمه وأخلص
اليه ، وكان يمكن ان يمضي ليخدمه ويخلص في خدمته ، فلم
يلبث ازاء هذه الاخيلة والاشباح الشنيعة النكراء ان ارتجف .
وفي مساء اليوم التالي بينما كان جالسا يتناول طعام
العشاء وحده كعادته اذ نبيء بأن الكردينال كيروجا قد حضر
فطلبه في الحال وتحدث اليه
وقد ارضته نتيجة الحديث فتنفس الصعداء وهدأت
مخاوفه ، فقد علم ان الدون بدرو في السجن التابع لمحكمة
التفتيش وان المرأة التي اختطفها سجينة هي كذلك بتهمة
الكفر وأعمال السحر وانها هي التي غوته واضلته بسحرها
لتسيء الى الدين واخطأ خطأ يوجب التكفير ، وانه سيكفر عن
سيئاته في حفلة المحرقة التي ستقام في طليطلة يوم الخميس
القادم ، وفي هذه الحفلة سوف تسلم المرأة الساحرة الى

السلطة الزمنية لاحراقها عقابا على سحرها مع سجناء آخرين
صدرت عليهم الاحكام من ديوان التفتيش
وختم الكردينال كلمته بقوله انه يرجو ان يشرف جلالته
الاحتفال بحضوره
وراح الملك الكردينال : ماهي البينة التي تثبت
على المرأة اشتغالها بالسحر ؟
وكان الكردينال قد عرف تفاصيل القضية كلها بسبب
علاقتها بابن أخته فراح يقص على الملك جميع تلك الدقائق
والتفصيلات
وجلس الملك مستندا ظهره الى مقعده مغمضا عينيه نصف
اغماضة وقد ارتاح باله كل الارتياح ، اذ وجد العذر الكافي
بالنسبة لموقفه وهو ان واجبه نحو الدين يجعل من المستحيل
عليه أن يسلم لوعيد الملكة اليزابيث وتهديدها وانه كثيرا ما
كانت الاحتجاجات توجه اليه من انجلترا بشأن وقوع رجال
من بحارتها في أيدي رجال محاكم التفتيش وطلب اطلاق
سراحهم وردهم الى بلادهم ، فكان يجيب على تلك الاحتجاجات
بأنه من العبث الالتجاء اليه في أمر خارج عن حدود سلطته
الزمنية في اسبانيا وانه لا يملك في المسائل الخاصة بديوان
التفتيش حق التدخل مطلقا بل لو انه اساء الى الدين لتسم
توجيه الاتهام اليه هو كذلك !
ولذلك لم يسعه الا ان يحمد الله على انه سوف لا يعاتب
أو يلام اذا ما نفذت ملكة انجلترا وعيدها فطاحت برؤوس
أولئك الاشراف ، لان اللائمة ستقع يومئذ على ديوان التفتيش
وحده
هذا هو ما كان الملك يناجي به نفسه ، دون ان يكاشف
كيروجا بشيء منه
وفي تلك الليلة نام ملك اسبانيا نوما هادئا هـــدوء

الذين سكنت خواطرهم وهدأ بالهم ، وشعروا براحة الضمير ؟

الفصل الحادى والعشرون

ضمير الكردينال

عاد الكردينال الى طاولته مسرعا فتناول أوراق التحقيق فى قضية ابن أخته وقد عاد الى خاطره انه كان يهم حين جاءه رسول الملك يطلبه بأن يستدعى القسيس جان ارتزوبلا رئيس المحكمة التى نظرت القضية لاستيضاح بضع نقط فيها لا تزال غامضة

فلم يتردد فى استدعائه فجاء القس على الفور ، وحين سأله الكردينال شرح هذه النقط اخذ هذا فى بيان طويل يوضح شكوكه فى مسألة اتهام المرأة بأعمال السحر

ثم قال :

ـ ومن المحتمل ان يكون الدون بدرو قد استسلم لفتنة هذه المرأة ذات الجمال الخارق فصدرت منه تلك الافعال والاقوال التى لا ترضى الرب حتى انه من شدة رغبته فى الزواج بتلك الفتاة نسى انها تدين بمذهب خارج على الدين ، ولكن اذا كان هذا خطرا فان الدون بدرو حين نبه الى خطورته اظهر استعداده بل لهفته على تحويلها من مذهبها الى الدين القويم . ولم تكن الكلمات التى فاه بها امام المرأة بدافع الحب والتى علق القس لويس عليها أهمية كبيرة ، سوى شكاية عاشق برح به الحب .

وسمع الكردينال هذا البيان فنظر الى القس طويلا ثم قال :

ـ لقد خطرت لى نفس الملاحظة قبل مجيئك ولهذا استدعيتك فهل من نصيحة تدلى بها ؟

فأبدى القس حركة تدل على انه يائس لا يعرف مخلصا

فأطرق الكردينال لحظة ثم رفع بصره فقال : ولكن اذا نحن لم نأخذ بتهمة السحر فماذا يكون مصير ابن اختى ؟ لقد ارتكب تجديفا وذنوبا اخرى ولا بد من ان يكفر عنها ومعنى هذا انه قد يدفع حياته ثمنا لذلك التفكير اذا لم يتبين انه لم يكن مسئولا وان المسئولية واقعة على سواه .

فأجاب القس جوان بشجاعة : وهل يراد منا ان نقع فعلا فى الخطأ الذى اتهمتنا هذه المرأة به ؟ .. أيراد منا ان نبرر اتهامها ؟

فلم يكد الكردينال يسمع هذا حتى نهض من مجلسه غاضبا وانثنى يقول :

ـ ماذا تعنى بهذا ؟ هل كنت اقول ما قلته لو كنت اعتقد ان ابن اختى مذنب ؟ أليس يحق لى بالنظر الى ماضيه أن افترض براءته واعتقد انه لا بد من أن يكون قد فعل ما فعله تحت تأثير السحر . هذا هو ما اعتقده فى أعماق ضميرى ولكن هل لأننا لا نملك الوسائل الكافية لتقرير ذلك يصح أن نتركه فريسة للموت ومصادرة املاكه ؟ وتلطيخ سمعة بيته واسرته ؟

فحار القس فى أمره ولم يسعه الا ان يقول :

ـ ما دمنا لا نجد ما يؤكد التهمة فلا نستطيع ان ندين المتهمة . ولست أدرى من أين يمكننا ان نأتى بهذا التأكيد ؟

فصاح الكردينال به فى لهجة رجل يبين شيئا بديهيا لم يكن بحاجة الى بيان :

ـ اسألنى من أين ؟ من المتهمة نفسها ؟

فهز القس رأسه قائلا .

ـ أعتقد أنها لن تسلم ولن تعترف مهما فعلت

فنظر كيروجا اليه طويلا وقال :

ـ أراك الى الآن لم تعمد الى استجوابها بالتعذيب !

فبسط القس يديه وقال في لهجة من يشعر بأنه موضع تهمته :

ـ اذا كنت الى الآن لم ألجأ الى هذه الوسيلة على الرغم من اقتراح عضوى المحكمة وتشديدهما في وجوبه . فلم يكن ذلك الا بدافع خوف بل يقيني من أنه لن يفيد

فصاح الكردينال به قائلا : لن يفيد ؟

وكانت الدهشة في صوته بالغة حتى ابتسم القس قائلا :

ـ انك لم تشهد هذه المرأة يا مولاى ولذلك لا يمكنك ان تحكم على مبلغ قوة نفسها ومتانة ارادتها وشدة عزيمتها ، ولكني انا الذى رأيتها أعتقد أنه اذا مزقنا أوصالها تمزيقا فسوف لا نظفر منها بكلمة واحدة ولنفرض أننا عذبناها لنستخلص منها شيئا يدينها بأعمال السحر ثم لم تقل شيئا فماذا يكون مركز الدون بدرو في هذه الحالة ؟

فعاد الكردينال الى مجلسه حائرا يلعن ابن أخته ويسخط على القس لويس الذى يبالغ من غيرته على الدين كل تلك المبالغة ثم قال في حنق :

ـ أننا أمام أحد أمرين الآن : اما ان ندين هذه المرأة بجريمة السحر أو أن ندين الدون بدرو فنعرضه للموت وضياع أملاكه .. ولكنك تقول لي أنه لا يمكن ادانة هذه المرأة بذلك الجرم ؟ ..

قال : هذا ما أعتقده جازم الاعتقاد .

فساد السكوت طويلا

واخيرا التفت الكردينال الى القس فقال وهو يفحصه مليا :

ـ هل حقيقة ان الغاية تبرر الواسطة ؟

فقال القس : ان الجزويت يؤكدون ذلك .

فعاد الكردينال يقول : هذه مسألة تسمح للتدليل على انهم لم يخطئوا ، فكر مليا معي في مسألة ابن اختى هذا ، انه شاب خدم ربه ودينه ومليكه بكل اخلاص وولاء فاذا رأينا هذا كله ، أفلا يصح لنا ان نذهب الى انه لم يكن ليرتكب تلك الجنايات ضد الدين لو لم يصب بخبال ؟! وسواء كان هذا الخبال نتيجة سحر استخدم ضده تبعا لأقوال القس لويس ، او بتأثير سحر الطبيعة كما تذهب اليه انت في تعليلك ، فان هذا قد نستطيع تقريره فيما بعد والقطع فيه . اما الذى يهمنا تقريره الآن فهو ان هذا الخبال موجود . فهل لديك شك في هذا وانت الذى فحصته واختبرته كما فحصت المرأة الانكليزية ايضا واختبرتها ؟

فأجاب القس جوان على الفور وبلهجة الصدق :

ـ لا شك عندى مطلقا

فاستطرد الكردينال :

ـ واذن فلا شيء هناك يزعج ضمائرنا لو نخل بواجبنا اذا نحن في هذه الحالة عكسنا سياق الاجراءات . واذا كانت الاجراءات المألوفة تقضي بأن نحيل أولا التهمة الموجهة الى المرأة لكي نقيم الأسباب التي توجب الحكم على الدون بدرو ، أفلا يجوز ـ لقيام هذه الأسباب في خواطرنا ـ وتحققنا من صحتها في ضمائرنا ، أن نتغاضى عن نظام الاجراءات فنحكم على الدون بدرو أولا باعتباره غير مسئول عن أعماله لانه وقع تحت سحر تلك المرأة وبهذا يقتصر

الحكم عليه على تطهيره علنا في الاحتفال الذي سيقام يوم الخميس القادم . قبل ان تقرر ما ستقرره بشأن المرأة نفسها حتى اذا لم تثبت عليها تهمة السحر لعدم وجود الادلة والبينات الكافية ولم يبق لدينا غير الحكم عليها في تهمة الكفر والمروق من الدين ، لم تعد هناك مجال لاعادة القضية من جديد ضد الدون بدرو !؟

وسمع القس جوان قول الكردينال وظل صامتا لحظة ، ثم قال :

ـ لقد فكرت انا ايضا في ذلك .

فابرقت عينا الكردينال والقى يده فوق كتف القسيس وصاح به قائلا :

ـ هل خطر لك هذا ايضا ؟ ولكن لماذا .. ولم يتم السؤال !

فهز القس رأسه وزفر زفرة حادة وقال :

ـ لان هناك اعتراضا واحدا عليه ، وهو ان المجال دائما متسع في محاكم التفتيش عادة لاعادة النظر في اية قضية سبق نظرها .. اذا ما اتضح ان هناك بينات عليه اكثر من البينات التي ظهرت في وقت محاكمته الاولى التي حكم فيها عليه

فصاح الكردينال به : اعرف هذا .. ولكن هذه القضية بالذات .. من هو الذي سيخطر بباله ان يعيدها للنظر ؟

فتردد القس جوان قبل الجواب ولكنه قال اخيرا :

ـ هناك ضمائر اخرى غير ضمائرنا يانيافة الكردينال فقد يوحي الضمير الى احد خصوم الدون بدرو ان يطلب تكفيرا كاملا عن جناياته في حق الدين ، وقد يأتي من يخلفك او يخلفني في يوم من الايام فيطلع على الدفاتر والقيودات

فيلحظ هذه المخالفة القانونية ويعمد الى تصحيحها واحقاق الحق !

قال : في وسعنا أن نحتاط لهذا دون أن نشعر بأى ازعاج

أجاب : ولكن لا ينبغى أن ننسى وجود القسيس لويس فأجفل الكردينال من هذا التذكر ورفع يده من فوق كتف رئيس المحكمة قائلا بدهشة :

ـ اهو المبلغ الذى كان السبب في كل هذا الاشكال ؟

فاجابه القس قائلا : ان حماسته اكبر من ذكائه . وليس عندى خالجة من الشك في انه سوف يهيج اشد الهياج اذا لم نقرر ان الاتهام باعمال السحر صحيح لانه لا يقبل شكا في هذه الناحية وسيكون لهذا اول صائح بالاحتجاج

فكاد الكردينال يتميز من الغيظ وصاح قائلا : وما شأن هذا الرجل في المحكمة ؟ وهو ليس الا شاهدا لا حول له ولا صوت في القضية مطلقا ؟

فاجابه القس بقوله : ولكنه المبلغ . وصوت المبلغ هو الوحيد الذى ليس في وسع ديوان التفتيش اسكاته . وقد كان عضو اليمين خلال جلسات القضية كلها مؤيدا له متفقا معه في وجهة نظره بل اخشى ان يكون عضو اليسار ايضا قد اصبح يتهمني بانى الين في حكمى على الكفرة والزنادقة

فنظر الكردينال طويلا في وجه القسيس الرحيم المتلطف وراح يسأله قائلا :

ـ هل تظن ان القس لويس سوف يعترض ويحاول ان ينتقم ؟

قال : هذا ما كنت مترددا في قوله حتى قلته يا نيافة

الكردينال وانا لا يسعنى سوى اقراره ، لانى واثق انه اذا لم يحكم على المرأة بتهمة السحر مع تهمة الزندقة ، فسوف يثار من الذين يعتقد انهم قسوة ولم يعملوا برايه ، ووجه انتقامه حينئذ هو أن يصر على محاكمة الدون بلدرو من جديد

فاستولى الحيرة على الكردينال وشعر بانه فى مازق ضيق ، ولكنه فى النهاية اشار بوجوب المجازفة والالتجاء الى عرض المرأة على آلة التعذيب لحملها على الاعتراف قهرا بأنها الاثيمة المذنبة

غير ان القس جوان اطرق قائلا : ليكن ذلك ما دمت يا مولاى تريد ذلك ولكنى اؤكد لك ان هذه مجازفة ستقضى على الدون بلدرو فى النهاية بلا ادنى شك

فرأى الكردينال ان هذا القول سيعود بهما الى المناقشة من البداية ، فلم يسعه سوى صرف القس جوان من حضرته قائلا :

ـ سوف افكر فى الامر مليا . وسادعو الله ان يلهمنى الصواب وافعل انت كذلك .. والآن اذهب فى حراسة الله !!

الفصل الثانى والعشرون

كاهن الملك

فى مساء الاحد تناول الملك فيليبمن الفطائر واصناف الحلوى اكثر مما يجب ، واذا به يصحو مبكرا فى اليوم التالى وهو يتصبب عرقا من شدة الذعر اذ خيل اليه ان شيئا ثقيلا قد استقر فوق صدره ومعدته وان هذا الشىء هو جماجم الاشراف الثمانية المضرجة بالدم وهى ملقاه فى حجره !

واستوى فى فراشه واطلق صيحة داوية جاءت بخادمه الخاص سانتوريو مهرولا نحوه ، فاذا هو يجده متشنجا مضطربا يأتى بحركات غريبة كمن يطرح بكلتا يديه كومة من الجماجم الدامية من حجره

فاسرع الخادم وبعث فى طلب الطبيب

فلما جاء هذا واراد ان يتحرى اسباب هذه العلة الفجائية عثر باطباق الفطير فهز كتفيه بأسا لقد سبق ان احتج على تناول الملك هذا النوع المتلف من الاطعمة فكان نصيبه على تلك النصيحة الشتيمة والاهانة ووصفه بأنه حمار لا يفهم فى الطب شيئا !

ولهذا لم يشأ ان يقول للملك ما قاله من قبل فلا يصيبه غير ما اصابه ، وانما جعل حديثه مع سانتوريو فاشار هذا بأن تترك النصيحة للملك فى هذه المسألة لكاهنه الخاص ، فان الكاهن يستطيع ان يلقى فى روع جلالته ان النهم اثم عظيم يغضب الرب ، وان الامتناع عنه حلال ، وان الافراط فيه اذى للروح بقدر ما هو اذى ومضرة للبدن ، واستضحك الطبيب لهذا الاقتراح مشيرا الى ان الملك لم يمتنع عن اثم من الآثام الكبرى مخافة من الله ، حتى يجوز ان يخاف من اكل الفطير خشية اغضابه !

ولكن الخادم كان عمليا اكثر من الطبيب اذ ذهب فى ضحى ذلك النهار يبحث عن كاهن الملك وهو القسيس دييجو دى كاف .. فلما لقيه خبره بما جرى وشرح له سبب الوعكة واعراضها الظاهرة

ولم يدر الخادم ما كان فى نفس القس ساعتئذ ولم يخطر بباله ان الكاهن قد راى فى هذه النائبة فرصة صالحة له فقد كان رامون دى كاف عميد الاسرة التى ينتسب القس اليها احد الاسرى الثمانية السجناء فى برج الذل

والذين اصبحوا فى خطر من وعيد الملكة اذا اصر ملك اسبانيا على رفض النزول على ما تريد

وحين جاءه سانتوبو ليستشيره فى مرض الملك كان مشغول الخاطر يفكر طويلا فيما ينبغى أن يلجأ اليه لكى يحمل الملك على التسليم انقاذا لرأس أخيه من آلة الاعدام فلم يكد يسمع القصة من سانتوبو حتى ظن أن الله قد استجاب لدعائه طيلة الليلة الماضية لأنها فتحت امامه سبيلا لاغراء الملك بقبول التسليم دون أن يظهر أن له غرضا خاصا من وراء مشورته لجلالته ونصائحه

ولكن الصعوبة هى فى أن الملك كان من عادته أن يعترف لكاهنه فى ايام الجمعة فقط من الاسابيع ، وأن اليوم كان الاثنين ، وان اليوم التالى وهو الثلاثاء موعد احتفال المحرقة فى طليطلة ، وهو اليوم الذى ستساق فيه المرأة الانكليزية التى كانت السبب فى كل هذا الاشكال الى « المحرقة » لتحرق حية ، عقابا على الكفر والزندقة والسحر التى أدينت بها . فاذا جرى ذلك فعلا فلم يعد ثم أمل فى انقاذ حياة أخيه من الهلاك

وهكذا تشعب الموقف .. ففى ناحية كان الكردينال ثائرا من الخوف على ابن أخته الدون بدرو .. وفى ناحية اخرى كان كاهن الملك بدافع الحب الاخوى يخشى أن ينفذ القضاء فى المرأة الانكليزية فيطاح برأس أخيه

ولكن الكاهن لم يكاشف الخادم بهذه العوامل الشخصية .. وانما تظاهر بالاهتمام الشديد بصحة الملك . وأوحى اليه أن يحمل الملك على أن يرسل فى طلبه .. وقبل أن ينصرف نفحه بهدية طيبة وباركه اظهارا لاعجابه به وتقديرا لاخلاصه واعتماده عليه فيما يتعلق بسلامة الملك وصحته .

وهكذا لبث القس ديجو فى داره ينتظر أن يستدعيه الملك .. بينما ذهب سانتوبو وهو معتزم تنفيذ الفكرة عند اول فرصة تسنح له .

وكان الملك فيليب جالسا يؤشر تأشيراته المستمرة التى لا تنقطع على الاوراق المكدسة بجانبه .. وفيما كان ماضيا فى هذا العمل الميكانيكى المتواصل اذ وقف لحظة عن التأشير فزفر ورفع يده المعروقة الناحلة الى جبينه الشاحب ولكنه لم يلبث أن مدها الى كومة الاوراق القريبة منه ليتناول ورقة اخرى .. واذا به يشعر بأن يدا تقاومه .. فالتفت فوجد سانتوبو واضعا كفه على الكومة وعيناه تنظران اليه باهتمام غريب فصاح جلالته به قائلا :

ـ ما هذا ؟ ماذا تفعل ؟

قال : يا مولاى . ! الا يكفى ما عملته اليوم ؟ اتذكر يا مولاى انك كنت منحرف المزاج ليلة أمس .. واراك يا صاحب الجلالة متعبا منهوك القوى

فنظر الملك اليه بعينيه الصفراء الباردة .. ولكنه خفض بصره فى الحال . ثم قال :

ـ منهوك القوى ! انا ؟

ولكن هذا الايحاء أثر فعلا فيه فرفع يده عن الاوراق وتهالك فى مقعده وأغمض عينيه .. ثم فتح عينيه ثانية وهو يقول :

ـ سانتوبو . ! ماذا قال الطبيب عن حالتى . ؟

ـ قال انه يظن انها ناشئة من الاكثار من الفطير .

ولكنى شعرت يا مولاى بانه مخطىء .. لانه لم يكن ثم حاجة الى طبيب ليعرف ماذا يؤلم جلالتك .. وقد قلت للدكتور يا مولاى ان الالم قد أتاك من معدتك .. ولكن من جهة روحك . ؟

فصاح الملك به : صه أيها الأحمق . ! ماذا تعرف انت من الروح . ؟

قال : لقد سمعت جلالتك تفوه بكلمات وعبارات مبهمة في وسط آلامك الليلة البارحة .. وخشيت أن يكون ما قاله القس ديجو هنا يوم الجمعة هو الذى شغل بالك يا مولاى واستولى على خاطرك .. وانه قد يحسن أن تستدعى كاهن سانتا كروز ليداوى الجرح الذى كان سببا في فتحه .. ولكى يعيد الى روحك يا مولاى السكينة التى هى احوج ما تكون اليها . !

لقد كان هذا وحده كافيا لتذكير الملك بتلك الاشباح التى ما فتئت تتمثل له .. ولكن الملك لم يتبين منه في تلك اللحظة غير ذكاء خادمه في تشخيص علته النفسية .. فغمغم بكلام خافت غير مسموع .. وتحامل على نفسه من جديد ومد يده ليتناول الورقة التالية .

وازاء هذه الحركة التى جعلت سانتوبو يأسف على اخفاقه في المحاولة راح الخادم من خلف جلالة الملك يقلب كومة الاوراق رأسا على عقب بحركة غير ظاهرة ليجعل الورقة التالية التى سيأخذها الملك هى التى كانت آخر الاوراق المكدسة بجانبه .

وكان سانتوبو في هذه الحركة مدللا على ذكائه ببرهان جديد فقد كان يعلم سر قلق الملك واضطرابه .. وهو كتاب ملكة انجلترا اليه ووعيدها له .. فاراد أن يجدد هذا القلق ليصل الى الغاية التى تآمر عليها مع الكاهن .

فخطر له ان الكتاب الموضوع في آخر الكومة كان قد وصل في ذلك الصباح من دوق مدينا سيدونيا الذى كان السبب في نكبة الاسطول الاسبانى في غارته على انجلترا .. وقد بعث الدوق به الى الملك يقول فيه انه قد باع احدى

ضياعه ليجمع المال الذى تريده انجلترا فدية لفكاك الامير ال « فالدير » من الاسر .. وانه انما فعل ذلك تضحية منه في سبيل انقاذ ذلك البطل المغوار ورده الى وطنه الذى خدمه واحسن اليه .

ومد الملك يده فتناول الورقة التى فوق الكومة المكدسة بجانبه ، وكانت هى ذلك الكتاب ، بتلك الحركة الماكرة التى قام بها سانتوبو الخبيث ، فلم يكد جلالته يقرأ ما فيه حتى رعشت انامله فسقط الكتاب منه وارتمى في مقعده الرهيب مطبقا جفنيه وراح يعرف قائلا : اللعنة الكافرة ! الزنديقة !! . سانتوبو أنا مريض كما قلت . وسأكف عن العمل ، هات ذراعك !

وقام الملك من كرسيه متكئا على سانتوبو ومشى متحاملا يريد مخدعه .

وعند ذلك عاد سانتوبو يذكر اسم ديجو دى كاف مقترحا على الملك ان يدعوه أمله بحاجة الى مشورته الروحية ولكن الملك اسكته فلم يسعه الا الصمت

ولكن الملك في تلك الليلة كان مضطربا في نومه لا يفارقه شبح رأس فالدير ، حتى كان يوم الاربعاء وقد الح الاضطراب عليه في الليلة الماضية فاصطلح من الغداة وهو ينزع الى العمل باشارة خادمه . ولعله كان بعقله الباطنى يشعر بأن اليوم التالى هو ميعاد الاحتفال في ملبطلة وانه اذا تأخر اربعا وعشرين ساعة اخرى فات الاوان ولم يعد يستطيع شيئا

ولهذا صاح اخيرا بخادمه : ادع لى القس ديجو في الحال ليطرد عنى هذه الاشباح التى كان هو السبب في ازدحامها على خاطرى !

وقدم الكاهن وهو هادىء ساكن الاوصال فدخل على الملك فى مخدعه وادنى مقعدا من الفراش فجلس ، وبعد ان تبادل الحديث مع الملك فى شأن الصحة طلب الى جلالته ان يعترف له لكى تريح نفسه من اى عبء ثقيل قد يكون هو السبب فى تأخر شفائه من علة البدن

فامتثل الملك وانشأ يعترف ، حتى اذا انتهى من ذلك انشأ الكاهن يقول :

ـ لقد وضح كل شىء يا بنى . فان هناك الميين عظيمين يتملان فى اعماق نفسك وهما سبب هذه العلة التى اسقمت بدنك وان يؤاتيك الشفاء حتى تتطهر منهما

ان عسر الهضم الذى اصابك نتيجة ألم النهم قد اطلق عليك اشباحا مزعجة لاشئة من ألم الكبرياء فاحذر يا بنى داء الكبرياء ، انه شر ما يصاب ابن آدم به . بل لقد كان هو الذى طرد ابليس من ملكوت السماء وهو اشبه شىء برداء خفيف يرتديه المرء ولا يكاد يحس به فى حين يكمن من ورائه جميع آثام الدنيا وشرورها التى تطرده من رحمة الله

فتأوه الملك وتوجع قائلا :

ـ رباه ! افتقدر لى ان اذوق طعم الاذلال طيلة الحياة ؟ !

فقاطعه الكاهن قائلا :

ـ ان هذه الاشباح والخيالات قد تمثلت لك فقط فى هذه الايام الاخيرة . فهل تدرى من اين اتت ؟

فصاح الملك به : اتسألنى من اين اتت ؟ من الاسف . من الخوف من الحب لاولئك الاشراف الذين خدمونى واخلصوا فى خدمتى والذين تريد تلك المرأة التى تحكم انجلترا اليوم ان تذبحهم ذبح الخراف !

قال الكاهن : ما لم تطرد عنك الكبرياء وتعد بعدك

الى الظالم

اما اذا انت اصررت على كبريائك وابيت الا ان تظل رافع الراس هوت تلك الرؤوس العالية البريئة على مذبح الكبرياء !

فجعل الملك يتلوى كأنما قد اوجعه الم جسدى . ولكنه ما لبث ان تمالك وقد خطر له شىء رأى فيه سبيلا للخلاص ، وانشأ يقول :

ـ لو اردت ان اعمل لما استطعت . فان الامر ليس فى يدى . ان انا الا ملك اسبانيا . فليس لى على ديوان التفتيش سلطان ولا حق لى فى التدخل فى ملكوت الله . انا الذى تتهمنى بالكبرياء

ولكن الكاهن ابتسم ابتسامة اشفاق وقد التقت عيناه بعينى الملك وقال :

ـ واذا اقتضتك مصلحة اسبانيا وشئون الدولة ان تكف يد ديوان التفتيش فهل تحسب رجاله قادرين على ان ينكروا عليك هذا الحق ؟ الا كن صادقا تجاه ربك ايها الملك فيليب ! الا ترى كيف يخفى رداء الكبرياء اسوأ من الآثام . فهلم يا بنى اخلع عنك هذا الرداء فانه بئس الرداء ، وشر الكساء !

فنظر اليه الملك لحظة لم اشاح عنه ببصره ، وفى عينيه الصفراوين الم شديد . الم الكبرياء . وجعل يقول :

ـ هذا لا يمكن ابدا ! افاحتقر نفسى واضعها دون منزلتها ؟

فصاح الكاهن به بصوت كأنه نفير الفزع ونهض مادا عنقه فى غضب قائلا :

ـ اتقول هذا بلسانك ؟ اتسأل هل تحتقر نفسك وتضع من منزلتها نعم ، والا وضعك الله دونها واذلك فى

النهاية . ولن تجد مفرا لك من تلك الاشباح . تلك الجماجم التي تقطر دماء ، انها اللحظة تبتسم لك وهي في حجرك ! نعم انها لتبتسم لك هكذا ولا تزال قائمة على اكتاف اصحابها الاحياء ولكن غدا ماذا تكون ابتسامة تلك الجماجم اذا هي سقطت تحت مقصلة الجلاد ؟ ! لا لشيء سوى أن كبرياءك ابى عليها الحياة أفتحسب هذا سيزحزحها عنك أم تراه سيدفعها الى مطاردتك في كل مكان حتى يذهب لبك فلا يصيبك من كبريائك الا العذاب . عذاب النفس ، عذاب الضمير وأنت في الآخرة من الخاسرين !

فصاح به الملك : وهو يتلوى ويتململ في فراشه « كفى كفى » ! فسلما مذبحنا وقد مزق رداء كبريائه واحنى رأسه وخضع لوعيد الملكة الكافرة .

الفصل الثالث والعشرون

الاحتفال

واعقب تسليم الملك وامتثاله لاغراء الكاهن رد فعل غريب جعله في عجلة شديدة لتنفيذ امر كان يمكن ان ينفذ بسهولة وراحة منذ ثلاثة ايام ، ولكن ابى عناده الا أن يسلم بهذا التنفيذ قبل موعده بساعات !

فقد استدعى جرفاس من السجن في الساعة الحادية عشرة من صباح الاربعاء ، بعد أن قضى ثلاث ليال سويا في محبسه يقاسي بأسا اليما ولا يدري ماذا يصنع الله به

ولكنه لم يمثل في حضرة الملك ، وانما حضر امامه سكرتير جلالته ، وهو رودريك ، وكان الملك قد املى عليه نص كتاب الى رئيس ديوان التفتيش ومهر الكتاب بتوقيعه وجعل معدا للتسليم لجرفاس

وقبل ان يدفع بالجواب الى يده راح السكرتير يذكر

له ان الملك قد عفا عنه ورأى أن العدالة تقضي بأن تأخذ مجراها ما دام الظلم قد وقع من احد رعاياه

وسلمه الكتاب قائلا :

– ان المرأة التي يراد اطلاق سراحها بالامر الذي يحويه هذا الكتاب سجينة الآن في محبس ديوان التفتيش لا بتهمة الكفر فحسب بل بتهمة أعمال السحر كذلك لاضلال الدون بدرو دي مندوسا اولونا حتى انه نسي واجبه نحو ربه وشرفه واختطفها من بلادها وجاء بها الى هذه البلاد . فهي الآن سجينة في طليطلة والى الآن لم تصب بسوء ولكنها قد صدر عليها أخيرا الحكم بالاحراق في الاحتفال الكبير الذي سيقام غدا في طليطلة ، وعليه يطلب جلالة الملك أن يسافر حالا بأقصى ما يمكن من السرعة لتسليم كتابه هذا الى الدون جاسبار دي كيروجا رئيس ديوان التفتيش في تلك المدينة ورئيس اسقافتها فان هذا الكتاب يحوي أمرا صادرا اليه بأن يسلمك السلادي مرغريت كاستيلان ، كما أن جلالة الملك قد تفضل بالسماح لك بالاقامة أربعة عشر يوما في اسبانيا على أن تغادرها في نهاية هذه المدة مصطحبا معك تلك المرأة . فاذا وجدت بعد هذا التاريخ في اي أرض اسبانية كانت النتيجة سيئة للغاية .

فتناول جرفاس الكتاب بيد راعشة ، فقد امتزج سروره لهذه النتيجة بخوف من أن يكون بتكليفه بهذه المهمة قبل موعد الاحتفال بساعات معدودة ، لا غرض منه سوى تعجيزه

وفي فناء القصر لقي ضابطا في انتظاره ومعه ستة رجال على ظهور الخيل وجواد معد لركوبه . وكانت اسلحته قد ردت اليه فلم يضيع لحظة من الوقت ولم يتلكأ في الانصراف من الاسكوريال مع الضابط على رأس

ذلك الحرس الصغير

وأطلق جرفاس لجواده العنان

فلما أصبح على مسيرة أربعين ميلا من طليطلة قيل له ان الاحتفال سيقام قبل الظهر ، فاشتد اضطرابه حتى لم يشأ أن يستريح في ذلك الموضع ولو ساعة واحدة كما أشار عليه الضابط الذي يرافقه في سفره

على أنه لم يجد في " بروينت " غير ثلاثة جياد فأبى الضابط مواصلة المسير .. ولكن جرفاس أصر على رأيه حتى اهتز شارب الضابط من الغضب ولكنه لم يجد بدا من الاذعان فالتفت الى جنوده فألقى اليهم أمرا لم يسمعه جرفاس فانطلقوا ولكن ما لبث أن عاد أحدهم بالجياد الثلاثة ، فامتطى جرفاس جوادا منها ، وركب الضابط آخر ، وأخذا معهما جنديا واحدا من الحرس

وانطلقوا في واد رهيب موحش على ضياء القمر وكان الجو باردا ولم يكن جرفاس مرتديا معطفا بينما كان الآخران متلفعين برداءيهما ولكنه لم يكن يشعر ببرد ولا زمهرير

وفي الطريق تخلف الجندي بسبب كبوة جواد جرفاس .. فأبدله هذا بجواد الجندي .. واستطاع هو والضابط أن يبلغا أخيرا بعد مشاق وصعاب « فيلامل » بعد السابعة من صباح اليوم التالي « الخميس » ، ولا تزال أمامهما خمسة عشر ميلا أو نحوها الى طليطلة .

وهنا أبدى الضابط شكواه مما يحس من الجوع .. وصارح جرفاس بأنه لن يتحرك خطوة أخرى حتى يتناول طعامه .. فسأله جرفاس عن الموعد الذي يقام الاحتفال فيه .. فأجابه قائلا :

يبدأ الموكب عادة من دار ديوان التفتيش بين الثامنة

والتاسعة

فلم يكد جرفاس يسمع ذلك حتى اشتد به القلق وتزايد اضطرابه .. وأجمع نيته على أن لا ينتظر دقيقة واحدة أكثر من الوقت الذي يستغرقه تجهيز جواد جديد لركوبه .. وجاء أحد الجنود بالجواد المطلوب .. فترك جرفاس زميله يلعن ويسخط ووثب فوق صهوته وهو يقول : « اتبعني على مهلك يا صاح بعد أن تفرغ من فطورك » .

وانطلق بجواده ينهب الأرض نهبا ، وهو يخشى أن يكون قد وصل بعد فوات الوقت . وهكذا انطلق شارد الخاطر لا يحس ولا يبالي خطرا ولم تكد الساعة تؤذن بالتاسعة صباحا حتى كان يدنو من مدينة طليطلة ويشهد حصونها المحيطة بها الحافلة الأسوار بالمعتصم .

ولما اقترب من أبواب طليطلة رأى زحاما شديدا عندها وقد اشتد الهرج والمرج بسبب حجز الحراس لهم عن الدخول .

ولكنه لم يتردد في اختراق الصفوف وراح يعلن الحراس أنه رسول من قبل الملك .. فنظر هؤلاء شزرا اليه واسترابوا به .. فأخرج الكتاب الذي يحمله وجوازه فأبرزهما لهم .. فتراجع كبيرهم محييا بأدب ولكنه مانع في دخول الجواد مبديا أسباب المنع .

فلم يسع جرفاس سوى الاذعان .. وترجل عن جواده وسأل الحارس عن أقرب طريق الى قصر الكردينال فأشار الرجل الى الكاتدرائية قائلا له : اذا وصلت بها فاسأل هناك .

ودخل جرفاس المدينة ، فلم يكد يسير قليلا حتى وجد نفسه وسط موجة من الناس تدفعه في تيارها على

غير ارادته .

وما زال الموج الانسانى يدفع به حتى القى اخيرا على ساحة واسعة فرأى فى وسطها قوائم مشنقة على جانبي من جوانبها صفوف متراصة من المقاعد والمتكآت ... لم يلبث أن وجد نفسه على الجانب الايسر ومن ورائه جدار شاهق . فوقف يهدىء من آلامه ويتمالك انفاسه اللاهثة ومايكاد يفعل حتى شعر بتراخ يغمر جميع أوصاله .. ذلك التراخى الطبيعى الذى يعقب التعب الشديد .. والأرق الطويل .. والحاجة الى الطعام وضعف المجهود .

على انه تلفت حوله ليرى مخلصا له .. فاذا به يلمح مرتفعا بجانبه لا يكاد يعلو قدمين عن الأرض . فاستوى فوقه ليستنشق الهواء .. ومن شدة الاعياء قنع بالبقاء لحظة فى مكانه ليستريح من التدافع وسط هذا الموج البشرى العظيم .

وكان الشارع الذى وقف فى زاوية منه ليستريح مزدحما بالناس الا فرجة فى وسطه قد تركت خالية يحيط بها سياج خشبى ويصطف حولها حرس مدجج بالسلاح . وقد قامت المشنقة فى وسطها يصعد اليها بمدارج عراض ، وعلى يسارها منبر يواجهه قفص من حديد يحوى مقعدا واحدا من الخشب وفى الناحية الاخرى من قوائم المشنقة اقيم هيكل مغطى بالاكسية القرمزية من فوقها صليب بين شموع طويلة ملتهبة ، وهناك سرادق صغيرة يعلوه قبة تتدلى منها أستار مزركشة قرمزية اللون وفى صدر السرادق منصة قد اقيم فوقها مقعد كبير مذهب كالعرش ، عن يمينه مقعد اصغر منه وعن شماله آخر مثله ؛ وعند ملتقى الأستار شعاران كبيران احدهما يمثل الصليب الاخضر اللون الذى اتخذه ديوان التفتيش رمزا له والآخر

شعار الاسرة المالكة فى اسبانيا .

وكانت النوافذ المطلة على الساحة وفى الشارع الجانبى ملأى بالنظارة ، كما كانت اسطحة الدور والشرفات وهى جميعا مجللة بالسواد كما كانت ثياب اهل الحيثية والمراكز الرفيعة سودا كذلك .

وما لبث جرفاس أن شعر بقلبه يخفق على رنين ناقوس ، وراح يرسل دويا محزنا كرنين أجراس الكنائس فى النعى والجنائز ، فتذكر مرغريت وخيل اليه أن هذا الرنين من اجلها واجل الابرياء والشهداء الذين سيذهبون ضحايا لمحاكم التفتيش . وان هذه الجموع الحاشدة من الخلائق انما جاءت لتشهد مصرعها ومصارع امثالها من الابرياء ، فعجب لنفسه كيف ذهل وشرد منه الخاطر حتى وقف هكذا جامدا فى موضعه غير منتبه الى التدافع الذى جاء به يقطع الارض ويسابق الرياح !

فحاول ان ينزل من فوق المرتفع البسيط الذى علاه وهم بأن يدفع الذين وقفوا امامه ليفسح لنفسه طريقا ولكنه لم يستطع .

وعلى هذه الجلبة التى اثارها جرفاس هرع احد شرطة ديوان التفتيش ليرى ما الخبر ، فلم يكد يدنو من الموضع حتى نظر الى جرفاس شذرا فلاحظ أنه مسلم والسيف الى جانبه والخنجر قائم فى منطقته ؛ وكان حمل السلاح فى اثناء سير الموكب مخالفة للقانون يعاقب مرتكبها بالسجن ، ولم يلبث ان وصل نفر من الشرطة .. فاقبل زملاؤهم عليهم ليشاوروهم فى امر هذا الشخص المسلم فى هذا اليوم الذى لا ينبغى حمل السلاح فيه واذا بهم يطلبون الى الصف الامامى من النظارة افساح طريق لهم .. فبادر هؤلاء الى الطاعة رغم الزحام الشديد ..

وجاؤوا يشقون الطريق الى حيث كان جرفاس واقفا وابتدره أحدهم وهو في الظاهر قائدهم يسأله من هو وما شأنه فرد عليه جرفاس بأنه رسول من ملك اسبانيا يحمل كتابا منه الى رئيس ديوان التفتيش وهي مهمة عاجلة لا يمكن تأخيرها لحظة واحدة .

فابتسم الرجل ابتسامة احتقار وتبعه الآخرون بضحكات سخرية واستهزاء . .

ولكن جرفاس لم يعبأ بهذا الهزؤ به . . بل اخرج كتاب الملك والجواز الذي معه فوضعهما جانب عين الشرطي الساخر فما كاد هذا يراهما حتى خرس وسكت ووقف لحظة مفكرا ثم دار بعينه الى زملائه ليستشيرهم في الأمر وأخيرا قال :

ـ الموكب قد بدأ المسير من نصف ساعة من دار ديوان التفتيش وخطة الكردينال في الموكب ومن المستحيل الدنو منه الآن . فيجب ان تنتظر حتى يعود الى القصر على كل حال وعند ذلك نسير بك اليه .

فاضطرب جرفاس وأجاب قائلا ان الامر مستعجل للغاية لا يمكن تأجيله لحظة واحدة لأن الكتاب الذي يحمله يختص بالموكب والاحتفال ذاته .

وفجأة ارتفعت صيحات الجمهور المحتشد وهليلاته الى عنان السماء فتطلع الشرطي برأسه على طول الطريق وفعل جرفاس مثله فرأى على ضياء النهار بريق الأسلحة فادرك أن مقدمة الموكب قد لاحت للأبصار .

والحف على الشرطي بالأسئلة . وكان جرفاس يظن أن المحكوم عليهم سينفذ الحكم فيهم هنا وسط الساحة وعلى تلك المشنقة فلما كاشف الشرطي بظنه هذا استضحك الرجل وسأله عن جنسيته وطفق يخبره بأن محل الاعدام خارج أسوار المدينة وانما اقيمت المشنقة في الساحة صورية فقط

لكي تعلن امامها الاحكام وتقام الصلوات وتلقى العظات .

وعلم جرفاس ايضا من التفاصيل ان ديوان التفتيش قد اعتاد في هذه الاحتفالات ان يسوق الجناة على اختلاف اجناسهم ومتفاوت درجات التهم ، لاعلان الاحكام عليهم امام الناس وعلى رؤوس الاشهاد لاحداث العبرة وقذف الرعب في القلوب للزجر والردع والى هذه الساحة يساق اولا المحكوم عليهم في ذنوب قابلة للعفو والغفران والذين رفضوا ان يتنزلوا على احكام الدين والعائدون الى المعصية والفسوق بعد التوبة والمغفرة وهؤلاء تلفظهم الكنيسة من رحمتها وتسلمهم الى السلطة الزمنية لتعاقبهم بالاعدام وتتولى هي قصاصهم وبذلك يظل ديوان التفتيش بريئا من سفك الدماء !!

ووقف جرفاس حائرا يتلفت لعله يجد سبيلا الى الوصول الى الكردينال وهو في الموكب المتقدم على الطريق رويدا حتى كاد يقترب من الساحة ، فاذا على رأسه جنود التفتيش واشرافه وهم جيش من الشباب في ثياب الحداد وقد ساروا متنكبي البنادق صامتين لا يلتفتون يمنة ولا يسرة ، نحو المقصلة حتى وقفوا صفوفا متراصة ، يتلوهم جماعة من القسيسين وهم يرتلون تراتيلهم المعروفة وقد جاء على اثرهم احد رجال التفتيش يحمل العلم بين رجلين يحملان غصن الزيتون والسيف المسلت وهما رمزا الرحمة والعدالة ، وعن شماله سار رئيس فرقة الدومينكان وعن يمينه رئيس فرقة القنطرة ، ولكل منهما حرس من ثلاثة كهنة . ومن بعد هؤلاء جاءت جماعات وشيع وطرائق من اشراف المملكة على ظهور الخيل الصافنات وهم في أعجب الأزياء وراحوا يسيرون مثنى مثنى في روعة تأخذ بالالباب .

وكانت الجماهير واقفة تشهد هذه المناظر واجمة على كأن على رؤوسها الطير واتفق جرفاس من ذهوله على حركة محترسة بين جماهير النظارة فاذا به يرى الناس والعين

جثيا من فرط الرهبة والخشوع حيال مشهد رجل رهيب يبدو كله فى لون قرمزى أحمر عليه من الحلل ما يغشى اللب ، ومن الجلال ما تخشع له القلوب ، ومن حوله جمع كبير من الاتباع والحواشى وهو رافع كفه ليبارك الجماهير .

وهكذا من موضع قريب استطاع جرفاس أن يرى الرجل الذى يحمل الكتاب اليه . رئيس أساقفة طليطلة وكردينال اسبانيا العظيم ورئيس المجلس الاعلى والمفتش العام !

ولم يكد يمر فى طريقه حتى استوى الناس وقوفا من ركعتهم وفى تلك اللحظة وقد عرف جرفاس اسمه لم يلبث أن تحفز ليشق لنفسه طريقا اليه ولكن استحال عليه اختراق الجماهير .

وفى تلك اللحظة ارتفعت الصيحات واللعنات ودوت الشتائم والفاظ السخط والسباب ، بسبب اقتراب مقدمة المحكوم عليهم والمذنبين وقد احاطت بهم انطقة من الجنود وحملة القوس والقواصل والصلبان ، وكانوا نحوا من خمسين حاسرى الرؤوس حفاة الاقدام يكادون يكونون عراة الا من خرقة من قماش أصفر خشن كالخيش ، وقد حمل كل منهم فى يده شمعة غير مضاءة لكى تضاء عند الهيكل حين ينهى تطهيره واستكمال توبته والغفران له .

وكان من بينهم الشيوخ والعجائز والفتية الاشداء والفتيات الناحلات وهم جميعا مطرقو الرؤوس اذلهم هذا العرض الاليم على الابصار مروعين من هول الصياح الداوى حولهم واللعنات المتناثرة عليهم كالوابل المدرار .

وراح جرفاس يتفحص تلك الوجوه ولم يلبث أن اخذ عينه من صفوفهم فجأة ، وجه خيل اليه أنه قد رآه من قبل ، وجه جميل رقيق ينظر الى الامام وينم عن شدة الالم الذى يعتمل فى صدره ، فأمسك جرفاس انفاسه من فرط الذهول والدهشة والعجب ، وفى الحق تراءى المشهد القائم

حياله فى خاطره ، واعقبته صورة خيالية مرت بذهنه ، وتمثلت فى ذاكرته ، صورة حديقة من حدائق الورد يجلس بجانب شجرة منها سيد رقيق جميل مرح عابث قد وضع قيثارا فوق حجره ، فجاء هو فانتزع ذلك القيثار والقاه بعيدا ، وسمع ذلك الصوت المتهكم وهو يقول له :

ـ يلوح لى أنك لا تحب الموسيقى ياسير جرفاس ؟

وافاق جرفاس على مشهد الموكب السائر حياله فى طليطلة ، وكان الشخص الذى أثار فى نفسه تلك الذكريات قد اجتازه فى تلك الهنيهة ، وهو يلوح فى اشد عذاب النفس وآلامها ، فلم يلبث أن أحس الرثاء له تخيلا انه انما يسير الى منيته ويدنو من حتفه . وتلا ذلك مشهد جمع آخر ولكن جرفاس لم يعد يحفل بنظام الموكب وفرقه وصفوفه لانه ادرك فجأة أن مرغريت ليست بين المحكوم عليهم فلم يلبث أن شعر بطمأنينة بالغة ولكنها ما عتمت أن جددت قلقه واضطرابه لجهله بما عسى أن يكون قد جرى لها ، حتى ذهل عن الموكب ومشاهده .

غير أنه بعد لحظة افاق من ذهلته فلمح الشقة المعلقة ورئيس الديوان فى مجلس القضاء والمحكوم عليهم مصفوفين من اليمين وحيالها جلس النبلاء والاشراف والكهنوت على المقاعد وهناك قسيس قد ارتقى المنبر وراح يعظ الحاضرين .

وتلا ذلك اجراءات الاحتفال مرحلة مرحلة بين هتاف العامة وصيحات الجماهير ثم عودة الموكب من حيث أتى .

وما كاد الموكب يمر حتى تشتت الزحام وانفجرت الامواج البشرية من محتجزها الطويل وانكسرت الانطقة الخشبية التى كانت مضروبة حول الساحة من ضغط المتزاحمين .

وعند ذلك شعر جرفاس بيد الشرطى تمس ذراعه وهو يناديه قائلا :

ـ الآن هيا بنا .. !

الفصل الرابع والعشرون

اللقاء

انتهى الاحتفال كما قدمنا وسيق المذنبون الذين تابوا واصلحوا الى دار التفتيش لكى تتخذ الاجراءات اللازمة فى غداة اليوم التالى لتنفيذ العقوبات التى حكم عليهم بها . اما الذين صدرت الاحكام عليهم بالاعدام حرقا فقد حملوا الى خارج اسوار المدينة عند موضع بجوار شاطىء التاجاس تحتد حياله الرياض والمراعى الناضرة .. حيث أقيم صليب عظيم من حوله اكداس الحطب والعيدان لغذاء النيران التى اعدت للكافرين !

وكان الكردينال قد رجع الى قصره مرتاح البال اخيرا من امر ابن اخته فان الاجراء الذى اتبع القسيس جوان رئيس المحكمة بوجوب اتخاذه ؛ قد نجح فى النهاية فصدر الحكم على الدون بدرو تاشيابدفع الفاجنيه غرامه لديوان التفتيش والسير فى الموكب حافيا ليس عليه الا قميصه والحبل فى عنقه واستمرار ذلك يوميا لمدة شهر فى صحن كتدرالية طليطلة ..وفى نهاية الشهر يعتبر انه قد تطهر من ذنبه وكفر عن اثمه وصح أن يسترد اعتباره ويستعيد مركزه .

أما القضية فيما يختص بالمراة فيصبح بعد هذا استمرار النظر فيها طبقا لقواعد محاكم التفتيش واجراءاتها .. فيحكم عليها سواء من حيث اتهامها كساحرة . او اتهامها فقط ككافرة .. بالاعدام احراقا فى النار عند اقامة الاحتفال التالى ؛ لان هذا الامر لم يعد يهم الكردينال او يشغل منه الخاطر .

ولكن هذا الاستنتاج لم يلبث ان ظهر له متعجلا اذ لم

يمض نصف ساعة على عودته الى القصر حتى جاء القس جوان فى اضطراب وجزع وقلق يلتمس لقاءه .

فلما مثل فى حضرته نباه بان القس لويس قداخذيحتج علنا على الاجراءات التى اتخذت فى القضية ويعلن انها غير قانونية ولا متفقة مع أوضاع محاكم التفتيش وشرعيتها، فان الحكم على «الدون بدرو» فى تقديره واعتقاده قد جرى على اساس مسائل كان يتحتم ان تظل افتراضية حتى يثبت على المراة اشتغالها حقيقة باعمال السحر ... وانه يريد ان يعرف ما هو الاجراء الذى تعتزم اتخاذه فيما اذ لم يفد التعذيب فى استخلاص الاعتراف من تلك المراة .

وقال القس جوان انه قد حاول تهدئة خاطره مذكرا له بانه يحسن به ان ينتظر ليرى هل سيقع مايخشاه أو يتحقق ماهو محتج عليه .. فان هذه الاحتجاجات قبل ظهور أى شىء من قبيل الرجم بالغيب ؛ أو مجرد افتراض وتصور .

ولكن القس لويس استضحك ساخرا وأجاب بقوله انه يعتقد أن الحكم الذى صدر على الدون بدرو كان افتراضا ومجرد تصور لمساعدته على الفرار والتخلص من العقوبة الكبرى التى يستحقها .

وقد قال القس لويس هذا فى محضر جمهور كبير من رجال التفتيش حتى انهم تأثروا من قوله وكانت آراؤهم من رأيه .

فاستاء الكردينال كثيرا ،ولكنه راى من الحكمة ان لا فائدة من الاستياء ازاء رجل فى جانبه الحق .. فتفكر مليا بضع لحظات وهو صامت لا يريد أن ينبس بالكلام عن الله وغضبه .

واخيرا حاول الابتسام بلباقة وقال :

ـ لقد بلغنى الساعة من سيجوفيا أن القس هناك مريض مرضا خطيرا يجب معه تعيين خلف له .. وساعين القس لويس فى هذا المركز اليوم ، فانه يستحق المكافاة على حميته وحماسته الصادقة ، فليسافر الى سيجوفيا فى الحال .

ولكن هذه الفكرة التي ظن الكردينال انها تحل المشكل روعت القس جوان وادهشته .. فانثنى يقول :
ــ ولكن القس لويس سيرى في هذا التعيين محاولة رشوته واعطائه ثمن السكوت .. وسيكون هذا التصور لايقاد نار غضبه وسخطه فيزداد ثورة واحتجاجا .
وشعر الكردينال أن هذا الرأي صحيح فحملق ببصره وظل لحظة حائرا .. ايذهب كل هذا عبثا بسبب عناد هذا القسيس اللعين ..؟ ألم يبق امل الآن في شيء غير حمل المرأة على الاعتراف باستعمال وسائل التعذيب .
وفي تلك اللحظة دخل السكرتير مسرعا وبغير استئذان .. فانتبه الكردينال .. ولكن السكرتير بادره بقوله :
ــ لقد جئت يا مولاي في مسألة من قبل جلالة الملك .
وابلغ الكردينال أن الشرطة قد احضروا رجلا مخفورا لم يشأ نزع اسلحته بدعوى انه رسول من قبل الملك ومعه كتاب من جلالته الى المفتش العام ، وانه يريد أن يسلمه بنفسه .!

ودخل جرفاس على الكردينال وهو لا يزال اشعث اغبر من وعثاء السفر وقد بدا عليه التعب وبلغ منه الإعياء كل مبلغ ، فانحنى عند دخوله وقدم الكتاب . فتناوله الكردينال ونظر الى سكرتيره فقال :
ــ اعطه كرسيا يا بابلو فانه لا يقوى على الوقوف .
فتهالك جرفاس على المقعد مبديا حركة شكر .
وفض الكردينال الرسالة ، وفيما كان يقرأها جعل وجهه يتطلق شيئا فشيئا وتنجاب عنه غمائمه ، ثم اذ فرغ منها التفت الى القس جوان وقد ابرقت عيناه ببريق الفرح والاطمئنان ، وهو يقول :
ــ خذ واقرأ . يخيل لي أن الاقدار قد تدخلت لانقاذنا من ورطتنا لقد اصبحت المرأة خارجة عن اختصاص ديوان

التفتيش بامر ملكي فلا حاجة بنا الى الانشغال بامرها بعد الآن .
وقرأ القس الكتاب .. وقد رأى مما فيه انه جاء في احسن المناسبات بل جاء ليبرئ الكردينال من تهمة التحيز لاحد أقاربه .
ولذلك ما لبث الكردينال أن ابتسم ابتسامة رضى واغتباط ، ولمح القس تهلل وجه الكردينال فانحنى وامسك عن الكلمات التي كانت متحيرة على شفتيه . وذهب يقول :
ــ اذا صادقت على هذا ياغبطة المفتش العام فان السجينة تسلم في الحال .
وكانت هذه الملاحظة اللبقة كتذكرة من القسيس بأن الملك قد تجاوز حدود سلطته الزمنية ، ولكن الكردينال لم يحفل بتلك الملاحظة وانما راح يملي على سكرتيره كلمات التصديق على تسليم السجينة وتناول امر التصديق بعد كتابته فسلمه الى رئيس الحكمة ليرفقه بكتاب الملك .
وعند ذلك التفت الى جرفاس فسأله :
ــ من أنت يا صاح وبأي صفة تسلمك السجينة ؟
فنهض سير جرفاس من مقعده واجابه على سؤاله ذاكرا اسمه وقائلا انه جاء من انجلترا خصيصا بكتاب من الملكة .
فرفع الكردينال حاجبيه مندهشا . قال : أنت انكليزي اذن ؟
وخطر له انه جبان كافر آخر ، ولكنه هز كتفيه هزة غير مكترث اذ حسبه انه قد تخلص من ورطته فلا مدعاة للتدقيق في شيء آخر ، واصدر الامر بالزام الرسول واحسان مثواه ريثما تصل السجينة من محبسها بعد اتخاذ الاجراءات اللازمة .
ولم تمض ساعة حتى جاء رجلان من رجال التفتيش يقتادانها من محبسها وهي في دهشة من امرها .

ووجدت نفسها في غرفة صغيرة وهي لاتدرى شيئا ، وفي الحال قبل عليها من ناحية منضدة قائمة في بهرتها رجل لم تكد تلمحه حتى انقلب المستحيل ممكنا ، والخيال حقيقة والامل واقعا والحلم يقظة .

بل لقد سمعته ينطق باسمها .. وفي صوته وسواس التحابة . وخرير اجهاشه .. ورائه يتقدم نحوها باسطا ذراعيه اليها .. ولكن عقلها أبى أن يطاوع تلك الخدعة .. ويذعن لهذا الخيال .. واذابها تحس انها في احضانه وتشعر بذراعيه تطوقانها .. واذا بذلك الشبح – الاشعث الاغبر المضطرب البزة .. المشوش الهندام – يقبلها .. ويلثم جدائلها ، وعينيها ويطبع على شفتيها حرارة شفتيه .

ولم يعد شبحا او خيالا بعد ذلك فانتزعت نفسها برفق من عناقه وصاحت : جرفاس ! ماذا تفعل هنا !

قال ولم يزد : جئت من اجلك !

قالت وهى تردد كلمته كأنها خالية من كل معنى :

– جئت من أجلى ؟ !

فخطفت على وجه جرفاس ابتسامة حزينة ... وراحت انامله تتحسس شيئا في طيات صدره .

قال : جاءتني رقعتك !!!

قالت : رقعتي ؟ !

اجاب : نعم الرقعة التي ارسلتيها الى في ارونياك تطلبين فيها الى الحضور . اتذكرى ها هي ؟

واخرجها من موضعها الذى كان محتفظا بها فيه .. فاذا هى مطبقة مضطربة علاها الغبار .

وانثنى يقول : ولكن عندما وصلت الى قصر تريفاتيان كنت قد ذهبت .. فتبعتك .. وهانذا قد جئت لأعيدك الى موطنك .

قالت والهة شاردة اللب :

الى موطنى .. ! الى موطنى .. ؟

وكأنما خيل اليها أنها قد بدأت تشم أريج ذلك الموطن العباق الشذى .

قال : نعم كل شيء على استعداد .. وسنذهب الى سانتاندر في الحال حيث ينتظرنا تريستيليان بسفينته .

ولكن حواسها كانت مضعضعة .. ولعلها كان شاردا .. كما كان هو مترنحا من فرط الاعياء .. حتى كاد أن يسقط لولا صوتها العذب الحنون وهى تهتف به .

– جرفاس .. جرفاس .. يالك من فتى ! نعم عجبت ، فتماسك وردت اليه قواه .. وشدت هى على عنقه بذراعيها باكية .

فقال متمتما : لقد كنت واثقا انك ستعرفين حبى يوما من الايام .. !

(تمت)

راجعها : عبده